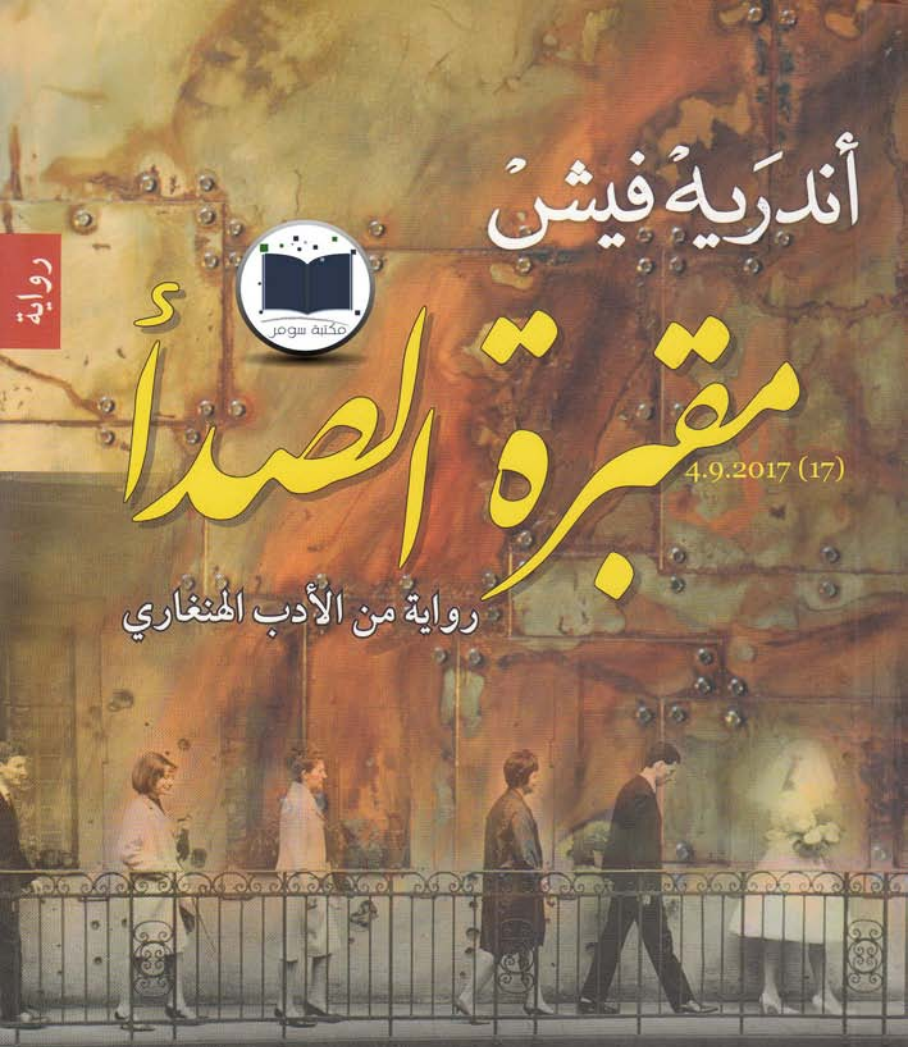

أندريه فيشن

رواية

مكتبة سومر

مقبرة الصدأ

4.9.2017 (17)

رواية من الأدب الهنغاري

ترجمة: نافع معلا

مقبرة الصدأ

Telegram: somrlibrary

رواية

Author: **Fejes Endre**
اسم المؤلف: أندريه فيش

Title: **Rozsdatemető**
عنوان الكتاب: مقبرة الصدأ

Translator: **Nafi Mualla**
ترجمة: نافع معلا

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada**
الناشر: دار المدى

First Edition: **2017**
الطبعة الأولى: 2017

Copyright © **Al-Mada**
جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع لبنون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

Telegram: somrlibrary

أندريه فيش

مقبرة الصدأ

رواية من الأدب الهنغاري

ترجمة : نافع معلا

Telegram: somrlibrary

Telegram: somrlibrary

ليس الإنسان أكثر من عود قصب قابل للكسر. لكنه عود قصب مفكّر، لا تحتاج القدرة الكلية أن تحشد سلاحاً من أجل سحقه. لأن بوسع قطرة ماء صغيرة أن تقضي عليه. ولكن حتى لو كان بإمكان هذه القدرة الكلية أن تسحق الإنسان، فإنما يبقى هو أكثر نبلاً. لأنه مدرك أنه سوف يموت. في حين أنها لا تعرف شيئاً عن هذه الميزة التي بها يتربع الإنسان فوق عرش الأرض.

هكذا فإن كل ما نتمتّع به من رفعة كامن في تفكيرنا. من هذا المنطلق علينا أن ننتفض كبشر، وليس من منطلق التحرك في المكان والزمان، مسؤوليتنا كبشر أن نفكر جيداً. وهذا هو منطلقنا الأخلاقي.

باسكال

Telegram: somrlibrary

Telegram: somrlibrary

كل ما خلّفته الحرب الطويلة في نفس هابتلر يانوش اثنتان من الذكريات كان يرويهما أحياناً إلى جانب أقداح النبيذ.

الأولى أن أحد القتلى في الحرب الإيطالية راح يتحرك. دبت فيه الحياة، وكان مثقوب الجبين، كامد الوجه. تحركت مؤخرته أولاً، ثم تحرك منتصف جذعه، ودبت الحركة، أخيراً إلى رأسه. كان الخلد يخرج من وكره تحت الجندي الميت. وهذا ما جعل الجنود الأحياء يتضاحكون مرتعدين، شاحبي الوجوه.

أما ذكرى الحرب الثانية، فكان يرويها، بنبرة رصينة يشوبها شيء من الحياء.

ذات مساء خريفي تمكن فصيلهم من إسقاط طائرة معادية، وحين صدمت الطائرة الأرض على مقربة منهم، دوى هدير هائل، وتدحرج طياراها قتيلين على التراب. خرج هابتلر برفقة زميله من الغابة، وركضا نحو الطائرة المشتعلة، وأخذا يجردان الطيارين من لباسهما الجلدي.

وهكذا استسلم زميله لنومته الأبدية، مشلوحاً على العشب، شاخصاً، إلى جانب الطيارين، في الغيوم الداكنة.

Telegram: somrlibrary

أما هابتلر يانوش فقد انبطح يدب عائداً إلى موقعه في الغابة، مجرجراً نفسه مثل عنكبوت تحت وابل من الرصاص.

ومن يومها تنسّك. وأقسم أن يكمل بقية عمره باستقامة ويعيش حياته بشرف. و لم يحدث أن نكث بهذا الوعد أبداً.

في الربيع انتقلت كتيبته إلى بودابست، وكان يومذاك قائد مجموعة، وحاصلاً على وسام تقدير يقلد خصيصاً لجرحى الحرب، كما كان صاحب ميدالية «يوجف فرنتس» الفضية، وميداليته البرونزية، ومتقلّداً صليب «كاروي» العسكري. وكان في الوقت نفسه من مستحقي وسام ذكرى الحرب. وهذا الوسام الأخير بالذات، كان محبباً إلى قلبه كثيراً، فقد نقش عليه، فوق الشارة المجرية، بحروف نافرة «برو ديو إن باتريا».

وقد ترك هذا المعنى، بعد أن ترجم له، بالغ الأثر في نفسه.

حطّت الكتيبة في بودا، وحصل أفرادها على مأوى في مدرسة أخليت من الطلاب، حيث تفرّغ الجنود للأكل ولعب الورق. وأخذ وزن هابتلر يانوش يزداد، حتى بلغ سبعين كيلوغراماً. ومع ذلك لم يبد بديناً لأن هذه الزيادة قد تركزت في صدره وعضلاته فضخمتها، وأخفت التجاعيد العميقة في وجهه الغائر.

فيما بعد، كلّفه الرائد الدكتور «ماتياش» بمهمة حراسية في المحطة الجنوبية. فكان يتمشى منذ ساعة الفجر الأولى، حتى العاشرة مساء، بين السكك الحديدية، يمضي مهمته في الاستماع إلى هدير قطارات الشحن، دون أن ينزل البندقية عن كتفه لحظة واحدة.

وكان ينهي نوبة الحراسة وحده، دون تنفيذ الإجراءات المعروفة الشائعة في نظام تبديل الحرس. فعندما يحين الموعد، ولا يأتي البديل

Telegram: somrlibrary

يبادر رفاقه بالاحتجاج حانقاً، ويحملهم تبعات مجيئه من الحراسة، لأنهم تناسوه في المحطة وحيداً. وحتى الرائد الدكتور «ماتياش فيلموش» لم ينج من صدمة المباغتة الاحتجاجية. فطلب من هابتلر الصفح، وقدم له كأساً من البالينكا وقال مهدئاً: ما من مشكلة، سأتدبر أمر الحراسة الليلية حالاً. إلا أن الواقعة ظلت تتكرر فيما يلي من أيام. وظل الدكتور دائماً ينسى أن نوبة حراسة قائد المجموعة هابتلر يانوش قد انتهت.

لم يجد بعد ذلك أملاً في الاحتجاج، فلزم الصمت. وظل يتنكب بندقيته جائلاً بين السكك الحديدية يراقب حركات الناس وأرداف النساء المترجرجة، حتى العاشرة مساءً. ثم يعود. يتعشى، ثم يوصي على غداء اليوم التالي، ويدلف إلى القاعة حيث يغفو على فراش القش تحت مصور أوروبا الطبيعية، بعد أن يقيم صلاة العشاء.

لم يكن محباً للضجيج. كان متديناً يتمتع بروح شفافة بريئة وكانت نكتته اللاذعة اللطيفة، بين حين وآخر، تثير دهشة رفاقه الجنود الذين يطلبون منه كل مرة أن يغني لهم. وكان يستجيب لمطلبهم بقلب نقي، ويردد بصوت لا يقل نقاءً ودفء، الأغاني الشعبية والألحان القديمة، التي يبرع في أدائها.

كان هابتلر يانوش شاباً سليم الجسم، معافى، فائض الطاقة، تتلبسه رغبة عميقة لعناق امرأة، وبعدد تردد وعناء طويل اتخذ قراره بإشباع رغبته. وكان له ذلك في نهاية حزيران «يوليو» حين أرشده أحد العرفاء إلى نادي (الصياد الأخضر) الغني بالمرتادات من الجنس الآخر. وهذا ما يتيح لذائقته حرية الاختيار.

كان النادي في شارع «إرينا» وكان الجنود يراقصون الفتيات في حديقته الواسعة، ويغنون بصوت قوي (ماما تخبز، والخباز يخبز، ماما

Telegram: somrlibrary

تخبز ثلاث فطائر...) وكانت الفرقة الموسيقية النحاسية العسكرية تعزف تحت شادر أحمر بين أشجار الكستناء.

قدم العريف الخبير بالمكان نصيحته الواثقة، قائلاً ليانوش هابتلر:

– اختر فتاة. راقصها حتى تكل، مظهراً إعجابك بحركاتها الراقصة. ثم تناول معها قدحين من النبيذ، وابحث بعدئذ عن مقعد بين الأشجار، بعيداً عن مصابيح الغاز.

اغتسل هابتلر بالماء البارد. وشذب شاربيه بالمقص، وعلق نياشينه على صدره، ثم اندفع بخطوات كبيرة، وجذع منحن قليلاً، – قاصداً نادي (الصياد الأخضر) الموعود.

وقع اختياره على «ماريا بيك». حياها، وقادها إلى حلبة الرقص، حيث راقصها في جو من الحر الشديد، دون كلل حتى المساء.

لما أضيئت المصابيح اتخذا مجلساً حول طاولة طليت بالدهان تحت شجرة الكستنا، وكان قائد الفصيلة هابتلر يانوش يمسح العرق عن جبينه ووجهه.

وكانت ماريا بيك ضاحكة. إنها فتاة نحيلة، قصيرة القامة، صلبة النهدين، يغمر عينيها فتور. وكانت الوحيدة من بين فتيات حديقة النادي، بثياب مخملية سوداء وياقة بيضاء، طلبت كأساً من النبيذ من نوع «كوفيدك» الحامض، وقالت:

– أنا لا أتعرق مطلقاً. لذلك فإن بشرتي تطفح صيفاً بالبقع والبثور.

حين مالت برأسها كشفت له عن جيد قصير ظهرت عليه فعلاً بقع دائرية صغيرة.

Telegram: somrlibrary

حامت حول المصابيح المضيئة هوام دقيقة. وكان في وسط الإسفلت حديقة زهور تنتظر قطرات المطر، محدقة في الراقصين ببراءة.

قطف هابتلر زهرة وقدمها لفتاته. ثم جلس راشقاً إياها بعبارات الإطراء الهادئة المحرجة، حتى كادت أن تكون مخنوقة.

رفعت ماريا بيك وجهها النحيل واتسعت حدقتاها مما زاد في بريق عينيها.

لم يتل هابتلر آيات صلاته هذا المساء، بل استلقى حال دخوله القاعة تحت مصور أوروبا الطبيعية، وغفا على الفور.

في أول يوم أحد من شهر آب تقابلا ثانية في حديقة النادي. كان الطقس حاراً، والجنود المأذونون الذين دوّخوا الفتيات بالرقص المتواصل والغناء، تصببوا عرقاً فوق الإسفلت المرصوص.

ضاغطةً بيدها على منديل، جاءت ماريا بيك بلباسها المخملي الأسود المعهود، تتهادى بساقيها القصيرتين، ولا بد أن كراسي الحديقة قد تأوهت تحتها، كما ارتعشت قطفة الزهر على شعرها. طلبت قدحاً كبيراً من النبيذ الحامض وقالت تكسوها حمرة:

– أنا حامل

فأجاب هابتلر:

– ما من مشكلة.

ثم لم يتفوه بشيء. ظلت عيناه ترصدان الفرقة النحاسية إلى أن سرح في البعيد. بغتة تبسم.

وفي صباح اليوم التالي طرق باب الدكتور «ماتياش فيلموش» فأجاب الرائد بصوت خافت:

Telegram: somrlibrary

- ادخل

صحح يانوش من هيئته ودخل. أغلق الباب. وأسقط المزلاج، وظل واقفاً على العتبة مغمضاً عينيه نصف إغماضة، لأن الستائر السميكة التي تنسدل على النوافذ جعلت حدقتيه لا تألفان ظلام المكان إلا بعد حين.

كان الرائد واقفاً في أبعد أركان مستودع الوسائل الفيزيائية، وأكثرها ظلمة، حيث لا أثاث هنا سوى رف خشبي استقر فوق ميزان حديدي صدئ. جلس على الأرض وقال بابتسامة رقيقة، بعد أن حدق طويلاً في الميزان الصدئ:

- اقترب، وأصغ لما أقول، سأتلو عليك وصيتي الأخيرة.

كان في القرب منه شمعدان فضي، وإلى جانبه منديل قذر ومزمار خشبي، ونوتات موسيقية تبعثرت هنا وهناك عند قدميه.

تقدم يانوش هابتلر في الغرفة المظلمة، وجلس قرب الشمعة التي تحترق في رمقها الأخير، واضعاً يديه على ركبتيه، محدقاً بفضول شديد في وجه الرائد.

كان وجهه جميلاً، ما تزال جلدته مشدودة على عظامه القوية. إنه وجه رجل حقاً. إلا أن صوته المتهدج وتكاسل حركة عينيه، إضافة إلى حالته المشهودة هذه، قد أوحت جميعاً، بإنقضاء أجله المحتوم.

كان، من تأثير «البالينكا» خدراً تماماً. فارتخت نظراته إلى أمام.

مسح أنفه المزكوم، وسعل سعالاً قوياً. إلا أن حالة السكر من تأثير النبيذ أيضاً ما زالت سارية، فأجهضت الابتسامة على شفتيه واسكنته في جزيرة أشباح تتوافد كالجيوش.

Telegram: somrlibrary

إن في وسعه، في حالات كهذه، أن يضحك، لكن ضحكاً حبيساً.

وفي وسعه أن يطلق مكنوناته الخبيئة التقية، لكن بصوت واهن وابتسامة تأمل جامح ملجومة.

حزم أمره الآن. وجمع أفكاره في المستودع الرطب وائتلق الضوء القديم في عيينه، فانتشل مزماره الخشبي بيديه النحيلتين، وسرح قائلاً بصوت أجش، وحسرة شاعرية مشوبة باللوعة والرثاء:

– سوف يأتي زمان ينفض فيه البشر غبار الحرب عن ذاكرتهم ويبيع فيه الشمّاعون الموز بدلاً من الشموع في الشوارع. زمان تمتطي فيه النساء الفاتنات المنمقات الخيول في الدروب الخضراء، وينسى الناس أحاديثهم عن الدم المسفوك، والموت المجاني. زمان لن يبقى فيه واحد منا يكن الحقد للألمان في هذا البلد المسكين.

سرح القائد بعيداً، مندمجاً في نشيد ملحمي مؤثر، وهو قابع بين الشمعدانين الفضيين، وانبثت نجواه وقد داهمته نوبة مرضية، وراح يجهش بالبكاء، دافناً وجهه بين كفيه النحيلتين.

قال يهذي: استحق أن أكون ملفوظاً – كان قد بعثر في لحظة جنون نوتاته، وتناثرت على الأرض – وتابع هذيانه متوسلاً ألا يتركوه وشأنه، وألا يسمحوا له بالتخلص من مؤلفاته الموسيقية، وأن يحفظوها من الضياع، لأنه فقد القدرة على صونها والحفاظ عليها، لا سيما أنه بعد قليل سوف يمثل بين يدي الله في مملكته العليّة. وأن السيمفونية مستوحاة من بحار الدماء المسفوكة والموت اللامشروع، لكي تدين الحرب في ذاكرة المجربين الخالدة.

رثى هابتلر كثيراً لحال الرائد المحزنة. وانقبض قلبه وأقسم بكلمات

Telegram: somrlibrary

مؤثرة أنه سوف يرعى النوتات بريف العين، وسوف يحملها معه إلى «بروغتش» مسقط رأسه. وأنه يستعد الآن للزواج ويرجو إجازة مدتها عشرة أيام.

عندئذ راح الدكتور ماتياش يبحث عن منديله القذر. بدأت حالته تتحسن شيئاً فشيئاً. طلب صفحاً من هابتلر لأنه لا يفهم ما الذي أطاح به، وجعله يفقد عنان نفسه هكذا. لعل أيامه باتت معدودة على أصابع يد واحدة.

أكد يانوش هابتلر مخلصاً أن الرائد سوف يعمّر طويلاً، إنما في المقابل عليه أن يتجنب ما أمكن تناول النبيذ والبالينكا معاً.

لم يتفوه الدكتور فيلموش بشيء. بل أدار رأسه جانباً لأن الدموع كانت تملأ مآقيه.

وبعد يومين سافر هابتلر يانوش مصطحباً معه سيمفونية الرائد، وعروسه ماريا بيك.

وصل قطارهما مقاطعة (أكاتس) في الصباح الباكر، وقطعا هناك، في الضباب الكثيف مسافة اثني عشر كيلومتراً مشياً على الأقدام لأن أسرته كانت تسكن في «بروغتش» عند أطراف غابة الحور، بعيداً عن المقاطعة وقراها.

إن أهالي بروغتش سكان أكواخ. وهم كاثوليكيون متشددون. ولكنهم مجدون في أعمالهم، وعلى قدر من الطيبة والنزاهة يثير الدهشة والضحك، لذلك فهم يمضون أيامهم دون أية مشكلة تعترضهم. يعملون خلال الأسبوع ويعزفون على القيثارات أيام الآحاد. وبين حين وآخر يغادرون غابة الحور، قاصدين المقبرة المحميّة بكتل الرمل.

Telegram: somrlibrary

غضّت العناية الإلهية الطّرف عن فلاحي «بروغتش» الأتقياء وأهملتهم. وإن لم يكن كذلك، فإنها على الأقل قد أهملت الجثمان المسجى في دار «بال فرو». فالحر شديد وأسراب الذباب الأزرق جعلت الحالة أكثر سوءاً وفاقمتها. فمن بين تسعة أطفال لبال فرو، وبعد نواح قصير شغل الجميع هنا، انتقل الصبي آدم ليلة الأربعاء الماضي إلى جوار ملائكة الرحمن الصغار، قبل أن يبلغ السنتين من العمر. وها هو اليوم الرابع على التوالي، ولا تزال جثة آدم هامدة في صندوق الخزانة في باحة الدار، مما وتر الحالة وجعلها غير مقبولة، حتى بالنسبة لأذهان أهالي غروتش القاسية.

اجتمع الفلاحون الطيبون لتقديم العون للأسرة المفجوعة، إلا أن جيوبهم الفارغة خذلتهم، فطفحت قلوبهم بالشفقة الصادقة لكن القاصرة عن فعل شيء، حتى بعث السيد «بال نيار» تابوتاً أزرق، ودفع خمسة كورونات للقداس، وخمسة عشر «كريسار» لناقوس إعلان الوفاة. وبغتة وقعت الواقعة. وقفت «مشاهدة الموتى» على طرف السياج وأبلغتهم أنه لا يجوز إدخال الصبي إلى المقبرة الممتدة من أطراف حقل الكرمة البرية، حتى خنادق المياه، لأنها مسكونة بالشياطين لافظي النار.

تهافت عندئذ فلاحو «بروغتش»، بقلوبهم الطيبة، ورسموا شارات الصليب على صدورهم، موقنين أن عالماً بشعاً لا بد آت فهاجوا وماجوا وتفجعوا، وولولوا، وتبادلوا نظرات الدهشة وتحديقات الريبة، لما آل إليه مآل الإنسان في الحياة الدنيا.

هذه الصورة المباغتة المثيرة لنبضات القلب، هي التي استقبلت هابتلر يانوش وعروسه، حين طلعا من خلف حقول الذرة الساكنة. فتسمرا يراقبان الطقوس الدينية في دار «بال فرو».

Telegram: somrlibrary

أعلمت ماريا بيك على الفور بما يجري. فاندفعت تخاطب الأهلين بصوت من الفظاظة يفرض الاحترام والمهابة، ونهرتهم دافعة ظهورهم بقبضتها الصغيرة. ثم تقدمتهم بثوبها المخملي الأسود، وحذائها العالي، كمتعهد لدفن الموتى، قادم من جهة مجهولة. وأصدرت، بلهجتها الحازمة، أمراً بالصمت. قالت إن جسد آدم بدأ يتفسخ، وقد آن له أن يحمل ويدفن حالاً في أي مكان بعيد من هنا، ولتذهبوا أنتم وشياطينكم لافظة النار إلى الجحيم.

ذهب خطابها هباء. أمكن أن يستشف ذلك من الولولة والهياج، لأن «مشاهدة الموتى» لا تخطئ، و لم يحصل أن ارتكبت خطأ من قبل. وأن حفر قبر في الأرض الواقعة ما بعد خنادق المياه يكلف خمسين كورونا وأكثر. وهذا مبلغ لا يتوافر في أكواخ «روغتش» مجتمعة. علاوة على ذلك لن يستريح آدم في نومته بين القبور الحجرية حيث الأموات هناك ينامون بأحذيتهم.

ضاع كل رجاء عندما طلعت أم هابتلر من بين الحضور، وصرخت بحماس مباغت حسم الموقف:

– يا إلهي! إليّ بالثوم. يا ناس، أسرعوا إلى المقبرة، الملكة ترسم الصليب حول القبر. ثم تظل ترسمه من أسفل حقل الكرمة حتى خنادق المياه.

وقف الناس ذاهلين. لا ينطقون حرفاً. حتى الملكة نفسها لم تنبس بحرف واحد. وحملقوا جميعاً في وجه «بال فرو» يستقرئون انطباعاته الطارئة. إلا أنه لزم الصمت أيضاً إثر نداء المرأة الحاسم. وتسمرت زوجته في مكانها، لا تحرك جفناً يبعث في زوجها الشجاعة. وشخصت في لون السماء الصارخ وقطرات العرق تسيل على جبينها.

Telegram: somrlibrary

عندئذ لوحت ماريا بيك بيديها في الهواء غاضبة. وطلبت إحضار الثوم على الفور، وأمرت أن يرشدها على الطريق. هي نفسها ستخرج إلى المقبرة وترسم الصليب مرات عدة يجعل حتى العفاريت تغادر هذه القرية المجنونة.

اجتمعت النسوة ذوات السبحات، وبدأن يتشاورن متحلقات حول الملكة «يوربالا» التي لم تستطع تحديد ما إذا كانت مطاردة الشياطين بالثوم تجدي نفعاً في مثل هذه الأيام التي تسبق موسم نضوج العنب.

لذا وبناء على رغبة من ذوات السبحات، فقد تقدمت الفتاة العرجاء من «مشاهدة الموتى» التي أدلت بفتوى تقول إن طرد الشياطين بالثوم نافع فقط في يوم القديس لوقا الذي يصادف يوم الثالث عشر من أيلول أما في أيام السنة الأخرى فلا يفيدهم الثوم في شيء.

لم يوقع هذا النبأ المزعج البهجة إلا في نفس أم يانوش هابتلر. لقد جاءت كنتها التي تراها للمرة الأولى، ولا تعرف عنها حتى اسمها لكي تلطخ بتصرفها الطائش سمعة عائلة هابتلر بالوحل. فما الذي تبغيه هنا هذه الأنثى؟ إن الطفل «آدم فرو» تتولى العناية الإلهية أمره، وسوف يدفن تحت التراب عاجلاً أو آجلاً. وهذا بديهي، لا يحتمل الشك في نظر الجميع. فمن غير المعقول أن يبقى متروكاً هنا يتفسخ، ويعيث به الدود.

هذه حقيقة ناصعة كالكتاب المقدس. فما ضرورة مجابهة الشياطين لافظي النار. لا سيما أن ألسنة نيرانها قد التهمت غير كوخ هنا.

ثم مَن من الحاضرين لا يعرف ما حصل لاشتفان كوكش السكير الذي كان يتبوّل على القبور من خارج سياج المقبرة، يوم اشتعلت عربته في الليلة ذاتها، حتى ترمدت بفعل النيران المندلعة تحت المطر المدرار،

Telegram: somrlibrary

وبالتحديد أمام الصليب، لأنه لم يرفع قبعته، خشوعاً، عن رأسه. لقد صحّ ما توقعته أم يانوش هابتلر. ففي اليوم نفسه دفن الصبي آدم ونام قرير العين في المقبرة الرملية. وجاء القس، وبارك التابوت الأزرق، وقرأ فوقه باللاتينية، ثم قرع ناقوس الموت، كما تجري العادة.

وهكذا انفرجت هذه المحنة القاسية، وما لبثت أن تلاشت ذكراها من نفوس أهالي غروتش الصالحين.

بعد النبأ المزعج أدرك الأهلون الكاثوليك المؤمنون في غروتش أن لا منقذ لهم سوى التعبد وإقامة الصلوات. فكانت النسوة ذوات السبحات يسجدن على الرمال الحارة، يبتهلن، ويتضرعن، إلى مالك السماوات، ويتوسلن إلى السيد المسيح أن يستجيب إلى أدعيتهن، ويأخذ بيد من أشقته الحياة منهم، وينتقل عابراً برعاياه من هوة الألم والعذاب إلى رحاب السلام والطمأنينة، وأن يطرد جبرائيل كل الشياطين من القرية.

كانت الشمس تسطع في وسط الباحة، حين وصل تحت وهجها دركيان يتمهلان السير هوينى. كأنما لا شاغل يشغل بالهما أبداً. وبقدوم الدركيين ران سكون جعل الجميع في باحة «بال فرو» ينصتون لهسهسة العليق تحت خطواتهما الرتيبة المترفة.

كان الدركيان ودودين. لم يوح وجهاهما الأسمران الداميان بأية نية عدوانية إزاء أحد. بل على العكس من ذلك، فقد وزعا النظرات صريحة في رقتها نحو الجمع الجافل.

وقفا في باب الدار. وأخفضا البندقيتين عن الأكتاف مجردتين من الحربتين الثلاثيتي الحد. فلم يكن في نية أي منهما طعن أحد في بطنه ولا رفع النعش وتدويره في الهواء. فقط أنزلا البندقيتين وسنداهما دون حراب على حذائيهما.

Telegram: somrlibrary

وكما كان متوقعاً بدأت النسوة ذوات السبحات باحتجاج هستيري فارغ، فهرولن صارخات، ملوحات بأذرعهن، وتحلقن حول التابوت يرمزن بذلك إلى أنهن لا يسمحن بأي حال من الأحوال بأن يسلم جسد آدم فرو للشياطين.

بدا على تصرفاتهن من الغرابة ما جعلهن يبدين أشبه بالمعتوهات، جحظت عينا الملكة بوربالا، وأطلقت من فمها الأدرد زعقات جعلت الديكة المتسكعة في الباحة تصيح، وتفر مذعورة، والغبار يتطاير من حولها كأنما هي نوبة صرع.

سرى في نفوس الناس ذعر شديد، فانقصمت ظهورهم، وهاجوا، وراحوا يطلقون صيحاتهم المجنونة المتوعدة من كل صوب، يهددون الدركيين. كان البعض يتوعد باسم السيد «كريستو فيتش»، وآخرون باسم السيد «بال نياز» والبعض الآخر باسم «فاكري». أما بعضهم القليل فكان يذكر اسم الإقطاعي «كال ميهاي» بشيء من الحياء وبصوت أقل عنفاً وهياجاً، كأنما يخجلون من أن ممتلكاته لا تزيد عن ثلاثمائة فدان. ليست الآمال، بل الذعر هو الذي كان يبعث في الجميع الحماس والهياج.

لا يجوز للدركي أن يتساهل ويتهاون. كان العريف بينهما دركياً خبيراً. حملق في رجال «برونتش» مستعرضاً، بدقة فاحصة وجوههم واحداً واحداً، واختار من بينهم حفار الآبار «جوري فاركا» لأن له عينين مغموستين بوضاعة ظاهرة، تقدم منه وتلقفه بصفعة. ساء هدوء. أغلقت /بور بالا/ مغارة فمها، وتخلت النسوة ذوات الصدريات الوردية عن الولولة، والتزمن الصمت. وكان يستحيل أن يلاحظ على وجه العريف أي ملمح للقلق، بل ظل باسطاً كفه الصافعة وهو يحدق بترقب في الشخص المصفوع. كان الدركي الآخر الفتى يعبث مشدوداً بحلقة حزام البندقية الجلدي.

Telegram: somrlibrary

ومن خلف غابة الحور سمعت أصوات النواقيس البعيدة.

رسم حفار الآبار «جوري فارغا» صليباً على صدره، ومسح بمرفقه الدم عن فمه وخرج من الباحة. إن قاطني الأكواخ من البشر سذج إلى حد مثير للضحك. فعندما نهرهم العريف قائلاً: كفوا عن جنونكم، وانصرفوا إلى منازلكم، لم يبد أي منهم استنكاراً، بل تلملموا مقتنعين أن العريف على صواب.

كان ممكناً أن يكون ثمة حاجات لصفعات أخرى، لكن الدركي الآخر ضاق بنفسه و لم يحتمل الحالة. لعله الحماس، هو الذي ألهب الفتى النحيل الواسع الجبين. أو لعله أراد أن يجرب قواه ما دامت سلطته تسمح بذلك. وربما أيقظ الوحش داخله هذا الجبن المشهود أمامه، وابتسامة «جورج فارغا» الملوحة بالوعيد. وربما قد أصابه الذعر في مواجهة هذا الجمع الرث الخاضع المثقل بالكثير. لا أحد فوق هذا الفناء الأخرس يعرف سبباً لذلك حتى الدركي نفسه، بغضب ما خفي، راح يكيل صفعاته كيف ما وقعت كفه. وهز «بولا بالا» من شعرها. وركل «بال فرو» ركلة لم يكن لها معنى فقد تبين أنها تنم عن سذاجة وغباء، لأنها فيما بعد جعلت «بال فرو» متثاقلاً وهو يدفع العربة الحقيرة على الدرب المؤدي إلى المقبرة. حتى إن العريف فقد صبره فصارت صيحاته هي التي تستحثه على السرعة، تلك الصيحات الأشبه بصوت «فلوت» زاعق.

وهكذا حتى انقضت مسافة ثلاثة كيلومترات في القيظ الحارق.

وبسبب سلوك «ماريا بيك» الغريب، اقتصرت إقامة الزوجين الشابين في بروغتش على ثلاثة أيام. وكانت أياماً بشعةً أيضاً، من النكد الدائم. و لم ينقذ المرأة ذات الثياب السوداء من «القتلة» الأولى إلا صبر «هابتلر يانوش». وقد اضطر بعدها قائد المجموعة أن يشهر كفه غير مرة.

Telegram: somrlibrary

ليلة اليوم الثالث اعتكر الطقس. اختفت النجوم والقمر، وعصفت الرياح حتى الصباح. وخيم الذعر في أرجاء المنطقة الريفية. صفرت الأشجار، وارتجفت فروع شجيرات الكرمة في صفوف على مد النظر. وتلامعت في الهواء قطرات الندى، ومن البعيد شمالاً كان يتناهى إلى الأسماع غضب غابة الحور الكثيفة.

وبجهد جهيد، وفم فاغر أخرس، استنشقت «ماريا بيك» الهواء وهي تنطلق راكضة في مواجهة الريح. وبحذائها المودرن راحت تتعثر على الرمال الصفراء، حتى بلغت السكة الحديد. توقفت. استدارت بسحنة مقهورة، صاحت، صرخت، ضربت قبضتيها في الفضاء العاصف. ثم انفجرت في نحيب شديد. لحق بها هابتلر يانوش، ولفها بسترته. أمسك أصابعها الخشنة المعقوفة، وسلك بها الطريق العام الخالي. وانطلقا صامتين تكتسح وجهيهما الريح العاتية.

أعقب زفافهما الملعون مفاجأة غريبة، تمثلت في اختفاء الدكتور «فيلموش فاتياش» من الكتيبة كلها. كان يمكن لـ «هابتلر يانوش» أن يبحث عن مجموعته لو أنه عثر على أحد ما في المدرسة الواقعة في بودا. قصد بعدئذ، شارع بايزا - ١٤ إلى منزل المحامي كوليش ليناقش مع ماريا بيك الواقعة المشئومة. أجلسته «ماريا بيك» في المطبخ. وقدمت له اللحم المشوي، ونبيذ الدراق.

- بقي قسم من النوتات - قال هابتلر - سأعزفها على «الفورولا» كل مساء!

فقالت ماريا بيك: علينا التحدث مع السيد كوليش لأن المسألة ليست لعبة. إنها مسألة حياة أو موت، ولا مزاح في الموضوع.

وبعد الظهر دخل «هابتلر» إلى غرفة المحامي، يرجو استشارته. كان

Telegram: somrlibrary

المحامي كوليش إنساناً ودوداً، أجلس جندي الاستقلال، وأصغى إليه بانتباه. لكنه لم يعط جواباً. خطا إلى النافذة. سحب الستارة ذات اللون العظمي، وجال بنظراته في الشارع. ثم عاد إلى طاولة مكتبه الأنيقة المنمقة، المزدانة بتمثال أسد يستقر فوقها. أحنى جبينه على راحتيه، ظن هابتلر أن المحامي قد غرق في النوم، فاحتار فيما يفعل. راح ينقل عينيه بين أثاث المكتب والكتب وآنية الزينة الفضية الكثيرة.

حين أطلت ماريا بيك بثيابها السوداء وقميصها الأبيض، دخلت القهوة، دبت الحركة في المحامي. مسح نظارتيه، بقطعة من جلد حيواني قرني.

أضاف سكراً إلى فنجانه المنمق بالذهب. وبينما كان يرتشف القهوة اللذيذة، راح يطمئن، بصوت تهكمي ساخر «هابتلر يانوش» قائلاً: ما من سبب للخوف والقلق. لقد بدأ يدرج في المجر أيضاً الفرار من الخدمة العسكرية.

– هل لديك صنعة، مهنة!

– نعم، أنا نجار.

– برافو! نلتقي في ساحة «غريف»

هز كتفيه موافقاً

– يمكنك البقاء هنا ريثما تستلم سلطتك – وأطلق ضحكة مدوية.

وفي اليوم نفسه انتقل هابتلر يانوش بأغراضه إلى البيت الكبير بغرفه الست. وسرعان ما تبين أن ماريا بيك أبرع منه بكثير. ولكنها أحسنت توظيف كل ما يمتلك من ميزات. وإن كان يتصف بأنه إنسان بطيء الحركة، يفتقر إلى المهارة قياساً إلى جانب ماريا بيك.

Telegram: somrlibrary

كانت ماريا تنجز كل عمل. واقتصر عمل هابتلر على مهمتين اثنتين لا غير. إحضار الخشب من المستودع. وطبخ الصمغ لـ «إلونا كوليش» السيدة الصغيرة التي كانت تملأ وقتها بتجليد الكتب. وفيما عدا ذلك بطلت مواهبه. وكان يشعره عجزه عن أداء أي عمل آخر، بخجل شديد. كانت سعادته عامرة ومفهومة، عندما استدعاه المحامي في يوم حافل مطير ونصحه أن يتقدم للحرس الوطني بالتحديد. ثم أضاءه ببعض المعلومات، منوهاً ببعض كلمات إلى خطورة الحالة وصعوبة الوضع، والتحرك الروسي، والوفاق العالمي.

– قيادة اللواء المشترك على مقربة من هنا. وتستطيع كل مساء أن ترجع إلى زوجتك.

لم تبد ماريا بيك تحفظاً على الخدمة العسكرية.

وهكذا. بمزاج صاف، وهمة عالية، قصد هابتلر مبنى قيادة اللواء المشترك، القريب حقاً من منزل المحامي. ومن سخرية القدر أنه أرسل عصر ذلك اليوم إلى المحطة الغربية.

كانت خدمة مريحة. استقبلوا أثناءها التشكيلات المتنقلة وزودوا الجنود بالطعام، والتبغ.

عند تأسس الجيش الأحمر، حصل هابتلر على النجمة الخماسية، وعلى قبعته، وبروح متزنة رصينة خالية من الوقوع في الأخطاء كان ينجز كل ما يوكل إليه من مهمات. لكن بطريقة غبية خسرا منزل المحامي، إثر حادثة بسيطة. ذات صباح انهمك الجميع يبحثون عن بطاقات الحليب الشهرية فلم يجدوها. زعمت زوجة المحامي أن ماريا بيك هي التي أضاعتها، بل سرقتها. بكت «ماريا بيك». نبشت كل البيت للبحث عنها، وعندما أخرجوها من أحد الأدراج، ثارت

Telegram: somrlibrary

ثائرتها، وأهاجت حتى الهواء من حولها، حتى استحالت تهدئتها. فبدأت ترشق امرأة المنزل بالعبارات الفاجرة. فقد المحامي صبره. جرّدها من الثياب المخملية السوداء والقميص الأبيض بالكم الأسود المطوق لمعصمها، وطردها دون شهادة الخدمة. بدلت ماريا ثيابها وقالت بفورة غضب فاجرة: ما الذي عليه أن يفعله بشهادة الخدمة والثياب الفظيعة، وانصرفت.

انصرفت إلى ابن خالها «يوجى شتاد نيغر» الحجار الذي صار متطوعاً مترقياً في الجيش الأحمر. لكن لم يجدها ذلك نفعاً.

وضعت طلقتها الأولى في مشفى «زيتا» في العشرين من كانون الثاني «يناير» سنة ١٩٢٠. وبعد إقامة طقوس المذهب الإصلاحي، حصلت المولودة الصغيرة على اسم «غيزيلا».

كانت المدينة ناصعة في بياضها.

وبعد أيام تحول الطقس أيضاً وصار طقساً قارساً. توقفت ندف الثلج الكثيفة، وراحت الرياح الحادة تسوق الغيوم. وفي «بودا» برزت الشمس فوق القلعة تحدق في المكان بصرامة الحاكم.

وخدمة لعملها الجديد في التنظيف. سكن الزوجان «هابتلر» في شارع «فيومي» في قبو يتسع لشواهد القبور، ويطل بنوافذه الست على رصيف شارع «ليغاس» المعبد بالأحجار.

ولم يتوقف صباحهما وتخاصمهما بعد ذلك، كل مساء حين يطفئان الشمعة بقصد الهجوع للنوم. وسبب الخصام الخوف من الإقامة بين الأحجار الرخامية وفقدان الأمل في تغير مصيرهما اللا إنساني المنحوس.

Telegram: somrlibrary

وقد كان «يوجى شتاد نيغر» يناصر احد الطرفين تارة والثاني تارة أخرى. حتى قال أخيراً. كلاكما محق، كذلك المحامي كوليش. هنا صرخت ماريا بيك في وجهه مجهرة غضبها المربع. حتى رشقته ذات مرة بمطرقة خشبية كانت قربها. ثم تلقفت، بعدئذ طفلتها، غيريلا الباكية، وحضنتها. وظلت تغني لها ساعات بطولها:

من بابا إلى فراشة

ومن هنا «كوما روم»

لقد كان «يوجى شتاد نيغر» شخصاً متلفاً للأعصاب. فكان كل مساء يلف نفسه ببطانية ويندس في حضن «ملاك» حزينة مطبقة الجناحين يزيد ارتفاعها عن خمسة أمتار، عاكفاً على الصلاة بصوت خشوع، راسماً بذراعيه الطليقتين حركات غريبة يوزعها في كل اتجاه.

كان مشهداً مريعاً تحت حزمة الأشعة الخضراء المصفرة، المتسربة من ضوء المصباح الغازي في الشارع. لذا فإن هابتلر يانوش رجاه بلطف ألا يلوح بيديه لأن الرب لا يرى هذا بعين طيبة. فضلاً عن أن الطفل يصاب بالرعب جراء الكيس الذي يلبسه.

أصغى «يوجى» إليه جافلاً ثم بدأ يتحرر من كيسه، وقال إنه يشعر بقشعريرة من البرد، وطلب أن ينتقل بكيس اللباس إلى خلف شاهدة القبر، حيث استأنف صلاته بتمتمات متخافتة مرتبكة.

نحو الساعة العاشرة قبل الظهر دخل الجنود عبر الباب الحديدي إلى باحة أحجار القبور. كانت ماريا بيك تشطف الدرجات المؤدية إلى المكتب، يكاد الدم ينفر من وجنتيها.

خرج الحجار «بال بالازناي» من المكتب وسأل الملازم عما يريده

Telegram: somrlibrary

هنا. ثم قاده إلى «يوجى شتاد نيغر» الذي كان منهمكاً في عمله تحت السماء المفتوحة، حتى اقترب منه تماماً.

ارتعش يوجي حين خاطباه باسمه. وضع الإزميل والمطرقة ونهض عن حجر واطئ ثم استدار في مواجهة الملازم. وأجاب عن كل ما وجه إليه من أسئلة.

كان الملازم يدلي بأسئلته من دفتر بين يديه. وكان «يوجي» يتحدث بهدوء ووضوح. سرد له أنه ولد في «ناج كاسي» في العاشر من أيلول «سبتمبر» عام ١٨٩١. والدته «جوفيا بيك». اعترف أنه خدم لدى الحمر. وقاتل في «شالفو تريان» ونفى أي مشاركة له في مكان آخر.

– ايها السيد الملازم (قال بغتة، وبارتباك وقد اعترت الحمرة وجهه). أيها السيد الملازم أنا مجري ابن مجري. متدين. وهذا سيؤكده لك أي شخص حتى السيد المحترم «باتاي». أنا رجل (شغيل) أعمل في كل مكان هنا في «ناج كاسي». في الكنيسة، في المقبرة، في قصر «ميشاك». في حديقته. في نقش تزييناته. الجميع يشهدون باستقامتي في العمل. تفضل واسأل عن كل هذا.

وبراحات مفتوحة معلنة الاستعداد، استجاب الجنود لأمر الملازم باعتقاله. وبينما كان الضابط يجري حديثه مع حجار القبور كان الجنود يوقفونه إزاء السور مديراً ظهره إلى الباحة. وتكفل أحدهم بمنعه من الاستدارة. أما هو فقد سلك سلوكاً هادئاً نفض الغبار عن مريوله، وهز رأسه واقتيد على الفور.

في الطريق لم يبد عامل الحجارة أي سلوك من شأنه أن يسبب مشكلة. لم يحاول الهرب، بل مر بهدوء بين الجنود مطرقاً في حذائه. وعند مدخل البناية الدكناء في شارع «أولوي» توقف تحت الشمس الشتائية.

Telegram: somrlibrary

استدار إلى الخلف، لكنه لم يبصر سوى قلة قليلة من البشر المسرعين، البردانين، سوى الجدران الصلعاء وعربة نقل متثاقلة على جسد الطريق تحمل سماداً. انبتر تجوال عينيه حين نهره الضابط لاكماً ظهره. فبوغت «شتادينفر» وفقد توازنه على الحجارة المرصوفة. وعند المدخل تماماً سقط على بطنه. السقوط المفاجئ أنعشه، وأيقظ فيه الوحش فبدأ يزأر، ويزعق، ويمرغ نفسه على الأرض بين جزمات الجنود. كان تصرفه مقصوداً وعن سابق إصرار. زأر:

– لدي عمل. أطلقوا سراحي. وبأمر من الملازم رفع الجنود العارضة البيضاء – الحمراء – الخضراء، ينهالون عليه ضرباً على رأسه حتى الموت.

لفت ماريا بيك غيزيكا بالقماش، ثم أحكمت قماط الطفلة بدبوس.

لم تكن طفلة جميلة. كان وجهها متطاولاً أشبه بوجه أبيها. أفاقت مرتعدة من نومها. ارتجف فمها الأدرد. وصرخت ملء رئتيها. فكان من المرأة أن هزتها. ناهرة لاعنة.

تناول هابلتر الطفلة منها قائلاً:

– كان المحامي كوليش محقاً حين قال: حرام وجودك بين الناس.

وانصرف مجتازاً الصلبان، وقطع الرخام والملاك الأطول من خمسة أمتار، بجناحيه المطبقين. وصعد الدرجات مسرعاً.

جرت ماريا بيك وراءه. توقفت عند المدخل الحديدي وراحت تصرخ حتى ملأت الشارع المترامي تحت ضوء ما بعد الظهيرة، بالعبارات الفاجرة.

كان يقف قرب السياج الأصفر الذي يسور مركز تعبئة الغاز،

Telegram: somrlibrary

أشخاص بثياب رثة وشعور طويلة شعثاء، و لم يكتموا ابتهاجهم بمشهد السيرك المجاني هذا، الذي تقدمه المرأة الشابة بإيماءاتها.

تابع هابتلر يانوش جريه، حتى توقف قرب صندوق بريد في شارع «برجيني». عدل من وضع الطفلة على ذراعه، وانطلق بانحناءاته المعهودة يحث خطى طويلة صوب المحطة.

وجدت ماريا بيك عملاً. صارت تقوم بتنظيف الممرات، والمكتب ثم تنتقل إلى الجناح الخلفي من فيلا «بال بلازناي» ترتب غرفها الثلاث الأرضية. تنظف السجاد. تمسح غبار الأثاث، تغسل المطابخ والمرافق المنزلية حتى صدمتها زوجة «بلازتاي» قائلة بأن لا مكان للعمل هنا بدون بطاقة خدمة.

باتت ماريا بيك ليلتين في قبو جيش الإنقاذ المكتظ بفرشات القش، حيث نصحت بالذهاب إلى جمعية «مارتا»، وإذا كان الحظ حليفها فسوف تستقر هناك دون الحاجة لبطاقة خدمة. حسبها ببساطة أن تقول أنها كاثوليكية وإنها تؤم الكنيسة بانتظام، وتصلي وتتبارك. وباختصار حسبها أن تقول ما تنتظر منها جمعية كاثوليكية.

وهذا ما حصل. ذهت ماريا بيك إلى شارع «ريالتانودا» حيث قابلت هناك مسئولات الوحدة النسائية، اللواتي استجوبنها بأدق التفاصيل، وسجلن أقوالها، ثم طلبن إليها المكوث في غرفة الانتظار. جلست على البنك بين النساء الثرثارات، وأخذت تلغو معهن. وكانت بين الحين والآخر تدخل إلى غرفة الانتظار إحدى النساء اللواتي يبحثن عن خادمة فيها، فتتفحص الجالسات بنظرات مدققة. وكن عندئذ يلتزمن الصمت. وإذا انتقين منهن واحدة شهقن، ثم استأنفن الثرثرة.

كان نصيب ماريا بيك أن تعمل لدى طبيب لأمراض الرئة. كان

Telegram: somrlibrary

أعزب نحيلاً، قليل الكلام. وكان منزله ذو الطابقين مكتظاً باللوحات الزيتية الدينية. وفي غرفة نومه صورته الخاصة التي تميزت بعينين واهنتين ذابلتين ترنوان إلى الأسفل باتجاه سرير نومه وغطائه الحريري قرب الجدار.

أكسبت يدا ماريا بيك المنزل ألقاً وروحاً. كانت وجبات الطعام التي تعدها شهية مختارة. و لم تفوّت أن تفتح للمرضى باب المنزل عصر كل يوم. تأخذ عنهم معاطفهم، وتعينهم في جلوسهم، ولكنها، في العيادة لم تمسح الغبار عن الجمجمة على طاولة المكتب البيضاء، لأنها لم تتمكن بحال من الأحوال من الوصول إليها.

وفي يوم الأحد من الأسبوع اثلاني، وبعد العودة من الكنيسة، حيث استمع الطبيب إلى القداس الإكليلي لموزارت، سمح لماريا بيك أن تستقبل هابتلر يانوش في غرفة الخدم، مدة ثلاثة أشهر، شرط أن تقتصر إقامته على وقت النوم، من التاسعة ليلاً، حتى السابعة صباحاً.

وبحث هابتلر عن عمل، فاشتغل عتالاً حيناً، وباع الفاكهة والخضار على عربة بعجلتين حيناً. وكان سعيداً هكذا. وكان يودع دخله بالكامل ماريا بيك. وكانا كل سبت يذهبان إلى البريد ويرسلان إلى بروغتش نقوداً أكثر بكثير مما يحتاج أهله لتنشئة غيزيكا. أصرت ماريا بيك على ذلك.

اقتربت نهاية الشهر الثالث مع شعورها بالخطر، وصار بيتهما في غرفة الخدم قلقاً، وصل هابتلر إلى حل وحيد.

العودة إلى بروغتش والإقامة لدى الأهل، والعمل لدى «غال ميهاي» أو في أرض السيد «بال نياري». لكن ماريا رفضت حتى الآن الإنصات إلى حديث من هذا النوع.

Telegram: somrlibrary

قصد عيادة الطبيب مهندس معماري قصير، بدين يعاني من مرض في المعدة. ومن هذا المعماري ترقبت المعجزة. ذات عصر ساعدته في خلع معطفه، وتناولت منه عصاه. وانتظرت حتى يستقر في جلسته على الكنبة. اقتربت منه بعد أن طلبت المعذرة، وركزت عينيها الزرقاوين الباردتين، على نظارتي الرجل البدين، وسردت له مشكلتها بجرأة واختصار.

نظرا المعماري في المرأة ذات الصدر المشدود. تبسم. أجاب بأنه سيحاول جاهداً، ويأمل أن يقدم لهما العون. وطلب منها أن يراجعاه في المكتب في شارع «توكر».

قصد هابتلر المكتب. انحنى أمام المعماري. قال إنه عمل نصف عام لدى معلم النجارة «نيمت إمره» وحصل على الشهادة. ثم خدم جندياً في كتيبة الرماة. وحارب. وراح متمسكناً، يسرد ما يتمتع به من مواهب.

تناول المهندس قصاصة وخط عليها شيئاً، وأرسله بالقصاصة إلى مكان البناء في شارع «فاوشت». وقع، هذا اليوم الحسن الطالع، في السابع عشر من شهر آب عام ١٩٢٠. انطلق هابتلر بالقصاصة إلى المكان وسلمها لرجل ألماني أحمر الوجه، ببنطال ليموني من المخمل، وكان يصيح واقفاً أمام براكة. قرأ الألماني القصاصة، ثم شهادة الكفاءة وقال: حسناً. تعال غداً صباحاً الساعة الخامسة!

في اليوم التالي لم يلتق هابتلر الألماني، و لم يمسك قدوم النجارين أبداً.

كان ينتظره في بيت الطبيب استدعاء يبلغه حضوره الإلزامي إلى القسم السياسي لوزارة الدفاع الواقع في شارع «المسرح» – ٧. وذلك في الثامن عشر من آب «أغسطس» الساعة العاشرة قبل الظهيرة. وكان الاستدعاء يحمل توقيع قائد الفصيلة الدكتور «فيلمون ماتياش» تحت الخاتم الرسمي.

Telegram: somrlibrary

لم ينم الزوجان ليلاً. بل أكثرا من اجتراع النبيذ. و لم يفارق الاستدعاء تفكيرهما واستغرقا في تحليله مترقبين ما سيحدث في اليوم التالي. قالت ماريا بيك: يجب أن تكذب. وبشعر منكوش وروح قلقة جلست في السرير، وقد جعدت بيديها البشعتين وأصابعها المنعقفة غطاء البوبلين، وراحت تلعلع بصوت هستيري في الهواء، وعيناها الفاجرتان تبعثان الجنون في نفس هابتلر.

اختلطت الأشياء في ذهنه، وتشوش عقله ممتلئاً بالضباب. كان حديثه أهوج يفتقر إلى التركيز. بعثر المتروكات، والنوتات في كل مكان. ضرب بقبضته على الطاولة، قائلاً إنه لا يخاف، وإن من يكتب وصيته الأخيرة سيمثل عما قريب بين يدي الله. وإن الذي يمثل بين يدي الله لا يمكن أن يضمر نية سيئة.

طمأنته فكرته هذه. مسح جبينه المتعرق. أثنى على رجاحة عقله. انسل في السرير الحديدي إل جانب ماريا بيك. وراح يملي للمرأة ما سوف يقوله لقائد الفصيلة السكير. وبسحنة متوسلة وبصوت بريء باك أنشد: سيأتي زمان ينفض فيه البشر الحرب من ذاكرتهم، ويبيع فيه الشماعون الموز بدلاً من الشموع في الشوارع. زمان تمتطي فيه النساء الخيول في الدروب الخضراء. وسوف ينسى الناس أحاديثهم عن الدم المسفوك والموت بلا سبب. زمان ليس فيه واحد من الناس يكن الحقد للألمان في هذا البلد المسكين.

انفجرت الضحكة من ماريا بيك، وغلب الزوجين الضحك لم يستطيعا كبحه لدقائق. لكن ما حدث في اليوم التالي كان مخالفاً لما يمكن أن يدور في أفق أحلامهما.

شارع المسرح كان في الحي I في القلعة. والبناء رقم ٧ قام في

Telegram: somrlibrary

منتصف الشارع القصير، المستقيم، بلاط جديد يغطي البناية بطوابقها الثلاثة. وقد طلي حديد نوافذها باللون الرمادي. اجتاز «هابتلر» عتبة الباب الخشبي إلى ممر هادئ أبيض اللون. وأقام مفترق سلم باتجاهين أوقفه ضابط شاب وطلب منه استدعاءه وبطاقة هويته وسأله عما إذا كان يحمل سلاحاً. وعند الجواب بالنفي قام الضابط بتفتيشه.

رافقه جندي إلى الطابق الثاني. وبصمت مطبق عبرا درجات السلم والممر الطويل بأبوابه المشتبهة حتى توقف الجندي، وأشار لـ «هابتلر»، فدخل إلى إحدى الغرف.

جلس في الغرفة ضابطان. المقدم «أمرة تاشنادي» الأنيق. والقس الإنجيلي الرائد «أنتل بورباش» الذي تقلد فوق لباسه الرسمي البني اللون صليباً صغيراً. وبعد دقائق أدخلاه عبر باب بني إلى مكتب الآمر «ماتياش فيلموش».

كان الدكتور ماتياش فيلموش رصيناً شاحباً. وكانت عيناه البنيتان رصينتين أيضاً ومنتعشتين. ظهر على الضابط ذي الخمسة والثلاثين ربيعاً اضطراب مفضوح. كانت يداه النحيلتان المضمدتان ترتجفان ويلتمع حوله إصبعه فص من حجر كريم، يستقر وسط خاتم من البلاتين.

وبابتسامة توحي بالتقدير شكره على المتروكات، والنوتات. انحنى ومسح جبينه، قلب الورقة الصفراء. وبنظرات مشتعلة حملق في البطاقات المكتوبة بالحبر. وبدا على وجهه أن روحه تلتهب من جديد، وقد أطلقها نداء الموسيقى.

وضع الأوراق في لدرج وأغلقه. ثم بدأ حديثه العشوائي الحائر بعينين مشتعلتين.

Telegram: somrlibrary

لقد عجت كلماته النابعة من أعماق روحه بالمشاريع وعبقت بالأحلام. استشهد بعبارات دقيقة من رسائل الرسول الحواري «بال». وكان يروم أن يبدع سيمفونية إلهية، تكون نشيداً للثالوث المقدس، وأن يسهم في الموسيقى المجرية الوثنية، وأن يؤلف أعمالاً تعزفها فوق موسيقية ضخمة تتخللها الطبول والصنوج، وفجأة أجهز بأنه يشعر بحرارة جهنمية. وبحركات مرتجفة خلع سترته ثم قميصه، فبدا جسمه يلمع حقاً من العرق. دخل مقصورة المغاسل وكان يتناهى إلى الأسماع كيف يضرب الماء على جسده.

رجع مبتسماً. نشف عنقه وصدره. كان الماء ينقط عن شعره الغجري الأسود. وعندما خطا إلى النافذة، تبدلت سحنته وجاء وقت الجد. وأومأ لهابتلر أن يقترب منه عند النافذة ففعل.

في الباحة السيراميكية جلس الضابط حول طاولة سطحها من اللباد الأخضر، حيث كان ممثل النيابة العسكرية يقرأ الحكم جهاراً، على أعين الحضور. كان المحكوم بالإعدام شنقاً - وهو شخص قصير القامة في الخامسة والعشرين - يصغي إلى بنود الحكم وتفصيلاته وتعليلاته المعقدة. نكش أنفه. نظر إلى الخلف فرأى الرجل العابس الذي يتولى حراسته بثيابه المدنية وإلى جانبه الرائد. وقد صار الإنجيل مفتوحاً بين يديه.

تدفق الدم في وجهه. ذهلت عيناه وهو ينظر نحو ممثل المحكمة العسكرية، وكاله بكل ما أوتي من العبارات البذيئة. شحب الضابط، تراجع إلى الوراء. تابع التلاوة. أما المحكوم فقد أخذه الضحك وصرخ «وداعاً. سأبول عليكم أيها السادة» وانهمك يفك أزرار بنطاله. عندئذ أوحى الضابط بإشارة منه، فشد الشاب القصير إلى جذع شجرة، وكان وجهه معصوباً بمنديل أسود. وكان صدره مفتوحاً تحت قميصه الممزق، وبقيت يداه متدليتين تتأرجحان وقتاً طويلاً.

Telegram: somrlibrary

بينما ارتدى د. فيلموش قميصه ثم سترته، وجلس إلى مكتبه يقلب الأوراق. سأل هابتلر كيف كان سيترف هناك في الأسفل. وبعد صمت قصير أجاب هابتلر: إنه ذات مرة، في الجبهة الإيطالية أراد أن ينتزع سترة جلدية لطيار معاد. فكاد يفقد سنه وهو يفك ازرارها. ما عدا ذلك لم يرتكب جنحة أخرى. وقاتل وكرم، وقلد أوسمة، و لم يخرج على القانون. وعندما عاد من حرب التحرير تركوه وشأنه. اختفى السيد القائد. لعلكم تذكرون ذلك يا سيدي القائد.

وافقه الدكتور فيلموش، وقال:

– الشنق ليس لعبة. أنا أراقبهم في اللحظة الأخيرة. تصرفات الجميع تختلف، حياديين ومتحمسين. لكن إذا ما تصرف أحد ما غير هذا الشاب على نحو غير لائق، فإنني لن أضمر له البغض. في الماضي شنق يهودي. السبب أنه اختصم مع حاخامه، فصب جام غضبه عليه. غسله غسلاً. هجم عليه وأوسع الحبر الملتحي ركلاً. معلوم أن رجل الدين ينفذ ما تمليه الدعوة. انفجر الجميع يضحكون ومن بينهم منفذ القرار أيضاً. إلا أنا. أنا استوعبت حالته النفسية.

صمت لحظات ثم قال:

– حضرتك كنت ستبكي بكاءً خافتاً، مسلماً أمرك برأس مطأطئة، باتجاهٍ حبل المشنقة. أنا كنت ألقي بنفسي بين أقدامهم ملتمساً الرحمة. أتوسل، وأتضرع وهم يجرجرونني كخنزير إلى المشنقة. فكرت كثيراً بهذا و لم أجد فيه ما يعيب. والآن تخلصت من هذه الهواجس، وصارت جزءاً يسيراً نادراً من أحلام تراودني أحياناً. طبيبي ووالدتي أكدا لي أنني أتمتع بإرادة قوية، وأنني اسلك سلوك الرجال. وهذا أيضاً صحيح. فبالرغم من طبيعة مسئوليتي الوظيفية، لم أشربالخمر.

Telegram: somrlibrary

بعدئذ تحدثا عن حياة «هابتلر». اعتبر د. فيلموش مهنة النجارة، مهنة لا يمكن الاعتماد عليها في مسيرة الحياة. وبعبارات تنم عن إلمام نظري وعملي مدهش راح يوضح حالة النجارين والبنائين المزرية. أجور بخسة، بطالة طويلة في الشتاء. ثم نصح هابتلر بالعمل في سلك الشرطة، على اعتبار أن هيئته لا تؤهله لممارسة الأعمال ذات الجهد العضلي، وأنه سوف يتدبر أمر قبوله في سلك الشرطة، لأنه شخص جيد، وثقة. وبعيد عن الشكوك في ارتكاب الجنح السياسية.

– تطوع شرطياً – قال، مرتب جيد. تحصل على سكن. وتعيش مطمئناً مع زوجتك.

وبصوت هادئ شكر هابتلر الدكتور فيلموش على مساعدته. وقال بأنه لا يحصل على مثل هذه الوظيفة حتى في الأحلام. صحيح أنه لا يوجد على وجه الأرض من هو أكثر سعادة من الشرطي، لأنه مهما يجر عليه الزمان ويخبئ له من مفاجآت فإن أسرته تبقى مستورة تحت سقف، وبين جدران ولن تخلو مائدتها من رغيف الخبز. وأنه سوف يكون شرطياً ناجحاً لأنه يتقن عبارات الدوريات، ويفهم في النظام والسلاح. لكن مشكلته الوحيدة أنه لا يعرف القراءة والكتابة. وهو خائف إذا ما انكشف هذا الأمر أن يسبب إحراجاً للسيد الآمر.

أجابه الدكتور فيلموش بأنهم لا ينتقون رجال الشرطة من أكاديمية العلوم.

– قل لي من فضلك. ما دينك؟

– أهلي كاثوليك. وأنا عمدت في دار اللقطاء إنجيليا. زوجتي إصلاحية. وابني مثلها.

Telegram: somrlibrary

هز العقيد رأسه.

– غداً أحدث المعنيين. لا تخف سأرتب كل شيء. اذهب أنت إلى البيت وسأوافيك بالنتيجة.

وودعه.

حين اجتاز هابتلر الباب الخارجي. كانت ماريا بيك تلوح بيديها، وواقفة تحت الشمس الملتهبة، على ناصية شارع المسرح. أمسك بيدها ونزلا على الدرجات الحارقة منحدرين إلى المدينة.

فور وصولها إلى البيت تشاجرا في غرفة الخدم. بدأت ماريا بالصياح وأنها ستفعل وتترك بالشرطة وبالعقيد.

أغلق هابتلر النافذة وتوسل إليها أن تهدئ من روعها، وتتحدث على مهل. فلا فائدة من الصياح والصراخ. ثم أين سيجد عملاً آخر. وأنهم وعدوه أن يرتبوا كل شيء ويخبروه بالنتيجة.

نحل لونها تماماً. وبقبضة يدها لكمت وجه هابتلر، ثم زأرت:

– أنا لا أريد من أحد أن يرتب لي أي شيء. أي شيء. أنت حيوان يرتبون له كيف نصير شحاذين.

أمسك هابتلر يدها البشعة المعقوفة الأصابع، وضغطها على صدرها. وحملق كل في الآخر بعينين مستديرتين حادتين. وحدها ماريا بيك كانت تلهث كالغريق.

مساء بعد العشاء. قال الطبيب: إياكما والقلق. لأن سنوات الرحمة السبع، التي بشر الإنجيل بها، آتية لا ريب. وإن على هابتلر أن لا يعمل في أي مكان، وأن يتحلى بالصبر، وسيحصل على موقع عمل ممتاز

Telegram: somrlibrary

ومنزل. وهذا مؤكد، وإن شخصاً رفيع المستوى مثله لا ينكث بوعده، مهما كانت الظروف. وإنه يتحمل هذه المسئولية على عاتقه.

و لم يكن الطبيب على خطأ.

وبعد شهرين من ذلك استلما المنزل، وحين أمسكت يد ماريا بورقة القرار الرسمي طفرت عيناها بالدموع. وانتقل الزوجان إلى مجمع البراكات السكني في شارع «لانكا». وفي أثناء الوداع أعطاهما الطبيب سريراً حديدياً عتله هابتلر على كتفه وحملت ماريا بيك سلة الثياب وبطانية «شتاد ينفر» العتيقة. كان رقم الباب ١٨٣ في المجموعة السكنية رقم IX وهناك أهداهما جاراهما المباشران «آندرا كوفتش» الحذاء، وزوجته الجميلة ذات الشعر الأسود هدية رمزية يضعانها في أصيص.

وفي الليلة الأولى ظلت ماريا بيك شاخصة في أرجاء الغرفة وأركانها الأربعة. وصلت كثيراً.

لم تتمتع البراكة بحالة أمان من الخارج. لكن ماريا بيك، رتبت جدرانها الداخلية وسقفها، وفرشت أرضها ببساط من القش، ونشرت أصص الزهر في أرجائها. فاستحالت منزلاً براقاً نظيفاً فائحاً برائحة الزهور. ثم تكاثرت مقتنيات الغرفة وأثاثها. وفي خريف السنة التالية رتب فيها ركن يكون بمثابة مطبخ. ضمت الغرفة طاولة وكرسيين، وساعة رنانة، ومرآة على الجدار، وستارة بيضاء على النافذة.

كان هابتلر يستيقظ في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وينطلق إلى سوق الجمارك الكبير، حيث كميات الفواكه والخضار الموسمية تنقل بالسلال من السفن الواصلة فجراً إلى ضفة الدانوب، ومنها إلى سوق البيع.

Telegram: somrlibrary

هنا عمل هابتلر عتالاً وسمساراً لدى تاجر السوق «يوجف هونيورغو» المصارع من الوزن الثقيل. كان يبدأ السوق الساعة الثانية. في هذه الأثناء كان هابتلر يذهب إلى السفينة. يثبت الحاملة المعدنية على منكبيه، ويعلق عليها السلال، وقد فعلها، غير مرة، وعتل ستاً من السلال دفعة واحدة. وقد حصل غير مرة أيضاً أن رفع «يوجف هونيورغو» كيس بطاطا يزن تسعين كيلو غراماً دون أي جهد يذكر. كان المكتب الروحي البروتستانتي لمجمع البراكات مستراحاً له.

ثمة في المكتب القسي الواقع في شارع «مدام فرش بال» غرفتان تفضيان كل إلى الأخرى، وتضيقان بالمرتادين، هنا كان يتعبد لله، والوطن كل من «رجوتا وبنغر» الكولونيل رئيس الأساقفة الإنجيلي. و «أنتل بورباش» الرائد الأسقف الإنجيلي. و «سابو جلبر» العقيد القس و «آندره شوبا» الرائد الأسقف الإصلاحي. و «طورون بال» العقيد رئيس الأساقفة الإصلاحي. و «هابتلر يانوش» خازن الغرفة الكنسية المعاون الإنجيلي.

خلال عام أتقن مهمته التي تطلبت منه الجلد والفطنة، وحتى حسن الاستماع إلى الموسيقى وحسها المرهف.

بالمنوال ذاته كان العمل يبدأ كل صباح بعد أن يتحدد في مقر الكولونيل موعد اليوم التالي، ومكانه: في أي مشفى أو ثكنة عسكرية سيتم ذكر الله.

يرتب هابتلر بعناية ثيابه السوداء والوعاء الفضي وكتاب المزامير، والصابونة، والمنشفة، ويحمل صندوقه الخشبي، وينطلق إل الطقس الروحاني الروتيني. هو يأتي دوره بعد أن ينهي القس صلاته ودعاءه.

فيتقدم بخشوع عاقداً اصابع يديه. ويبدأ الغناء بصوته النقي المتبتل.

Telegram: somrlibrary

«مثلما تهفو إلى الترع الجميلة الجذابة تهفو روحي إليك يا أبت. أنا العبد الفقير...».

وفي عيد الإصلاح في الحادي والثلاثين من تشرين الأول «أوكتوبر» كان يغني «ربنا قلعة عظيمة....».

وفي مساءات السنة الفائتة «عليك اتكالنا منذ الأزل....»

وهنا كان ينفجر الحاضرون في المشفى العسكري بالبكاء. كان الجميع يرافقه بالإنشاد، الذي ينتهي على الدوام بنشيد خاص، وفي الأعياد الكبيرة كانوا يتناولون العشاء الفاخر. هابتلر يشتري الخبز الأبيض والفطائر والنبيذ. وكان يقوم بتقطيع الخبز إلى قطع صغيرة. وإذا بقيت كمية من النبيذ كان يزود بها زوجته في البيت. إضافة إلى ذلك كان يغني في الأعراس ومناسبات العماد، والتأبين والإعدامات.

كان يحب مناسبات العماد أيما حب، لأنها كانت تقام في البيوت. فقد كان القس ينجز طقوسه في العماد بنبات القنا. وكان الضباط يخصونه بالبقشيش. وكان من المؤسف أن الأعراس لم تكن تتم في المنازل. كان العرسان إذا كانوا ضباطاً، يؤمون بخطيباتهم كنيسة «لوثر» في شارع «راكسوتي»، او يؤمون المعبد البروتستانتي في شارع «أبوني».

وكان التأبين يقام دائماً في المشفى العسكري في شارع «جالي» حيث ينتهون من العساكر الجنود بسرعة. أما مع الضباط فقد كان الجو أكثر تعقيداً. كانت ترافقهم فرقة نفخ موسيقية حتى المشفى وبعد كلمة القس ترافقهم إلى المقبرة العسكرية حيث تعاود عزف الموسيقى ثم يأتي دور القس ليتحدث من جديد.

كان يمقت الموتى من ذوي الشأن والجاه، الذين كانوا يخصونهم

Telegram: somrlibrary

بمراسيم التأبين الرفيعة، التي يقيمونها في مقبرة «كربشي». أو في صالة كازينو الضباط في شارع «فاتسي».

وهكذا، على مدى ساعتين ونصف الساعة أقيم في مقبرة «كربشي» حفل تأبين قائد الفرقة «هرمان كوفش» بطل الحرب العالمية الرابع عشر. وهكذا، على مدى أيام بطولها، شيعت جنازة المقدم «بورباش أنتال».

أما قائد الجيش الكولونيل «بال ناج» فقط انطلق جثمانه من كازينو الضباط. وهناك في الحفل ظهر «هوت ميلكوت» الذي راقبه هابتلر كثيراً. كانت الصالة كما تفوح بالحرارة، تعج بالنياشين. ألقى «رجو تاو ننفر» كلمته بخمول شديد. في حين احتشدت المناديل تجفف جبهات السادة المتعرقة. كان هابتلر منتصباً قرب منديل مشتعل متعرق الجبين والوجه، مبلل الشاربين. دون أن يجرؤ على مد يده إلى جيبه، أو يقرب جبينه إلى كمه، أو أن يخطو خطوتين بعيداً عن القنديل الملتهب، مخافة أن توحي أية حركة منه بارتكاب حماقة ما، في الجو المعبأ بالترقب والانضباط.

بعد ساعة ونصف الساعة كان يخب متراقصاً من البهجة في شارع راكوتسي الذي امتلأ برجال الشرطة اذين يتقدمون المسيرة بثيابهم المراسيمية. تليهم فرقة المراسيم المرافقة للجثمان على انغام فرقة النفخ الضخمة التي عزفت المقطوعة الجنائزية البطيئة بقيادة «ريتشارد فريتشي».

وفي مقبرة (كربشي) لعلع الرصاص مخترقاً هبات النسيم العليلة.

كان هابتلر تغمره سعادة دبت إلى عظامه. وفي النهاية قام بمساعدة «رجو تاوبنغر» في خلع ملابسه السوداء ورافقه ماشياً إلى جانبه حتى شارع (مادام بال).

وفي الأيام التي لا يكلفون من قبل قائد الكتيبة بعمل ما، كان

Telegram: somrlibrary

الروحيون يرتادون، للراحة، مطعم «كيش رابلو» «الحرامي الصغير» في شارع غوريا. ويتناولون الأطعمة الحادة، مجترعين البيرة.

وكانت مهمة هابتلر أن يظل حريصاً على مراقبة أحوالهم في النشوة كل ساعة، مخافة أن يطفو أحدهم من السكر، ويحلق جاراً الجميع إلى ارتكاب حماقة. وكان يوصل الثمل من بينهم إلى بيته.

كان الأسقف العقيد «غابورسابو» شخصاً مريحاً. يضحك ويغني معانقاً هابتلر بذراعيه.

وكان رئيس الأساقفة العميد «رجو تادبنغر» التململ المنكمش يتوعده بنار جهنم، حتى توصل به الحال ذات مرة في العربة أن خمش أنفه بأظافره.

قالت له العجوز في البيت وهم يغيرون الأثاث:

– خذها أنت – قالت بمودة – أفضل من بيعها ببعض الغلليرات.

وفي اليوم التالي، حين كانوا ينزلون من العربة الخزانتين والسريرين والكوماندينين، والطاولة، كان المشهد محط أنظار الجميع من سكان البراكات.

كانت بيك ماريا،منذ أسابيع، تعمل لدى فرع من شركة الاستيراد والتصدير R. T في شارع المسرح. وكانت تصرفاتها تربك هابتلر كالعادة. تشكلت الشركة في ربيع ١٩٢١ بهدف تزويد الأحصنة العسكرية بالشعير والشوفان والعلف. كان مديرها العام العميد «موريس بالكوفيش»، وكانت عربته الفاخرة ذات العجلات المطاطية، وأحصنتها بحوافرها المطاطية كذلك، من المظاهر النادرة في العاصمة، وهي تجوب، بلا قرقعة، شوارعها المرصوفة بالحجارة.

Telegram: somrlibrary

كانت بيك ماريا تقوم بتعبئة أكياس العلف، حريصة على صحة وزنها بالتساوي، فنالت نصياً من غبارها.

كان رئيسها المباشر ملازماً يتحلى بغباوة. فكانت كل سبت أثناء عد العبوات تختلس عشرين – ثلاثين عبوة برفة عين.

خاف هابتلر، تضرع إليها ألا تفعل، مهدداً إياها بالسجن، وبألوان من الحساب العسير إذا ما وقعت.

لم تلتفت للنصيحة، حتى جاء الخريف و لم يحتمل هابتلر أكثر. وفي منتصف نوفمبر قصد مكتب شركة باتونيا للتصدير والاستيراد R.T في شارع «آران يانوش». صعد هابتلر درجاً مفروشاً بالسجاد.

وباحترام شديد طلب إلى العقيد الباسل «تشنادي إمره» رئيس الفرع أن يطرد زوجته لأنها في حالة يرثى لها. وأنها لا تأخذ بكلامه وتخرج عن مشورته، لأن الغبار يؤثر على صحتها ويلحق بها اذى شديداً.

دفع «تشاندي إمره» أجرة الأسبوعين. وفي صباح اليوم التالي كانت ماريا بيك مفصولة عن العمل.

وفي الرابع من كانون الثاني «يناير» ١٩٢٢، وضعت ماريا بيك مولودها الثاني وأسمياه هابتلر يانوش على اسم أبيه. كان وضعاً سهلاً على ماريا بيك. في الخامسة بعد الظهر أرسلت زوجها لاستدعاء الـولاّدة، وفي السادسة كان هابتلر يانوش الابن يصرخ تحت ضوء المصباح البترولي.

وبعد أسبوع جرى عماده في الكنيسة الإنجيلية.

مساءً استقبلوا ضيوفهم. فأعدت ماريا بيك السمك المقلي والقريش.

Telegram: somrlibrary

واحتسوا النبيذ البروغتشي بالدبجانات. وانتشى هابتلر، فركع أمام ماريا بيك وقبل يديها القبيحتين بالأصابع المعقوفة. احمرت ماريا بيك – عجوز مجنون – قالت. ومسحت على رأسه وضحكت مرتبكة. تقدم الأب الروحي «أشتفان كالوز» بكلمة شكر ثم بدأوا الغناء. وظلوا حتى الصباح يشربون النبيذ بصحة هابتلر يانوش الابن.

وفي مارس «آذار» أحضر هابتلر يانوش الأب غيزيكا من بروغتش. شوهدت، في البيت ندبة على رأس البنت. الأمر الذي أثار غيظ ماريا بيك. فراحت تلعن وتطلق الشتائم أياماً بطولها.

في يونيو «تموز» أرسل خمسمائة طفل إلى هولندا في منحة غذائية. قالت ماريا بيك لن يطعم ابنتها أحد ما دامت هي قادرة على إعالتها. لأن الحرة لا تأكل بثدييها. وتهدر كرامتها.

غسلت للضباط الثياب، والشراشف التي كان يحضرها أحد الجنود من الثكنة. وكانت أيام السبت تقوم بالتنظيف والشطف لدى والدة الدكتور فيلوش ماتياش في شارع «سيب». فالعقيد غادر بودابست بعد أن عين مدرساً في مدرسى «كوساغي كادل» العسكرية خارج العاصمة.

وفي أوقات العصر، يحمل هابتلر غيزيكا وتجر ماريا بيك عربة الرضيع ويخرجان بالطفلين إلى شارع «ديوسغ» حيث يقتعدان العشب أمام مصح «رينجر»، ويراقبان المرضى الغرائبيين المتناثرين بين الأشجار. وكان أكثر المرضى إدهاشاً تلك العجوز، التي عملت من ذراعيها جناحين وراحت تجول بشعرها المنفوش وحركاتها الراقصة، وتغني:

«جميلة أنا، طيبة أنا، لكن مجنونة قليلاً أنا» وتكررها. وعندما ضجر

Telegram: somrlibrary

هابتلر عبر الجميع إلى ملعب كرة القدم المجاور حيث حالفه الحظ ذات مرة ورأى في هذا الملعب، عن قرب، حارس المرمى الشهير «جاك» حيث لعب مباراة ودية ضمن فريق الحي الثالث.

وكانا كل مساء يطيلان الجلوس أمان الباب المطل على الشارع يتسليان بمشاهدة البشر العائدين من أعمالهم، والفتيات الألمانيات بالتنانير والكشاكش، اللواتي يعملن في معمل نسيج «لينوم» في شارع كارولينا. وحين وصل الجاران «إشتفان كالوز» و «أندره كوفتش» يلعب الرجلان الورق وتتسلى الزوجتان بالأحاديث، ويصخب الأطفال، حتى تعلن المصانع دقات الساعة العاشرة، فيهجع الجميع إلى النوم.

في خريف ١٩٢٣ أنشئت جوقة غناء بودابست وكان مقرها عند ملتقى الشارعين «فيلاني» و «آبل نيو» في مطعم «كريست» حيث كانت تجري التمرينات مرتين أسبوعياً. كان رئيس الفرقة «كارول كريسن» ونائبه بيلا ترافينا، وسكرتيره أنده كوفتش وكان المدير المالي إشتيفان كالوز وكان الخازن هابتلر يانوش، أما قائد الفرقة فكان الأستاذ وعازف الأرغن الكنسي «جولا كابي».

ومع حلول الربيع ذاع صيتهم وازدحمت مواعيدهم، في الأعراس والجنازات وكانوا يقدمون «السرنادات» ومعزوفات الحب التي برعوا كثيراً في أدائها. فكانوا يدندنون تحت البراكات النغمات الرومانسية مثل (أوه ما الذي يصدح هذه الليلة معبراً عن أحلامه؟ إنه العصفور بين الأغصان يبث نجواه في الحب).

لم يحصلوا على نقود، بل على كؤوس النبيذ، بعد انتهاء العرض، وكانوا يغنون حينذاك «أرفع كاسي نخب الطيبين، اشرب اشرب وليمد الله في عمرك».

Telegram: somrlibrary

هابتلر لم يشرب. على العكس من كوفتشن الذي إذا ما غلبه النبيذ وثمل، يبدأ في تحطيم كل شيء. ولكن ذلك كان نادر الحدوث لسبب حرص زملائه، وقرابتهم له، وخاصة هابتلر.

وكان يردد أنه متيم بحب زوجته وينصح بإقامة علاقة معها، ويصيح بأعلى صوته:

– وأنت أيها القوّاد. «آنا» أيضاً مغرمة بك. لعنكم الله جميعاً. وحين يعود إلى وعيه في اليوم التالي يطلب الصفح حزيناً.

كانت للفرقة عروضها المنوعة. في الاحتفالات العسكرية كانوا يغنون «ما أضخم هذا الجيش». وعند القبور «ما عاد فوق هذه الأرض».

في يونيو «تموز» من عام ١٩٢٤ وضعت «آنا» الجميلة ذكراً عمد في كنيسة إصلاحية استجباة لرغبة كوفتش، وإثر جدال حام، وبكاء متوسل. وكانت ماريا بيك «عرّابته» «أمه بالعماد» التي أعدت سمكاً وقريشاً. وأحضر كوفتش خمس لترات من النبيذ. فأجهزوا عليها.

وفي الصيف ذاته أنشئت حضانة كاثوليكية باسم بيت «بيوس» في منزل أرضي صغير. كانت الراهبات يشاهدن متجولات أمام البراكات، وقد أبدين جفاءً على اعين الجميع، و لم يتكتّمن عن عدم رضاهن، وغضبهن على شكر «آنا» التي كانت كاثوليكية مؤمنة. البنت ماريا التي ترعرعت في الدير شكت لماريا بيك باكية أن رئيسة المربيات لا تهتم بابنها، ولا تخصه بالعناية. أغضب الأمر ماريا بيك فجذبت ذات مرة عربة الطفل من بين يدي المربية ودفعتها إلى وسط الشارع وقالت:

– عزيزتي المربية لماذا تهملين ولدي الروحي بالعماد.

Telegram: somrlibrary

– هكذا – أجابت المربية ببرود – لأن الأم إذا ما كانت متزوجة من رجل إصلاحي، فعليها على الأقل أن تعالج خطيئتها باتخاذ عرابة كاثوليكية.

– ولكن بالله عليك يا عزيزتي المربية. كيف ستعاقب بنار جهنم تلك المرأة الكاثوليكية إذا كان من يعيلها ويمدها بالخبز رجل إصلاحي؟

وفي اليوم التالي دعيت إلى الشرطة، وحذرها المناوب هناك من مخاطبة الراهبات بلهجة جارحة، وصرفها ضاحكاً.

تأثر هابتلر يانوش إلى حد المرض، وأخجلته الحادثة كثيراً. ورجا زوجته أن تسد فمها، وألا تثير غضبه، لأنه إذا ما نفذ صبره ذات مرة فسوف تحصل كارثة. وقد ردد يومها هذه العبارة مرات عديدة.

في شهر آب وضعت ماريا بيك طفلها الثالث. وكان شاحباً ضعيف البنية. لم تتوقع له القابلة حياة طويلة. وكانت محقة في ذلك، فبعد ثمانية أشهر تم دفن الصبي وقرأ على قبره الروحاني الإنجيلي «سابو غابور» وغنت فرقتهم «ما عاد موجوداً فوق هذه الأرض» بكت وفاض الدمع من عيني ماريا، حتى حذرتها «حماتها» من أن بكاءها قد يغرق التابوت بالماء، هنا مسحت ماريا بيك عينيها، وسارتا إلى البيت معاً.

في سبتمبر «أيلول» من العام التالي عين الدكتور فيلموش مبعوثاً عسكرياً في أثينا. هذا ما روته أمه لماريا بيك أثناء قيامها بتنظيف البيت كعادتها كل يوم سبت، وفي تشرين الأول «أكتوبر» أقيل العميد رئيس الأساقفة الإنجيلي «رجوتا وبنغر» وعين في صولنك، نتيجة لأنه، في نادي ضباط «بوداكسي» رمى بكتاب المزامير مرتين، وصار يفلت لسانه للعبارات اللاذعة شاتماً بأعلى صوته. ولكنه كان يطلب الصفح دائماً من الأسياد. عين مكانه العميد رئيس الأساقفة الإنجيلي «داني

Telegram: somrlibrary

بالاج» كانت معرفة «هابتلر يانوش» الأولى بالأسقف الجديد مؤلمة جداً. ففي الصباح الأول لدخول العميد إلى المكتب ضبطه نائماً على الطاولة فايقظه.

– بأي حق تجرؤ على النوم – سأله بنبرة قاسية.

اعتذر هابتلر وقد شحب لونه، وطلب المعذرة قائلاً:

– سيدي العميد رئيس الأساقفة، أنا أبدأ عملي كل يوم في الساعة الواحدة ليلاً لأن عائلتي في حاجة إلى ذلك.

فكر «داني بالاج» وقال:

– سلوك نبيل، أجل – وتابع بلهجة رصينة – روحكم طيبة.

ثم قدم له بنغوراً، مكافأة مادية له. فاشترى بها سكاكر للطفلين، ونبيذاً لماريا بيك، وجلس قرب حوض الغسيل يحدث الزوجة قرب السياج الشبكي الذي يسور مصح «ريغنر».

– برد الجو – قال هابتلر – لن يطول مجيء الطقس الماطر. وقد تثلج، وعندها سوف يحتجزون هؤلاء البشر داخل غرفهم. وبالتالي لن نشاهدهم حتى حلول الربيع.

أثلجت غزيراً هذا الشتاء، فلم يتمكن هابتلر من الجلوس أمام الباب عصر كل يوم.

وفي نهاية «يناير» كانون الثاني زارتهم مربيته (أمه) وأقامت عندهم أسابيع. وكل ليلة بعد إطفاء المصباح، كانت تحتضن الطفلة غيزيكا، وتقص لها على ضوء النار تحت وعاء الطبخ الحكايات الشيقة عن التلميذ (الشاطر)، والطفل اليتيم، والفارس الذي فقد حياته ثم عاد

Telegram: somrlibrary

لأجل محبوبته منادياً عبر النافذة «طلع العالم الجميل المقمر» و«هل تخافين مني أيتها الزهرة اللؤلؤية». ثم تأمر ماريا بيك الجميع بأن يذهبوا إلى أسرتهم حيث يتنصتون قبل إغفائهم لعويل الرياح.

وفي الثامن من أيار «مايو» عام ١٩٢٦ رزقا بفتاة عمدت باسم «هانيلكا» وكانت جوقة بودابست في هذه الأثناء قد تمرنت على الغناء الجماعي. فأجاد عناصرها غناء «الكركي صوته جميل، ولكنه يطير ويبتعد عالياً» و «ملاكي» الصغيرة حزينه لأنها لا تسمع غناءه.

واستعدت الجوقة للاشتراك في مهرجان الأغنية الوطني في «شوبرون».

وفي عز الصيف كانت غجرية شابة تدور حافية من بيت إلى بيت تقرأ المستقبل لقاء بعض الغلليرات. زارت ماريا بيك أيضاً. أجالت عينيها في أرجاء الغرفة فنال إعجابها غطاء الطاولة المشبوك، المفروش في منتصف الطاولة. افترت شفتاها عن صف أسنان سليم حين طلبت الغطاء، ضحكت ماريا بيك قائلة:

– ما أرجح عقلك؟

تقدمت الغجرية منها وقالت بهدوء حتى لا يسمعها الجوار:

– مقابل ذلك سأقول لك سراً كبيراً إذا كنت تجرئين على سماعه.

هاتي كفك.

بسطت ماريا بيك كفها وأصابعها العقفاء. فبادرتها الغجرية.

– في الجوار امرأة سوداء الشعر. وضعت عينيها الساحرتين على زوجك سوف تخطفه منك..

Telegram: somrlibrary

هنا راحت ماريا تدفعها نحو الباب حتى طردتها خارجاً.

في مساءات لعب الورق من العام نفسه، تناقل المتسامرون الأنباء عن وقوع جريمة شنعاء، وأسهبوا في الحديث عنها، حتى طلب الجميع من هابتلر يانوش، بوصفه حاجباً في مكتب الكولونيل، توضيحات رسمية دقيقة عن الحادثة.

طوى الموظف كم قميصه، وأشعل سيجارة ودون أي تكلف سرد ما يلي:

– إن صداقة قوية تربط زوجة «غوستاف ليدر» بتاجر اللحوم الثري «كودلكا»، ومن المحتمل أن علاقة حب قد نشأت بين الصديقين. كان بوسع تاجر اللحوم أن يرتاد منزل المرأة في أي وقت يريده، وكان زوجها العقيد يغض الطرف عن هذه الزيارات لمعرفته بقصة الحب بينهما.

ذات يوم حين كان تاجر اللحوم يحمل مالاً كثيراً معه، أقدم العقيد وزوجته على قتله، ولكي يخفيا الجثة لجآ إلى تقطيعها ووضعها في حقائب وأكياس والقيا به في نهر الدانوب من فوق جسر مارغيت. ولكن المياه قذفت بالأعضاء المقطعة إلى ضفة النهر، وشوهدت هناك. وكانت دليلاً على الجريمة لأن تاجر اللحوم، كان مختفياً منذ مدة ولأن علاقته قوية تربطه بالزوجين.

هكذا تكشف الأمر عن فعل إجرامي قام بارتكابه مسؤول كبير بالتعاون مع زوجته. وقد تمت إدانته ليس فقط على أساس غض نظر وتستر على جريمة، بل على سلوك إجرامي يشارك فعلياً به، بدافع الحصول على المال.

قال كوفتش: الواقع غير ذلك. غوستاف ليدرر هو من كانت له

Telegram: somrlibrary

علاقة مع زوجة اللحام. وهما من ارتكبا الجريمة. وإنك ترويها على نحو مختلف تماماً.

اعترف هابتلر باحتمال هذا. ولكنه كان متأكداً من أنه، غداً مساءً، سيكون مع غوستاف ليدرر في حجرة الإعدام، لأن القيادة كلفته هو إلى جانب العقيد رئيس الأساقفة الإنجيلي سابو غابور.

وأظهر «كالوز» فضولاً لمشاهدة ما يسلكه المحكوم بالإعدام في ليلته الأخيرة. فاجاب هابتلر: لا يمكن تخمين ذلك لأن سلوك البشر يختلف باختلاف الأشخاص.

– ألا تشعر بالخوف – سألت آنا كوفتش.

– لا أخاف، وما من سبب يدعوني لذلك – أجاب هابتلر.

– من أحلامك؟ من شأن الأحلام المروعة أن توصل المرء كائناً من يكون، إلى حافة الجنون.

ورسمت صليباً بيدها السمراء.

لا شك في أنهم جميعاً كانوا يجتازون مدخل سجن شارع مارغيت الدائري. في غرفة القيادة كان العقيد رئيس الأساقفة الإنجيلي مترسماً بثياب الكهنوت. تناولوا جرعة من البالينكا، ثم قاده رئيس الحرس إلى زنزانة تشبه قبراً، سميت زنزانة الإعدام.

كان غوستاف ليدرر بثيابه الرسمية، وقد جردت من الرتبة والنياشين. تقدم نحوهم مبتسماً، صافح سابو غابور ضاغطاً على يده، وقال: كنت أنتظر حضرتكم.

حتى منتصف الليل كان سلوكه عادياً، يبدي ندماً شديداً ويستنكر

Telegram: somrlibrary

بشدة وصدق فعلته النكراء. ووبخ نفسه وعنفها تعنيفاً قاسياً. ثم برفقة سابو غابور أقام صلاته بضراعة الورع. وفي الساعة التاسعة جاءوه على صينية صغيرة، بفطيرة بالجوز وكأس من النبيذ.

اعتذر ليغسل يده فوق «طست» ثم جلس إلى الطاولة وبدأ يأكل بصمت وهدوء. طلب بعدئذ أن يأتوه بالكتاب المقدس.

عند منتصف الليل بدأ يخاف. ارتبكت نظراته. وغشي عينيه بريق عجيب.وعلى صفحتي وجهه وخديه كان يمكن ملاحظة عصب يرتجف وبدأت أسنانه تصطك. هنا اومأ سلبور غابور بنظرة منه، فاستجاب هابتلر يانوش لإيماءة العقيد رئيس الأساقفة.

تقدم إلى الأمام وبدأ الإنشاد بصوت ناعم هادئ «إليك تهفو روحي يا أبت، وإليك الرجعى يا رب».

أحدث المزمور تأثيراً معاكساً لما أمل منه الأسقف. انفعل عقيد الأمن كوفتش، وشتم السماء، أطاح بالطاولة ورفع الكرسي ضارباً به الجدار ليتحطم عليه. بينما خرج سابو غابور وهابتلر يانوش مسرعين إلى الممر، في حين بطح السجانان المصاب بالهذيان أرضاً، ثم قيدا ساقيه وذراعيه. وبعد دقائق وصل مدير السجن. كان غوستاف ليدرر منهمكاً، ولكنه قدم اعتذاره ووعده أن يسلك، فيما تبقى من وقت، كما يليق بضابط في الجيش، فكت قيوده وانسطح على السرير المعدني.

شرع سابو غابور يتلو بصوت متباطئ منوم ما تيسر من الكتاب المقدس. وغوستاف ليدرر لم يتفوه بكلمة حتى الفجر. ثم قال: عسى جلالة الملك يمنحني الرحمة. كلن رد سابو غابور هكذا بين يدي الله.

وفي الخامسة صباحاً دخل سابو غابور وهابتلر يانوش إلى غرفة

Telegram: somrlibrary

الإدارة. فتح هابتلر الصندوق الخشبي. تناول سابو غابور صابوناً ومنشفة، فرشى ثيابه وحذاءه. ثم غسل هو أيضاً وجهه وصفف شعره، وفرشى بزّته الرسمية وقبعته السوداء، بأزرارها الذهبية، وفي السادسة إلا ربع رجعا إلى غوستاف ليدرر.

وفي السادسة تماماً وصل المندوب الأعلى. اصطف فصيل الإعدام أمام الزنزانة. محاطاً بثمانية من السجانين يتقدمهم ضابط بسيفه المشهر، اقتيد غوستاف ليدرر إلى الباحة. كان كرسي الإعدام قبالة خشبة المشنقة، قرأ هابتلر يانوش الحكم. وكان يتضمن رفض جلالة السيد الحاكم طلب الاسترحام. وأوعز للمنفذ أن يؤدي واجبه. هنا رفع غوستاف ليدرر ذراعه وصرخ: جلالة السيد الرئيس - لكن دون أن يسمع أحد ما يقول لأن صوت الأبواق بدأ يتعالى. وعندما علق هدأت الأبواق وساد سكون. تقدم الطبيب. عاينه. وأعلن تمام موته.

شرع يابو غابور يصلي لروحه، وسط إصغاء الجميع برؤوس مطأطئة.

عند الساعة الثانية بعد الظهيرة اليوم التالي شيع الجثمان داخل المشفى العسكري في شارع (جالي) حيث تلا سابو غابور دعاء. ثم رافق أربعة من الجنود، إضافة إلى الأسقف، وهابتلر، التابوت حتى المدخل. ومن هناك نقل وحيداً بعربة الخيول إلى مقبرة «راكوش كرستوري».

انتسبت غيزيكا إلى مدرسة في شارع فالي. كانت كل صباح تسير نصف ساعة على طريق هورتي ميلكوت. وكذلك عند عودتها في الظهيرة. كانت الفتاة مثالاً في حسن السلوك، وتتصف بالغباوة، ولم ينقذها من الرسوب إلا صفعات ماريا بيك.

في عيد ميلادها الثامن في العشرين من كانون الثاني لعام ١٩٢٨ أعدت ماريا بيك (حليب العصفور) وكعكاً بالحليب، ووجهت الدعوة

Telegram: somrlibrary

لأطفال الجيران، كان هابتلر قد قام بتزيين الغرفة بالأضواء. أمات هدية العيد المتوضعة في منتصف الطاولة، فكانت حذاءً جديداً طويل الساق.

في الظهيرة اجتاحت الجو عاصفة ثلجية عنيفة. كانت غيزيكا قد انطلقت من المدرسة وبلغت شارع «فدروس» فعثر عليها هابتلر أمام حانوت، متشبثة بزميلتيها، ويبكين معاً.

في المساء أصابتها الحمى. وصارت تهذي. ارتجفت شفتاها وصار شعرها البرونزي الغامق الموروث عن آبيها يتلامع من البلل.

جلست ماريا بيك تولول

– هذه أيضاً ستموت، يا مسيح. يا رب.

اندفع هابتلر، قاصداً القابلة، متعثراً في الثلج المتراكم، حمّمت القابلة الفتاة بالماء الساخن وجففت شعرها وجسدها. ثم مسحت ظهرها وصدرها بالدهن الفاتر، ولفتها حتى جيدها، ثم سقتها شاياً بالروم. وبعد ثلاثة أيام شفيت غيزيكا، إلا من طنين في أذنها. وشوهدت تتراكض مع أخويها وأبيها، يتراشقون كرات الثلج، ودائماً كانت جيوبها تحوي حبات السكر.

كان هابتلر أحياناً يصطحب زوجته إلى مطعم «كريست» فكانت المرأة القصيرة الشقراء تكرع نصف لتر من النبيذ. وكانت إذا تلقت غمزاً أو إطراء من الرجال هناك تخبر به زوجها.

في نهاية شهر شباط «فبراير» عاد د. فيلموش إلى الوطن قادماً من اليونان وعين أستاذاً في أكاديمية «لودفيكا» وانتقل ليسكن مع أمه في منزل مشمس من أربع غرف في شارع «فرغاراشي». ماريا بيك هي التي قامت بتنظيف المنزل الجديد، بينما أوكلت إلى هابتلر أعمال نقل

Telegram: somrlibrary

الأثاث وترتيبه. وعند الوداع مساء، أجزل د. فيلموش امتنانه لما بذله الزوجان من عون. وقدم لهما هدية كانت عبارة عن حجر سداسي ألصقت عليه صورة ملونة عن أثينا.

في الربيع رجعت عادة الجلوس أمام الباب. البرجال يلعبون الورق. والنساء يسترسلن في الأحاديث، ويتضاحكن وهن يرصدن إلى الشبان الذين يتبعون بنظرات كالسهام أو بخطوات وحركات مشاكسة، الفتيات الألمانيات في خروجهن من المعامل، بتنوراتهن القصيرة وخطواتهن الواثقة الرشيقة. وفي أوقات أخرى، كان الأولاد يطاردون «شاراكونر» ويقذفونه بالحجارة. وشاراكونر هذا عجوز دميم تهدلت نظاراته إلى مساواة فمه. تتناقل عنه الأحاديث أنه في كل عيد من أعياد الخريف يشرب دم أحد الأولاد المسيحيين. حتى إنهم حفروا الأرض حول الغرفة التي يقطن فيها فلم يعثروا على شيء.

ذات مرة بعد إطفاء المصباح، سألت غيزيكا خائفة: لماذا يشرب دم الأولاد المسيحيين؟ فأجابتها ماريا بيك أن تكف عن مثل هذه الخرافة، وأن شاراكونر يشرب حساء الفاقة والقلة. في يونيو «حزيران» عثر عليه مضرجاً بدمه، ملقى في شارع كاورلينا. وتناقل الناس باهتمام بالغ هذه الفعلة التي أدت إلى موته. وفي المساء في المطبخ قال ياني الصغير: «تخلصنا من اليهودي العجوز» فصفعته ماريا بيك، وصفعت على إثر ذلك هانيكا، وغيزيكا من مبدأ أنها قامت بصفع الجميع فلن يجرؤ أحد على السخرية من الآخر.

وفي آب من هذا الصيف لحقت بهانيلكا وعكة مرضية مفاجئة: تصلب جسدها، وأزبد فمها، وشخصت عيناها كمن تعتريه علائم الموت. وقالت القابلة خذوها إلى العيادة في شارع ماريا. ستأخذ حقنة. وهذا ما حدث، بعد أن عاينها الطبيب قام بإعطائها حقنة. وطلب

Telegram: somrlibrary

مراجعته بعد ثلاثة أيام. وقفت ماريا بيك عند ناصية الشارع. إزاحت بأصابعها العقفاء الغطاء عن وجه الفتاة.

– ماتت – قالت. ثم غطتها وصعدا إلى الترام. وتتالى فضول الركاب طوال الطريق عمّا حل بهذه الطفلة. فكانت تجيبهم وهي تحتضنها بحنو: مريضة. مريضة جداً. وكان هابتلر يوافقها وهو يذرف الدمع. وبطفليها الباقيين على قيد الحياة كانت ماريا بيك تنطلق كل صباح إلى المرج. هناك يقوم «ياني» بتجميع الحشرات، ومطاردة الفراشات والضفادع. وتقوم غيزيكا باللعب بين القبور وتتأمل فيها. وفوق المرج كانوا يتغدون.

يمضون بعضاً من الوقت ريثما يأتي هابتلر بعد الظهر لأجلهم. وفي طريق عودة الجميع إلى البيت. كانت حشرات القديس يانوس «الحباحب» تتلامع في الطريق.

في الخريف جلست ماريا بيك في المطبخ. فلت لسانها إلى مواضيع مشتتة كثيرة لا رابط بينها، واستغرقت في الكلام حتى إنها تجاهلت طلب ابنها «ياني» سندويتش الخبز بالجير.

بينما عند الباب وقفت غيزيكا تراقب المطر، وتدمع. وحين سئلت عن سبب بكائها. أجابت بأنها حزينة على أموات المقبرة، وعلى الذين يفتقدون البيت ولا سكن لهم. نامت مع أخيها في سرير واحد. «ياني» قرب الجدار وغيزيكا ناحية الغرفة. وفي إحدى الليالي شاهدت شبحاً لهيكل عظمي. وصار الشبح يأتيها كل ليلة حتى وعيناها مفتوحتان فلا تقوى على إطباقهما. كان الشبح يرتسم أمامها، مرة قرب الخزانة، ومرة قرب سرير والديها. مرة في يده منجل ومرة يحمل صليباً أو تفاحة. ولم تبح بما يتراءى لها لأحد، فقط كان الكل يعرفون أنها هلعة مصابة

Telegram: somrlibrary

بالرهاب. وأنه يتعذر إرسالها إلى أي مكان مساءً لأنها تخاف. في عيد الفصح وصلت جدتها من بروغتش فاندست غيزيكا في حضنها لتقص لها الجدة عن كل شيء وهي تمسد بحنان شعرها البرونزي القصير، وهو اللون الذي يدل - حسب كلام الجدة - على أنها سوف تعمَّر طويلاً. في تلك الليلة لم يحضر الشبح العظمي و لم يتراء لها بعد ذلك مطلقاً.

لم تشأ ماريا بيك أن تذهب إلى العيادة العسكرية. كان ثمة طبيب - هو ابن سقاف - يعالج سكان البراكات مجاناً. ولا يتوانى عن عياداتهم في بيوتهم ليلاً فاستدعاه «آندره كوفتش» لعيادة ماريا بيك. وعبر أسابيع أربعة كان يعطي حقنة الدواء للمرأة التي استحالت جلداً وعظماً، حتى تعافت بعدها ماريا بيك وجلست إلى طست الغسيل.

عند الساعة الخامسة والنصف من بعد ظهر الرابع من تموز «يونيو» عام ١٩٣٠ قصدت دكان «فايس إغناتش» من اجل شريط أحمر. وعند الساعة السادسة وضعت فتاة سليمة.

وجلبوا لعمادها آنا كوفتش الجميلة. ونزولاً عند رغبة هابتلر أسميت الفتاة «أستر». بعد سنتين ولدت لهما فتاة أخرى. هانيلكا.

بكت غيزيكا مستنكرة هذا الإنجاب المتواصل. ووجد هابتلر صعوبة في أن يخلصها من بين يدي أمها. ف نهاية نيسان من عام ١٩٣٠، ونزولاً عند رغبة داني بلاج العميد رئيس الأساقفة الإنجيلي، أبعد هابتلر عن آمرية المكتب العسكري الأسقفي، بعد أن شكر له نشاطه الدؤوب، متيحاً له أن يختار بأحد مكانين للعمل. إما المعهد الوطني العسكري للتربية البدنية، وإما أكاديمية «لودفيكا» ومنحه يومين للتفكير في الأمر.

- انظر يا هابتلر، لقد رشحوا شخصاً إنجيلياً متقدماً في العمر، ولكنك ما زلت شاباً قوياً تستطيع أن تنجز كافة الأعمال.

Telegram: somrlibrary

في بداية شهر أيار «مايو» عين في أكاديمية لودفيكا كنّاساً. أخجله وضعه الجديد. فقصد الأستاذ العقيد الدكتور فيلموش، شاكياً له حاله. وبعد عشرة ايام كان يعمل في القسم الطبوغرافي. كان رئيسه المباشر عقيداً هزيل الجسم، يضع نظارات، مهووساً بجمع الطوابع. ومن يتصفون بأنهم سيئو النوايا. وهو الآن بكل هذه المواصفات رئيس لفرع تعليمي. كان كل يوم يكلف هابتلر بنقع طابع. وفي عيد الحصاد تقدم للاحتفال بالعيد. ولكن العقيد قال إن القس ألغى مثل هذه الأعياد. فشحب لون هابتلر وأطرق قائلاً بهدوء:

– ولكني لست بابوياً. وبقي في البيت. و لم يسمح له العقيد بالعودة. وكان من نتيجة ذلك أن عين حاجباً في مكتب رئيس الأكاديمية العميد غوستاف ياني. حتى عين فيما بعد حارساً في المتحف. عند لعب الورق مساءً هكذا تكلم: إن متحف الأكاديمية يثير من الذكريات ما يبعث على العجب والدهشة ويحوي تحفاً مذهلة. ويمتلئ مدرجه باللوحات الزيتية الضخمة. ومن أبرزها لوحة «باتش آرباد» التي خلدت الانتصارات الكبرى للمجريين، على الجيش القيصري. وفي القاعة لوحة ضخمة أخرى بقياس ٥ تصور افتتاح أكاديمية لودفيكا. وقد ظهر في مراسم القسم الحاكم في ذلك الزمان «فرنتس يوجف» والعائلة الملكية، وكبار النبلاء. وعلى قائم رخامي، تحت اللوحة مباشرة تمثال مصغّر يمثل قائد جيش الخيالة المجري الأول على حصانه. وفي واجهة زجاجية عرضت رسالة «كوشوت» المحررة باللغة المجرية، ورسالة لينينغن إلى زوجته ليلة إعدامه. ومختلف متروكات بيت هابسبورغ. المطرقة الذهبية التي دق بها الحاكم مسماراً في علم الأكاديمية والمطارق المفضضة لكبار النبلاء. وفي خزانة منفردة لأخرى شجرة العائلة للأكاديمية التي تتضمن أسماء قادتها عبر مائة عام. عندنا – تابع يقول – الضابط الخريج يحصل على خاتم ذهبي منقوش. تحت أمانتي.

Telegram: somrlibrary

وبما أن الأزياء الرسمية تبدل عبر الزمن، فلدينا في المتحف بزة من كل زي معروضة بإتقان ضمن خزانة صغيرة. ولدينا، إضافة إلى كل ذلك، سيف وحزام يخصان أحد الأمراء، ويؤسفني أنني لا أعرف اسم هذا الأمير.

كان رئيس هابتلر – المقدم «روجاش يوجف» وهو أستاذ التاريخ واللغة الألمانية، ومعد الكتاب السنوي لأكاديمية لودفيكا، شخصاً مغروراً، فظاً. ذات مرة أشار إلى حذائه الذي ينتعله وقال لهابتلر:

– إنه هدية مني لك.

انتظر الموظف، انتظر طويلاً جداً ثم قال:

– سيدي المقدم! ماذا تفضلتم. هل قلتم أنكم ستهدونني هذا الحذاء.

أجاب: «يوجف روجاش»:

– فيما بعد، يا صديقي. فيما بعد. ما زلت أنتعله أنا حتى الآن.

لأسباب تمثيلية بالوجاهة، كان يصطحب هابتلر معه. يأمره أولاً، أن يحضر إلى منزله بالزي الرسمي الأزرق الغامق، وبالقبعة السوداء المذهبة، كي يرافقه من هناك إلى محطة القطار، وهناك يطلب لنفسه كأساً من البيرة وكعكة مالحة. كان يتقاسم الكعكة مع هابتلر ويشرب نصف الكأس ويعطي بقيته لهابتلر.

لقد كان المقدم يكتب شعراً. وقد نشر بعضه في صحف بودابست. وكان أجمل أشعاره التي نشرتها الصحف القصيدة التالية:

[مازلنا على قيد الحياة

نرنو حالمين إلى الغيوم السارحة

Telegram: somrlibrary

ونناجي النجوم
وفي الليالي الضبابية نطرق في الأرض
نصغي إلى قرع القتال
نصغي إلى ما يخبئه العالم من حروب:
ما الذي سيحلُّ بنا لأننا نكتم أحزاناً كبيرة وتنهش بنا الخرافة،
ونام خدرين وتسيل دموعنا سواقي
ونشعل المشاعل من خشب القبور
من السيد عندنا!
من السيد!
من الله
هل تلزم ضحية
هل نلزم نحن لانفجار آخر أو حرب طاحنة لإحقاق الحق.
أم أننا ننتظر خاسرين أنفسنا حاقدين في انتظار النهاية.
كلا. ثم كلا
مازلنا مجرين. مازلنا نبكي اليوم لأننا لا نقبل أن نضرب لكن سوف يأتي الغد وتتعالى أغانينا من جديد فقط...
هلموا هلموا...]

وقبل ظهيرة خريفية شعر المقدم بالملل. فاستدعى هابتلر إلى مكتبه.

– هل تجيد رواية الحكايات؟ – سأله، فكر هابتلر قليلاً. وأجاب بأنه

Telegram: somrlibrary

سوف يحاول وقص عليه ما يلي: عندما كنت فتى تستهويني ملاحقة الفتيات، كان عليّ أن أخوض غابة كبيرة، وإذا بي وأنا أدخل الغابة أسمع في الأعلى بين الغصون فرقة غجرية كاملة، تغني. فما كان مني إلا أن شهرت عصا مثل بندقية وصرخت: بم بم. فسقط إثر ذلك عن الشجرة جميع أعضاء الفرقة الغجرية إلا الصناج بقي في الأعلى.

– و لم بقي الصناج في رأس الشجرة!

سأله المقدم، أجاب هابتلر:

– لأنه يا سيدي المقدم... وبكل تواضع، كنت قد أفقت من حلمي.

ومنح إجازة يومين ذات ليلة، نقر «كوفتش» نافذة بيت هابتلر قائلاً عبارته المكرورة حتى السأم: أريد أن أتشاجر. قام هابتلر من سريره وطلب من الحذّاء الثمل أن يكف عن الإزعاج وأن لا فائدة من إثارة الضجة. لكن الحذاء استبسل وفاقم من حركات التحدي متخذاً بقبضتيه وضعية الملاكم. كان مشهداً مخبولاً تحت ضوء القمر. سئمت ماريا بيك هذه الحركات السيركية وأطلت من النافذة وقالت:

– ماذا تفعل؟

– هل كرعت لتراً من النبيذ كي تثرثر كما يحلو لك وتزعج جيرانك.

غداً تصحو وتطلب المعذرة. انقلع من هنا. أنزل «كوفتش» ذراعيه، فكر، ثم تقدّم من النافذة – أيتها العرّابة –. أمس كانوا يتنزهون على جبل النسور – لم ير ذلك أحد أبداً – قالت ماريا بهدوء. وظل يحدق كل منهما بالآخر لحظات، حتى قال بجدّيّة: اعذريني. وذهب إلى البيت. وكان من السهل أن يتناهى إلى الأسماع خبر مشاجرته لزوجته وضربه إياها. كان هابتلر يانوش الابن طفلاً سليماً مليئاً. ونظراً لطبعه

Telegram: somrlibrary

الاندفاعي يسبب الأزمات لوالديه. كانت إحداها فضيحة لا مثيل لها حين تلقى صفعة من معلمته، لسبب ما قبل الامتحان، فصرّ على أسنانه ولكم المرأة على معدتها. فكان من سوء الحظ أن انحنت المعلمة أمام السبورة وأخذت تتقيأ. اصفرّ لون الموظف هابتلر شاحباً من الخجل فلم يستطع العشاء. وصرح أن من الأفضل أن يشنق نفسه، من أن يربّي مجرماً بين أفراد العائلة. أما ماريا بيك فقد شتمت المعلمة.

– كيف تضرب ولداً ولا تطعمه – صاحت ورشقت ابنها بالملعقة الخشبية.

في سبتمبر «أيلول» افتتحت مدرسة جديدة، مسقوفة بالآجر الأحمر. تعلم فيها الولد خمس سنوات وكانت نتائجه مشابهة لنتائج أخته الكبرى.

كانت له هواية واحدة لا ثاني لها: كرة القدم. فالنزهات التي اقامتها العائلة للمشاهدة من خلال سور الشباك المعدني لمصح «رينجر» صارت بالنسبة للولد مملة. فلم يكن يتحلى بالجلد لمتابعة الغرائب التي كان والده يغريه مشاهدتها. ومنها مثلاً الرجل الأنيق بقبعته القش وثيابه الملونة، حاملاً بيده هاتفاً وهمياً لا وجود له وينادي بصوت جافل «هالو، هالو، في إفريقية عثروا على شجرة الخبز وتحتاج ألف عربة لتحملها في الشتاء».

ومن المشاهد الغريبة أيضاً المرأة التي ألصقت وجهها الجميل على الشباك المعدني منادية أن يخطفوا الشاب فقط، أما هؤلاء والآخرون غيرهم فلا يهمونها في شيء.

– فليذهبوا إلى الجحيم. تلتهمون اللحم المقلي مع مخلل الخيار وتريدون أن توهموني بأنكم مجانين.

Telegram: somrlibrary

وراحت تشتمهم غاضبة. وتهاجمهم متقدمة منهم فطاردتها ماريا بيك.

كان الولد ينتقل إلى ملعب كرة القدم المجاور، غير آبه بأي فريق يفوز. فقد كان يتابع المباريات بسعادة لا تفوقها سعادة. وكان يجادل بمجرياتها عن معرفة تنم عن خبرة وحب. لكن إذا ما لعب فريق الحي الثاني من بودا فكان يطير عقله من رأسه. فلا يحتمل أي خطأ في التحكيم مهما يكن بسيطاً، ويعتبره إهانة شخصية له، وقد استخدم قبضته غير مرة. وهو أيضاً مارس كرة القدم، وكان يشوط الكرة القماشية بكثير من الاندفاع والإرادة، لكن بقليل من الموهبة. وكان في بعض الأحيان يطوف على «جبل النسور» يجمع الزهور والبنفسج ويقدمها لأمه بابتسامة خجولة. كان كل أحد يوصل من البيت غداءً لـ «سورم» وهو عجوز ذو لحية طويلة وقبعة بحرية بيضاء، يجلسان خلف شارع كارولينا ويتحدثان عن العواصف الرملية والأنواء البحرية والحروب.

قال سورم: – لا وجود لعالم آخر. الأسماك تلتهم الإنسان وينتهي كل شيء. وكان يعتبر أن التقويم الغيرغوي ضرب من الجنون والمهزلة. ولا حاجة لأيام الاسم. وليدعم رأيه ويوضحه عمل من الورق المقوى مفكرة من سبعة أيام، كتب عليها: الاثنين: كعك بالمربى. الثلاثاء: فاكهة مجففة. الأربعاء: برغل مجروش للصوم الكبير. الخميس: فكهة مجففة. الجمعة: برغل مجروش للصوم الكبير. السبت: مرق الحصان. الأحد: هابتلر ياني. أفضل شيء. وأحياناً كان «سورم» يختلق مشكلة أمام المطعم، فلم يقف حسب دوره، وكان يريد وجبتين من الطعام، كان يتقدم وهو يعرج صائحاً:

– لا ينفعكم أن تتضايقوا مني ايها الشحاذون. أنا الذي أنقذت

Telegram: somrlibrary

حياة «هورتي» في (نافارا) في العاصفة، في الدخان، في الحرب الكبرى. ضحك الناس. بينما راح «سورم» يبكي، ويشتم بكلمات نابية الحاكم الجاحد والمستبد. تساقط الثلج ناعماً، عندما جرّه شرطي كان على دراجة. أسف الناس على حاله. ورنوا إليه بصمت حتى غاب عن أعينهم عند ناصية الشارع «يوتشكا» خلف المطعم، وفي المسار، في المطبخ، قالت غيزيكا:

– سوف يودعون العجوز في مصح «رينجر». ولن يبرد ثانية. نظر إليها ياني بعينيه الصفراوتين: – إوزة. كيف يحتجزونه في المصح. وراح يصر بأسنانه حتى اضطر الموظف أن يسد أذنيه. وضعت آنا كوفتش أيضاً صبيين اسودي الشعر كالغراب. وفي خريف عام ١٩٣٣ ولدت بنتاً ماتت بعد أسبوعين. عانت الأسرة من صعوبة العيش، وغالباً ما كان الحذّاء يطلب من ماريا بيك أن تشتري طعاماً لأسرته. لقد كان لزوجة هابتلر موثوقية لا حدود لها عند البقال. كان الرجال كل يوم، يشربون البراندي في بيت هابتلر. وتقوم ماريا بيك بتقديم الشاي بالروم، والخبز المحمص بالدهن والثوم. وفي اليوم الثاني لعيد الفصح قصدوا الطبيب ابن السقّاف – وكانت جوقتهم الموسيقية قد اختارته عضو شرف فيها – وانتظموا في بيته، بإيقاع هادئ، وأصوات دافئة راحوا ينشدون أغاني الفصح. في ربيع ١٩٣٦ طلبت آنا كوفتش أن يحدثها هابتلر عن أكاديمية لودفيكا. لملم ورق العنب ورتبه بعناية واستجمع أفكاره ثم قال:

– مساحة الأكاديمية تتوزع على أربع وأربعين فداناً تبرع بها البارون أوزوي بهدف أن تقام عليها منشأة للعلوم العسكرية يرتادها أولاد البلد المتميزون. حديقة بديعة، تعيش فيها أصناف الحيوانات. يمكن أن تجدوا فيها حمار الوحش والغزلان. وأعداداً لا حصر لها من

Telegram: somrlibrary

الطيور. الطاووس، وأحواض السمك الذهبية، والتماثيل، وبحيرة واسعة تصلح حتى للتجديف. إضافة إلى كنيستين: كنيسة إنجيلية وأخرى كاثوليكية.

ويصادف في العشرين من آب «أغسطس» من كل عام عيد الجيش الذي تشارك فيه كبار الشخصيات. والدعوات بالطبع شخصية. حين يحضر ممثل الحاكم تعلن الأبواق قدومه إلى الاحتفال. ثم يعزف النشيد الوطني. يليه أداء القسم الذي يقول: أقسم بالله الحي أن أظل وفياً للمجر، وقائد الجيش الأعلى، وأن أقف في وجه العدوان الداخلي والخارجي، وأبقى وفياً حتى الموت للقوانين المجرية. وساعدني يا رب كي أصون عهدي هذا. عندئذ تمتشق السيوف عالياً، ويبدأ ممتشقوها مسيرهم في نظام منضم منادين بأعلى ما تجود به حناجرهم «بالروح من أجل الوطن». وأخيراً يلقي الخريج الأول للدورة كلمته الاحتفالية لينصرف الجميع بعدها إلى الغداء الاحتفالي المتضمن تناول كئوس الشكر - والذي يرسب - سألت آنا - ما الذي يحل به؟ - عندنا لا يرسب أحد - أجاب هابتلر. الأغبياء منهم يرسلون إلى الريف ضباط خدمات - وأنت! ما عملك - سأل الحذاء - قل لنا أرجوك. هل تحرس المتحف من سرقة ضباط الجيش لمقتنياته؟ صمت لحظة ثم قال:

- القسم الذي أعمل فيه يتطلب شخصاً متزناً. وليس من قبيل التفاخر أن أعترف بأني أسلم كل دخلي لزوجتي. إضافة إلى وظيفتي في القسم أعمل في السوق كذلك. لا أتناول النبيذ إلا في الأعياد الكبرى، وباعتدال. ولا أضعف أمام المغريات لأني لا أمد يدي إلى ما ليس لي. وظيفتي تتطلب تفكيراً متزناً. ولكي أوضح هذا أضرب مثلاً عملياً من الواقع. إن السيد المقدم أرسل عسكرياً إلى المحطة الشرقية لنقل حقيبته إلى شارع «الطاحونة الأسطوانية». أخذها العسكري بالتاكسي وقدم

Telegram: somrlibrary

للمقدم الفاتورة. انتاب السيد المقدم غضب شديد وقال: شيوعي. وطلبه للتحقيق. وعندما سئل العسكري كيف تجرّأ وصرف أموالاً للمقدم على تاكسي. أجاب أنه لم يستطع نقلها بالترام. ولكن هذا طبعاً ليس مبرراً. فلو جرت معي هذه الحادثة – لن أقوم بهذه الفعلة الحمقاء ولو تطلب مني تنفيذ المهمة الجهد الكثير. يتضح من هذا أن العسكري، لا أتجنى عليه وأدعي أنه شيوعي، فقد لا أكون محقاً – لم يسلك السلوك السليم – أجل – قال الحذّاء. وبنظرات هازئة رفع عينيه إلى هابتلر يانوش – تأخر الوقت – حان وقت النوم. وخلال دقيقتين انصرف الجميع إلى النوم. وحدث في نهاية الصيف أن طفقت ماريا بيك تشتم زوجها بطريقة تفوق الوصف بسبب «آنا» زوجة كوفتش. فقد صرف بعد ظهر اليوم أن وقعت عيناها عليهما معاً في الغرفة. كانت ابنتاها تصطافان في «بروغتش» وكان ابنها في سينما «شمس» في شارع «المرأة السعيدة». وكانت غيزيكا مازالت هذا الوقت تتابع بانتباه ودهشة، ساعات بطولها المرضى في مصح «رينجر» تسمّر هابتلر شاحباً. ووضع ماكينة الحلاقة على الطاولة وحاول إسكات المرأة. توسل إليها أولاً أن تعود إلى عقلها. وألا تصرخ. وكعادته أثناء نوبات فجورها كرر أنه شخص هادئ مسالم لا يحب الفضائح، وليس من طبعه أن يؤذي حتى ذبابة، لكنه إذا أخرج عن طوره فسوف تحصل كارثة. ولكن حديثه زاد من شتائمها فوصفته بأنه حقير كذّاب.

– اسكتي بحق الله من الأفضل لي أن أذهب. أن أفارق هذا العالم.

– ستذهب؟ وتأخذ معك تافهتك السوداء.

فتل هابتلر شعر المرأة الأشقر، وألقاها أرضاً ثم أشبعها بالركلات حتى أشفى غليله.

Telegram: somrlibrary

– أترين ما الذي يفعله بي سيدي! – صاحت ماريا بيك.

– بسببك أيتها العاهرة السوداء. واندفعت مسرعة إلى باب بيت كوفتش تلطم زجاجه بقبضتيها لاعنة شاتمة بأعلى صوتها الزاعق.

ولوت آنا كوفتش على نحو هستيري، معلنة أنها ستقضي على نفسها. فأخذت تفتح دروج المطبخ، لكنها لم تصادف إلا الملعقة الخشبية، ارتدى هابتلر ثيابه الرسمية السوداء، ووضع قبعته السوداء المذهبة الأزرار. وخرج، رجع بعد يومين، كان ثملاً، متعباً، قادته ماريتا بيك إلى السرير وأطبقت ستارة النافذة.

– هدوء يا أولاد. ابوكم مريض.

في تشرين «أكتوبر» من عام ١٩٣٦ بدءوا يفككون البراكات، وأعطي السكان أربعة عشر يوماً للمغادرة. بكت النساء. بينما راحت مجموعات الرجال هنا وهناك تندب حظوظها. وكان رجال الشرطة يتجولون مثنى في كل مكان ووقع القلق في نفس هابتلر حين تذكر أجور السكن العالية. إضافة إلى أن سوق البيع قد انتقل بعيداً إلى شارع «كفاشي» فلم يعد بالإمكان ارتياده فجر كل يوم لجلب البطاطا والفاكهة.

بعد ليال عدة لم يعرف هابتلر خلالها طعم النوم، قصد العقيد فيلموش الذي نوره بفكرة هائلة. قال: عليه أن يشرح للعميد الجديد حالته السيئة وما آل إليه وضع أسرته وإنه يأمل في العمل بمطعم الضباط. وأن يسمح له بأخذ بقايا الطعام إلى بيته. وسمح له قائد الأكاديمية الجديدة بذلك. أخذها الضحك حين سمعت ماريا بيك بالخبر الجديد.

– سنعبئ كروشنا – صاحت – ونلتهم ما طاب من الكاتو بالكريما.

Telegram: somrlibrary

وبيدها البشعة ذات الأصابع العقفاء طبشت كأساً بالأرض. حتى في المساء الأخير، قصد الجميع مطعم «كريست». وشربوا وغنوا. وثمل كوفتش كالخنزير. هزّ قبضتيه وشتم الوطن الحقير. وبعدها ارتمى فوق الأرض المتسخة، دافناً وجهه بيديه يبكي بحسرة. كانت في الجوار حانات لا تحصى. وكلها متشابهة طبق الأصل. كان مرتادوها من العمال. يشربون ويهذرون، ويتجادلون حاشرين أنوفهم في كل شيء. ولكن حانة «هارفش» تميزت عن جميعها. ليست بمحتوياتها من أثاث ومصباحها الزجاجي القذر، ونوعية النبيذ الذي يقدم فيها، هي التي ميزتها. فالزوار هنا/ أيضاً يهذرون ويشربون ويتجادلون ويناقشون جدياً السبب الذي جعل «شابات بيلا» يشرب الغاز. وكيف ربح أشتفان هيرش المال في سباق الخيول. ومن الذي تسبب في جنون«يولى تشالا». ولا يكفون عن كل هذا أيضاً حتى يعلن نادل الحانة عن إغلاقها وينهر من فيها بالمغادرة. بل إن الذي ميز حانة «هارفاش» عن غيرها من الحانات أنها كانت مستقراً يؤمه العم «رايش» مغني الكنيسة. ما إن يطأ بأسماله عتبة الباب حتى ينقلب مزاج النادل النكد وتبرق عيناه تهليلاً لقدوم الوافد. ويكون قد أعد سمك الهرينغ – والبصل المخلل، وعاير النبيذ بماء الصودا. وما إن ينتهي العم «رايش» من عدّ النقود على طاولة الحانة، حتى يبدأ شحوب وجهه فيستند على منضدة الحانة الطويلة، ماجاً سيجاره الرخيص. ثم يبدأ بعنجهية العارف كل شيء، شروحه المختلفة، كيف لا تخطئ الطيور المهاجرة اتجاهاتها في رحلة الهجرة، وكيف كان شكل بانيو كليوباترا، كيف يلتقي مستقيمان متوازيان في اللانهاية.

وذات مرة صاح نادل الحانة:

– لو تقول لنا من الذي سرق أموال الكنيسة اليهودية؟

Telegram: somrlibrary

احمرّ وجه العم رايش.

– ليس مستحباً أن توجه إليّ أسئلة كهذه – ليس مستحباً؟ ما الذي تفعله في المقبرة؟ تنقطع الغوغاء في الحانة العابقة بالدخان.

– فعلاً، فعلاً.

حدثنا عن هذا أيها المغني.

حملق في حشد النابحين ثم قال غاضباً:

– بأي حق يجرؤ أي كان على اتهام مواطن؟

هل هذا من آثار المؤامرة الألمانية.

أنا لا أسمح بتوجيه أي تهمة لي. صحيح.... أنا أيضاً... أكلم الناس في المقبرة... لكت صرت أنا أيضاً من أصحاب الكرم الأجواد.

جلس إلى الطاولة وكرع كثيراً من النبيذ. وكان يطلب رغباته بأعلى صوته. حاسب عن الجميع، غنى، وعانق «هيرش أشتفان» وقال ليولى تشالا – إن الله في عوننا حتى في الظلام. صفق الجميع. ضحكوا. وخيم في الحانة المفعمة بالدخان جو المرح، حتى تعب العم «رايش» وأحنى رأسه فوق الطاولة إلى حين الإغلاق. حمله «هيشر أشتفان» إلى البيت. فتحت «كاتو» الباب واستلمت العجوز بما يفوح منه من روائح العرق والنبيذ. وقادته إلى السرير الهزّاز. قال رواد حانة «هافارش»: إن هيرش أشتفان واقع في حب «كاتو رايش». هنا تدخل النادل بالحديث: – هيرش أشتفان يريد أن يجلس الفتاة في أحضانه ليس إلا. ولا ينوي أي شيء آخر. لم يستهجن الحضور ما قاله النادل. واعترفوا أن من أمنيات أي رجل قاطن في شارع «ناج فورفاروش» أن يجلس الفتاة في حضنه.

Telegram: somrlibrary

كانت «كاتو رايش» فتاة جميلة صعبة المنال. وقد استهواها هابتلر يانوش الابن، فتى جميل، ولا يمتاز بأرجحية عقلية ما. فقد كان نوعية عنيدة لا يكبح جماحها. إذا ما اثيرت حفيظته لا يتوانى عن استخدام قبضته في لكم حتى الجدران التي تجاوره. وعندئذ يأخذ بالزئير بأعلى حنجرته. في بداية أعياد الربيع. حين تناول المتدين (المعتدل) الكعك، واشترى بطاقة دخول إلى الكنيسة بـ(بنغو) ين اثنين، رجته «رايش كاتو» أن يتزوجها وستكون زوجة مخلصة له. و لم يكن أي معنى لعرض الزواج هذا، أمام الفروق الطائفية التي أغلقت كل إمكانية لذلك، والتي وضحها هابتلر يانوش الابن، وأفاض في الحديث عنها، ذات يوم ربيعي جميل. في هذه الأنحاء لا تتشابه الحانات وحدها. بل تتشابه بيوت الاستئجار كذلك. فهي في الغالب تتألف من ثلاثة طوابق ولكل طابق مرحاضه المشترك وبابه النابضي ذو الصرير. وفي غرفة بمطبخ، في الطابق الثالث من أحد بيوت الأجرة السكنية هذه، قطنت عائلة هابتلر البهيجة. كانت الأسرة مترفة. مائدتها عامرة لا تخلو في يوم من الدجاج والإوز، ويجلس حولها، دونما تفرقة في المرتبة الاجتماعية أو الطائفية، الجيران والأقارب، والمعارف البعيدون والقريبون، وحتى الشحاذون الذين يعرّجون يومياً على هذه الأنحاء. أنجز «شابت بيلا» طلاء الغرفة الجديدة. وقسمت حسب رغبة ماريا بيك إلى نصفين، يفصل بينهما جدار خشبي شقت عليه نافذة وباب صغير. استقر في القسم المطل على الشارع الأثاث الذي جاء هدية من رئيس الأساقفة «تاوبنغر». الخزانتان، الطاولة، السريران فيما بين طاولتين عليهما كلوبان. واحد من السريرين عليها هانيلكا وأستر. إضافة إلى طاولة وكرسيين وموقد، وصندوق هابتلر العسكري أخضر. وفي الركن على الرف اصطفت برطمانات رب البندورة والمربى، ومخلل الخيار التي ضاق بها سقف الخزانتين كذلك. كانت غيزيكا تستيقظ في الساعة الرابعة صباحاً

Telegram: somrlibrary

لتذهب إلى عملها في مصنع النسيج المجري، تنظف سجاجيده، لقاء تسعة بنغوات أسبوعياً. وعمل ياني متدرباً على المخرطة في أحد مصانع الحديد في «أنجل فولد» (أرض الملاك). والفتاتان الصغيرتان في المدرسة التحضيرية في شارع «تشوبانس». وفي البيت في الممر تلعبان دور الحورية «إلونا» وتتشاجران في الغالب.

وتتخامشان بالأيدي حتى يسيل الدم. ماريا بيك في المطبخ تقوم بغسيل البياضات التي يحضرها هابتلر من الثكنة. ومن الربيع حتى الخريف كانت الأسرة، كل أحد، تخرج بصحبة الجيران والمعارف للنزهة في حديقة «الشعب» (نيب ليغات). يضطجعون على العشب والأطفال يتراكضون ويتأرجحون، أو يوقفهم وجه المرج الممرغ بالطحين. كانت غيزيكا فتاة جميلة. عيناها صافيتان، فاتحتا الزرقة ورمشاها غامقا اللون وشعرها برونزي. هيفاء القد، صدرها مكتنز وجميل. كانت ترتدي ثياباً مزررة ضيقة، حين خاطبها لأول مرة في حياتها رجل. كان شاباً اسود الشعر، ناصع الأسنان، قد أحسن اختيار ما يرتدي من ملابس. قال لها إنه موظف في أحد مصانع المعدات، وهو ملاكم، أحرز ثلاث ميداليات أبرزها للفتاة. بعد يومين شاهدته غيزيكا قبالة النافذة يتمشى بثياب بنية فاتحة وربطة عنق حمراء نارية، صاعداً، نازلاً أمام جدار الكنيسة اليهودية الرمادي. نزلت إليه برفقة «كاتو رايش». تمشى الثلاثة وتحدثوا إلى أن ودعتهما كاتو راجعة إلى البيت، فذهبا إلى سينما «فونيكس» حيث تبادلا قبلاً في العتمة. بعد ظهر السبت أحضر الرجل بطاقة سيرك. دعته غيزيكا إلى البيت، كان هابتلر، وكالوز، والحذّاء يلعبون الورق ويحتسون الكونياك. وكانت آنا كوفتش قد أدارت الفوتوغراف فلعلعت مقطوعة (لاكوكالاجدا). فرقص هيرش أشتفان مع رايش كاتو، بينما كان «شابات بيلا» يجادل «ياني» في مباراة كرة القدم، كانت «يولى تشالا» جالسة فوق صندوق

Telegram: somrlibrary

القمامة تأكل فخذ دجاجة والفتاتان تلعبان قرب خزانة المطبخ، بعلب الكبريت الفارغة. قدمت ماريا بيك للرجل كأساً من النبيذ.

– كم عمرك؟ – سألته.

– خمس وعشرون – أجابها الرجل.

– يبدو عليك أنك تجاوزت الثلاثين – قالت ماريا بيك.

– احذري يا ابنتي. للرجال أرواح ثعالب.

بعدئذ انطلقا إلى السيرك وبعد العرض، وعند طرف غوطة المدينة امتدت يده تتلمس تحت التنورة. دفعته غيزيكا عنها وأسرعت إلى الترام. وبعدها كرر الرجل مجيئه عدة مرات، ذهبا فيها إلى السينما. وفي طريق العودة إلى البيت تبادلا التقبيل عند مداخل البنايات كلها. وكانت النهاية حين صفعت ماريا بيك غيزيكا ومن يومها اختفى العاشق إلى الأبد. قالت غيزيكا لكاتو رايش – كم أحب التقبيل. كانت أمسية خريفية، وكانتا أمام مطعم عائلة هابتلر، فأجابت كاتو رايش: – لم يقبلني أحد بعد. ولكن أولاً وأخيراً سأكون زوجة لأخيك الأصغر. فليكن هو الأول. هذه رغبتي.

– لا يجوز أن تفكري هكذا – قالت غيزيكا بهدوء.

أجابت كاتو: إن أراد أن أصير مسيحية. سيبكي أبي. لكنني على استعداد للذهاب إلى القس وأصير مسيحية. عندئذ يحق لنا أن نتزوج، وألد له صبياً كما يرغب.

عانقتها غيزيكا. وساد الهدوء.

في أواخر الشتاء، وقعت غيزيكا في حب «سوتش بيلا» السائق

Telegram: somrlibrary

الشاب في مصنع «كراور» ومن مواليد «أوغفان». يتيم الوالدين، يسكن مع أخته في شارع «هوموك». أحب «سوتشبيلا» غيزيكا هابتلر. تلاقت العيون. وتعانقا، في ظلال الشواهد في مقبرة «كرشبشي». كانت تهب رياح تحمل شذى الأكاليل. كانت غيزيكا سعيدة.

قالت لرايش كاتو: – ذهبي الشعر. له عينا غزال.

حين ترقت غيزيكا وعملت على آلة النسيج صار دخلها الأسبوعي ثمانية عشر بنغواً. وقررا الزواج. ولم يتيسر أمر بيلا سوتش حين تقدم بطلب يدها. كانت ماريا بيك منهمكة في الغسيل لما بادرها بالتحية العاثرة: يوماً سعيداً. عدلت ظهرها فوق الطست، وتركت كل شيء من يدها. مسحت يديها الدميمتين وأصابعها العقفاء ورمحت عيناها الزرقاوين نحو الشاب. قالت:

– سأناقش الأمر مع ابنتي. ولم تسمح له بدخول البيت. كانا يلتقيان سراً حتى التحق «سوتش بيلا» بالخدمة العسكرية في ثكنة «ماريا تريزا». تبادلا خلال عام منها الرسائل. خلال ذلك أغرم هيرش أشتفن بغيزيكا. وكان كل يوم يجالس ماريا بيك في المطبخ. قال: إنه سوف ينتحر إذا تزوجت غيزيكا أحداً غيره. كانت هداياه. برتقالاً. بطاقات سينما. وكان يبدي احتراماً لغيزيكا بلغ حد الغباوة. وذات مرة وقعت عينا ماريا بيك على رسائل سوتش بيلا في محفظة غيزيكا. فأشبعتها ضرباً. في الربيع مرض سوتش بيلا، فزارته برفقة «كاتو رايش» في المشفى وتحادثا في حديقتها.

– غادري بيتكم – قال الشاب

– وسأتزوجك

Telegram: somrlibrary

– لا يمكن لي أن أترك أهلي – أجابت الفتاة.

– انت جبانة. انصرفي. لا أريد أن أراك ثانية.

وظل هيرش أشتفان يجلس في المطبخ ويتحدث مع ماريا بيك.

وغالباً ما كان يصطحب غيزيكا إلى السينما.

قالت غيزيكا ذات مرة لكاتو رايش: – مثل هذا المجنون لا يجرؤ حتى على لمس يدي. وبعد ايام مساء وقف هيرش أستفان تحت ضوء مصباح الشارع وصاح:

– أنت! أريد أن أقول لك شيئاً.

– هيا! قله.

– بالأحرى أريد أن أعطيك شيئاً.

– هيا أعطنيه.

– أغمضي عينيك. أغمضت غيزيكا عينيها. فأعطاها أشتفان قبلة أقرب إلى زاوية فمها. لم تكن الفتاة تحبه. وجدته بارداً مملاً وكانت تجهر له بذلك غالباً. في عيد الفصح عام ١٩٤٠ تزوجت هابتلر غيزيكا من هيرش أشتفان. نزولاً عند إلحاح والدتها ماريا بيك. وعقد قرانهما. أديا قسم الوفاء الأبدي في الكنيسة الإصلاحية في ساحة «ناج فارو» وعند المصور كانت رغبة زوجها القصير القامة أن تخلع غيزيكا الحذاء من قدميها أثناء التقاط صورة الزفاف التذكارية. حضّرت ماريا بيك السمك المقلي وحلويات القريش. وشربوا وغنوا حتى الفجر. وفي كانون الثاني «يناير» صادفت غيزيكا سوتش بيلا. كان الشاب منتظراً عند المدخل في شارع هولك. وكان الثلج يكسو شعره وجفنيه. لم

Telegram: somrlibrary

تكلمه. و لم تلق التحية. لكن في المساء قالت «مدام هيرش أشتفان» لكاتو رايش:

– لا بد انه قد أحبني... بل لعله سوف يتخلى عني... ما أجمله... كنت أخافه من أعماق روحي. وانحنت تزود الموقد الأسطواني بكمية كبيرة من الفحم. وإثر آلام شديدة في شباط «فبراير» نقلت الابنة الوسطى «آستر» إلى مشفى الصليب الأبيض للأطفال. كانت تعاني من عجز عن تحريك يديها وجذعها. ناقش روّاد حانة «هارفاش» الواقعة قلقين. قالوا: يحتمل أن تموت. ابيضت أصابع يديها. كان رأي العم «رايش» مختلفاً. أكد أنها ستتجاوز محنتها لأن «أستر» كانت تتغذى جيداً. بكت تشالا يولى. وقالت إنها ستصلي من أجلها. فهي تصلي مرتين يومياً. صباحاً وقبل النوم. تتضرع إلى الله أن يرزقها طفلاً سليماً وأن يحفظ «فارغاشاندور» في كل خطوة يخطوها. ويبعد أذية البالينكا عن معدة العم رايش. ضحك الجميع.

– ومن هو فارغاشاندور؟ – سأل نادل الحانة

– هل هو والد الطفل؟

– إنه خطيبي – قالت يولى تشالا

– يأتي كل أسبوعين من غوطة هورتي. إنه يعمل هناك. شخص اقتصادي. ادخر حتى الآن ستين بنغو. وحين سنملك المال الكافي سنطلي غرفتي ونجهزها بسرير مريح، وببعض الحاجات الضرورية. ونتزوج.

– وأنت ماذا تعملين؟ سألها بيلا شابات.

– أنا أسأل لأني أعرفك. إنك خنزير كسول. هزت تشالا كتفيها.

Telegram: somrlibrary

– أنا لا أحتمل الأعمال الشاقة – قالت بهدوء

– حاولت. كنت في الحال أتصبب عرقاً. وأدوخ. ويدور معي كل شيء.... فيصرفونني إلى البيت، من مصنع العلب. ذات مرة طلبت من العم باتشي أن يفعل لي شيئاً لأنه على احتكاك بأفضل البشر.

– صحيح – قال العم رايش – صحيح تماماً. وأقسم أنني سأتابع محاولاتي. مع المدير شخصياً.

في أوائل آذار «مارس» أمن العم «رايش» لها عملاً في شركة أنشئت حديثاً. حصل ذلك حين كان على مائدة مدام «كالامون» الأرمل، يتناول الغداء إلى جانب د. «آرنوفايدا» الذي تمنى له العم رايش شهية طيبة. وعرّج بعدها يتحدث عن بؤسه. رمقه الدكتور عبر نظارتيه واقترح عليه، بكلمات مقتضبة، حاسمة، عملاً في الشركة الجديدة لقاء عشرين بنغو في الأسبوع.

رشح العم «يولى تشالا» ممتدحاً مهارة الفتاة العالية، شارحاً حالتها البائسة. وفي البيت نصحها العم «رايش» أن تبتكر طريقة تبعد فيها شبهات الدكتور عن أنها حامل. في لقائها الأول به على الأقل. وبما أنها لم تستطع أن تشد بطنها، فقد وعت أن تحركاتها لن توحي للدكتور بأي شيء. مثل هذا الحديث جرى يوم الأربعاء.

صباح الخميس قصدت تشالا مكان عملها. كان الدكتور فايدا عند المدخل. فقادها إلى الباحة. ودلّها على الورشة ثم رجع إلى المدخل من جديد. بنيت الشركة من الألواح الخشبية. يوضع في وسطها حوض معدني، محاط بصناديق فارغة. تعمل قرب أحدها امرأة عجوز تقشر بذر اليقطين. وبين الحين والآخر تقهقه عالياً. وقد تبين لتشالا فيما بعد أنها ليست مجنونة، بل ثملة.

Telegram: somrlibrary

كانت «تشالو بريتاش» مؤسسة رديئة. ما إن تصل الشاحنة وينزلون حمولتها من (المبصقات) حتى يبدأ العمل. راقبتها تشالا طويلاً حتى تجرأت وطلبت من العجوز زجاجة البالينكا. شربت منها بعينين مغمضتين تتلذذان. ثم طوت كمى بلوزتها حتى المرفقين، وعكفت على العمل.

مع مرور الوقت أفرغت العاملتان الزجاجة. ضحكتا. وغنتا كثيراً عصر يوم السبت دخل «فارغا شاندور» إلى الورشة. كانت تشالا مستغرقة في العمل. منكبة ببطنها المتضخم فوق الحوض، حين نبهتها العجوز إلى قدوم الرجل الذي بدأ يتقيأ، مشيرة بأصابعها الملوثة ناحية الرجل. واستغرقت في نوبة من الضحك، مسحت تشالا يديها بثوبها، وانتفضت بحركة متثاقلة، قافزة نحو الحوض والصناديق، وفي نيتها أن تسرع لتقديم المساعدة. لكن كان «شاندرو فارغا» قد اختفى.

عصر ذلك اليوم اجترعت «تشالا يولى» كثيراً من البالينكا في حانة «هارفاش» كانت ثملة تماماً. لم تبك، لم تصرخ. بل استندت بمرفقيها فوق الطاولة. وبدأت الطاولة تدور بكل ما فيها. فاندفعت إلى البيت. لكنها وقعت في ساحة «ماتياش» أرضاً. تجمع الناس ورفعوها فوق المقعد. وهرع صوبها رواد الحانة يحدقون مذعورين. لكنهم لم يتمكنوا من تقديم العون فيما يخص آلام المخاض. عانت من أوجاع شديدة. زعقت. شدّت شعرها. عضت أصابعها. نهشتها. وصحح «هيرش أشتيفان» غير مرة وضع تنورتها. حتى جاءت سيارة الإسعاف.

جلس هابتلر يانوش الابن تحت شجرة أكاسيا. كان شاحباً، مشدوداً، يصر بأسنانه. لقد أغاظته الواقعة كثيراً. فراح يطلق الشتائم. والعبارات المبتذلة. يلعن بها تشالا.

Telegram: somrlibrary

– فلتفطس – صرخ

– أتمنى لها من كل قلبي أن تفطس

تقدم رجل أصلع الرأس من بين المتحلقين. وقال:

– ما الذي تقوله؟ انصرف من هنا وإلا دعوت الشركة.

ذعر هيرش أشتفان ورايش كاتو. فطلبا من الرجل أن يلزم الصمت. وألا يتفوه بكلمة أخرى، وأن ينصرف بروح طيبة تجنباً للمشاكل. لم يكن الرجل سميعاً. أنزل يد كاتو رايش عن كتفه وأفاض بالحديث.

قال: شاب مثل هذا ينبغي تلقينه الدروس وتربيته. من أمثاله ينشأ المجرمون.

عندئذ حملق الشاب هابتلر يانوش الابن بعينيه الصفراوين واندفع من عند الشجرة. فشحب الرجل من الذعر.

– شرطة – صاح.

و لم يقو على الهروب. وبحركة، يبغي منها الدفاع عن النفس، رفع قبضتيه إلى أمام صدره. جاءت لكمة الشاب في رأسه. أطاح به على الأرض وأوسعه ركلاً. و لم يتمكن حتى الشرطي إلا بصعوبة من ردعه عنه.

اقتيد هابتلر يانوش الابن إلى مخفر الشرطة في شارع «فاتسي» دون أن يبدي مقاومة، أو يبدر منه حرف. وفي المساء، حين أطلق سراحه، كانت كاتو رايش بانتظاره عند ناصية شارع «يوجف» تمشيا حتى ساحة «ماتياش». جلسا على مقعد هناك، يرنوان إلى أطفال الغجر القذرين، المرحين. فيما بعد سألت كاتو رايش عن عقوبة الحادثة. أجاب الشاب:

Telegram: somrlibrary

– ربما غرامة مقدرها ثلاثون بنغو، للأسف.

– الأهم ألا يصل الخبر إلى البيت – قالت بوجل

– أنت تعرف أباك. سيظل حزيناً لأيام.

وفيما بعد جاءته نوبة الغضب ثانية. اشتعلت عيناه، شتم تشالا واصفاً إياها بالخنزيرة السكيرة اللعينة. وضرب بقبضتيه المقعد فانقشرت جلدتها وسال الدم.

– من غير المعقول أن تنجبي وأنت على هذه الحال – صرخ

نحن بشر. لا أحد يفعل ما تفعلينه أنت. كيف تنجبين ولداً وأنت ثملة دائماً، مثل الخنازير، الطفل الطفل.

ثم صمت.

فتح قبضته. رأته كاتو رايش يبكي. لكنها لم تجرؤ على لمسه، كانت أمور هابتلر يانوش الابن، في العمل، على خير ما يرام. نشيط متحمس. وغالباً ما كان هيرش أشتفان يسأل زملاءه، مطمئناً عليه. كان الجميع يتحدثون عن الشاب بارتياح.

وفي وقت راحته أحضر لـ «شابات بيلا» العربة وفيها كل ما يلزم لطلاء الغرفة. فرشاة، طلاء، وساعده في تقشير الجدران وتنعيمها وطبخ له الغراء. ورافقه في العمل مناولاً إياه العدة.

رايش كاتو أحضرت لهما العشاء الذي أعدته ماريا بيك، ورتب الأجر متوافقٌ مع حجم عمله، وحالة مزاجه الراهنة. وحين أطفئت الأنوار وأغلقوا البيت، وانصرف «شابات بيلا» إلى حانة هارفاش ظلا يتحدثان. قال الشاب:

Telegram: somrlibrary

– لو عملت وحدي لأنجزته بشكل أجمل وأسرع. أمسك يد الفتاة. وجلسا على الدرج. تابع الشاب:

– أتصدقين؟ أعرف كيف أدهن الصالونات والبيوت الواسعة، بحيث تبدو، بالأزرق والرمادي، لماعة ومضاءة دون الحاجة لمصابيح.

– اقبلني – قالت بهدوء –

وإذا شئت سأرتدي ثياباً زرقاء فاتحة بشرائط رمادية.

غضب الشاب:

– لا أرغب أن أؤذيك. أبداً. لكنك تضايقينني. لا أريد أبداً أن أجرحك. لا تجعليني أضطر في اليوم التالي لأن أتشاجر مع أي شخص أصادفه. لذلك. أرجوك تحدثي عن شيء آخر.

– اسمعني أنا حريصة جداً على كل ما تقوله... في السنة الماضية قلت لي في المحطة الكهربائية أن شعري مليء بالقمل. بكيت طوال الليل، قصصته عن آخره، أترى كم أحبك. وخفت بعدها أن تغضب مني ولا تكلمني.... نحن سعداء معاً، ولو لم أكن أكيدة من ذلك. لا أقوله. وسيكون طفلنا جميلاً.

– أنا لا أتزوج فتاة يهودية. لدي فكرة سيئة عنهم. ولا يمكن أن أحبهم مطلقاً. لست وحدي من يحمل مثل هذه المشاعر. إنها لدى الجميع.

ابتسمت الفتاة دامعة.

– لم أكن أنا على جبل الزيتون. هنا ولدت في شارع «فورفاروش» برقت عينا الشاب باصفرار

Telegram: somrlibrary

– أقصد شيئاً آخر، القذارة تبرقع ثياب أختي الصغيرتين. كل يوم يعودان من المدرسة تكون بينهما «ماسا ستيرن» و «روجي فايس» وبنت «شليشنغر» ويمكن أن أذكر أكثر من هذا العدد. أنا أمقتهم. وأتمنى لو أرميهم بالحجارة. ماذا أقول لك. إنها ركام من القذارة، أفواه مزبدة، أحذية مفتوحة. وأم هؤلاء ضخمة كالخنزير. تجلس في المحل، وتعطي هانيلكا وأستر كعكة متسخة بالبراز. أنا أمقتهم.

ظلت صامتة. لم تبد أية حركة. صمتاً كثيراً. حتى سألها الشاب بعصبية:

– ما الذي أحزنك؟ إذا ما تجرأ أحد على إيذائك سأطفئ ضوء عينيه. وبيده القوية أمسك وجه الفتاة. وأداره نحوه:

– أتصدقين؟ هزت الفتاة رأسها وانفجرت في بكاء صامت.

كانت ترافقه لحضور مباريات الكرة كلها. وكانت مهمة صعبة عليها. من مكانه في الدرجة الثانية ينفعل ويشجع نادي «فاشاس»، ملتهب الجوارح، متطرف الانفعال حتى النهاية، قال لها إنهم يضغطون على فريقه، وينحازون ضده لأنه نادي عمال منشق، وكم أفسد للفتاة البهجة أنها ترافقه بعد كل مباراة. ومرة في نشوة الانتصار الذي حققه ناديه «فاشاس» في التصفيات كسر ساعة يده التي عليها هدية بمناسبة تأصيل عماده ولكنه أقدم في شارع «لاتونريسام» على فعلة أكثر خطورة، ففي مباراة (فاشاس – بيسكارت) فقد السيطرة على نفسه، وثار زاعقاً في وجه حكم المباراة.

– انتظر أيها الحيوان القذر. إذا دخل الروس ستنطلق صفارتك بشكل آخر. انكمش الناس من حوله ولزموا الصمت بينما عانقته كاتو رايش والتصقت به وجهاً بوجه، وصارت تبكي متوسلة، راجية إياه أن

Telegram: somrlibrary

يكف عن مثل هذا. أشفق الناس على الفتاة، وأقنعوا الشاب بالكلمة الطيبة أن يوصلها إلى البيت.

وفي حزيران أخرجت «أستر» من المستشفى، نحيلة شاحبة، لم تتحسن صحتها تحسناً يذكر. كان العسكري هباتلر يحملها على ظهره كل يوم إلى حيث تتلقى المعالجة الفيزيائية بتحريك مفاصلها وتحصل على حقنتها المؤلمة. كانت ماريا بيك تعمل كثيراً. حتى تحقق للبيت المزدحم بالأسرة الكبيرة الترتيب المأمول. الطهي، وحده، لم يسبب لها أية معاناة، لأن العسكري كان يحضر الطعام من أكاديمية لودفيكا، وغالباً ما كانت هانيلكا تترقب قدومه عند الباب لتأخذ منه الأغراض.

وكان دخل هيرش أشتفان كبيراً، يزيد عن خمسين بنغو في السبوع كان يعمل في مصنع الأدوات الدقيقة المجري في شارع «نهير ماري». قيل عنه إنه موهبة نادرة ويتمتع بعقل راجح ومهارة كبيرة. كان معجباً بيديه، طويلتين كانتا اللتين جميلتين يخصهما بعناية دائمة، ويلعب بهما ويلوح أثناء الحديث دعماً لآرائه. وبعد زفافه على غيزيكا سأل امها أن تحسب كم سيدفعان من نقود في البيت كل شهر.

ضحكت ماريا بيك

– نحن نعيش في هذا العالم، دون حساب. عندنا يأكل كل أفراد المبنى، هل تظن أنني سأطلب منكما نقوداً.

عاش هيرش أشتفان بهدوء. بعد العمل ينزل إلى الحانة. يتحدث قليلاً إلى جانب كأس من النبيذ ويعزف كل مساء على آلة «الماندولين» أغنيته المفصلة. فتاة هاواي. لها الحب الكبير.

Telegram: somrlibrary

ذات عصر كان مستلقياً فوق صوفة حين سألته يولى تشالا إذا ما كان راضياً عن غيزيكا.

حرك كتفيه وقال:

– لا مشكلة معها. لكنها أحياناً تثير أعصابي. تشرد أحياناً. وتصير طرشاء. وعليّ أن أعي الفكرة مرتين.

قالت تشالا:

– عليك أن تربيها.

نهضت أستر من سريرها في الطرف الآخر للغرفة. وخرجت إلى المطبخ وسردت لأمها ما سمعته من حديث. وفي الحال طردت ماريا بيك تشالا من البيت وسألت هيرش أشتيفان.

– ابنتي أنا تغتابها مع تافهة مثل تشالا؟ احذر يا أشتفان هيرش. احذر جيداً. أنت لا تعرف ماذا يخبئ لك القدر.

لم يجب. فيما بعد نزل إلى حانة هارفاش، أحضر نبيذاً مزاً. قبل يد ماريا بيك وطلب منها الصفح. في آب من عام ١٩٤١ اشترى كوخاً من غرفة واحدة في «بشت أرجيبت» على شاطئ الدانوب، وقارباً مستعملاً يتسع لشخصين.

في أو تشرين الأول دعي إلى الخدمة العسكرية في قسم الرماة. طهت ماريا بيك الدجاج والكعك، وأعدت الصندوق العسكري الأخضر. وفي الساعة السادسة صباحاً رافقته غيزيكا وأخوها ياني إلى شارع منغاريا الدائري حتى باب ثكنة الغروف أندراشي، النبيل. استطاع منذ الأسبوع الأول أن يأتي إلى البيت، ليؤمن لقائد الحرس حجر الصودا الكاوية. ساعده بذلك العم رايش.

Telegram: somrlibrary

رافقه إلى تاجر الجملة الشهير «مور برغر»، وهناك عقدوا صفقة أخرى رابحة، بنسبة ربح كبيرة باعه التاجر الشوكولاته، والعصير، والسكريات، وفراشي الحلاقة، والمعاجين. وصار هيرش أشتفان يبيعها للجنود بربح مناسب، وهذه التجارة شكلت إزعاجاً طال أمده ليانوش الابن الذي كان يحمل شنطة البضاعة لصهره. وما لبث أن ترقى هيرش أشتفان فصار كاتباً في مكتب قطعته العسكرية، وأصبح توقيعه مثل قائد قطعة، ساري المفعول. و لم يعجب ذلك ماريا بيك.

– إذا كنت تريد أن تلبس بزة رسمية

– قالت بعصبية – فاعمل منظف مداخن

أجاب هيرش أشتفان:

– أعرف ماذا أفعل. ليست لدي رغبة في الذهاب إلى الجبهة.

في عيد القديسة «باربا لا» دعي جميع أفراد العائلة للاحتفالية، وفي باحة الثكنة صدحت معزوفات الفرقة الموسيقية وقرأ أحد الجنود منشور القديسة باربالا، وهو عبارة عن لفافة ورقية عليها ما يسبه أقوالاً شعرية طريفة ساخرة تمس واقع الجيش وتهدف إلى إقناع الحضور من الضباط والجنود.

في اليوم السابق لعيد الفصح قامت ماريا بيك بتنظيف كبير للبيت، وبدت من ترتيب محتوياته من أثاث. وهي عادة من عادات ماريا في كل عيد، بل من عاداتها في كثير من أيام السبت. ولو كان ذلك يتسبب في إغاظة أفراد الأسرة. والآن أيضاً لم ينج أحد منهم من المشاركة سواء في تحريك خزانة، أو طاولة أو سرير أو في تنظيف أرضية، أو نافذة حتى عجّ هواء البيت بالشوائب والغبار. الصغيرة هانيلكا ركلت غيزيكا

Telegram: somrlibrary

على ساقها. بكت المرأة الشابة متألمة وشكت أمها فعاقبت ماريا الاثنتين بالضرب.

– لا تضربيني على رأسي – صاحت هانيلكا

– اضربيني أينما شئت، ولكن رأسي لا.

بكت غيزيكا. تبعتها أستر. صرخ العسكري حائراً، ونادى الجميع أن يكفوا عن الصخب، لكي لا يظن الجيران أن ما حدث جريمة قتل.

راحت ماريا تشتم وتلعن، وانتابت «ياني» نوبة غضب فرفع قبعة أبيه وخبطها ورماها أرضاً.

في الحادية عشرة ليلاً لزم الجميع أسرته مرهقين. لم تنم أستر شدة فضولها. تسللت إلى الخزانة تبحث عن الكتاب المغلق بورق وردي ناعم. وتصفحته على نقر حبات الثلج في الليلة الباردة.

كان الكتاب «أزمان عظيمة، نساء عظيمات» لـ مدام دابييل لورا لانجل:

«إلى أخت زوجتي – مع فائق حبي – هيرش إشتفان»

اندست إلى جانب هانيلكا، ودست وجهها في الوسادة، ومع طغيان إحساسها بالخديعة انفجرت بالبكاء.

شجرة الميلاد ينصبها العسكري هابتلر كل عام فوق الصندوق العسكري الأخضر. ويقوم بتعليق زينتها. والفتيات يساعدن ماريا بيك في المطبخ. أحضر ياني الفحم من الطابق السفلي، والآن إشعال الشموع. قالت ماريا بيك غاضبة: اذهبوا وأحضروا تشالا لكي لا تبقى البقرة المنحوسة وحيدة في زريبتها الصغيرة.

Telegram: somrlibrary

ذهب ياني لإحضار كاتو رايش.

وفي وقت متأخر رن العسكري هابتلر الجرس، دخل إلى الغرفة وانتظروا أن يبدأ رب الأسرة الغناء بصوته الجميل.

«في عيد الميلاد المبارك لسيدنا المسيح....» ورددوا وراءه النشيد خاشعين ثم أشعلت الأضواء. ووزعت القبلات فيما بين الجميع، وراحوا يبحثون عن هداياهم تحت الشجرة.

حيث كانت ماريا بيك قد كتبت الأسماء على قصاصات ورق.

قاد ياني الفتاة إلى الغرفة الأخرى، قبلها وأخرج من جيبه علبة موشاة بشريط أزرق، كان فيها سلسلة ذهبية رفيعة بحلية رباعية الوريقات. وقدمت الفتاة للشاب ربطة عنق.

بعد أن فرشت الفتيات الغطاء الأبيض على طاولة رئيس القساوس «تاوبنفر»، بدأن يحضرن الصحون والأقداح. وأمرت ماريا بيك كاتو رايش أن تدعو أباها على العشاء.

- نائم - قالت الفتاة بهدوء - شرب روماً...

في هذه الأثناء يرتجف من البرد في المقبرة. ولكن بإلحاح من الجميع، قصدوا العجوز برفقة ياني وأيقظوه. خرج العم رايش منبسط السريرة من سريره المعدني، غسل وجهه، عنقه بالماء البارد. وألبسته كاتو رايش قميصاً أبيض وعلى عجل نظفت حذاءه الموحل، بشوشاً حيا العم رايش عائلة هابتلر وتمنى لهم أعياداً سعيدة، واعتذر لهم لعدم إحضاره أية هدية معه. وقال متوجهاً بالحديث إلى ماريا بيك:

- عرضوا لي مصباحاً برأس تنين. فكرت أن أحضره لك. لكن

Telegram: somrlibrary

عينيه أيضاً تضيئان. زرقاوان مثل مصابيح غرف المرضى. قطعة مخيفة، لم أجرؤ على شرائها... كل ما فيها يذكر بالموت.

قالت ماريا بيك:

– تشرب قدحاً من الروم ثم تحلم أحلاماً شوهاء كهذه.

احمرّ العم كعادته، وحاول أن يوضح أنه رأى حقيقة مثل هذا المصباح المخيف فضحك الجميع وخاصة أنهم يعرفون جميعاً «سحبات» العجوز الكبيرة.

سحبت ماريا علبة سيجار من تحت الشجرة وقدمتها للعجوز:

ضحكت قائلة:

– هذه جلبها المسيح لك، أيها العجوز الأزعر.

كان العشاء مرقة اللحم، ملفوف محشي، سمك مقلي وقريش، فطائر بالجوز. لحم الخنزير ودجاجة النبيذ وصلت من الأهل في بروتش. بعد الكأس الثاني ابتسم العم رايش وأفصح عن إيمانه بالسعادة وأن الروح لا تموت.

وضع ياني قدحه.

– قال /سورم/ لا يوجد عالم آخر. الأسماك تأكل البشر وينتهي كل شيء.

فكر العم رايش:

– كلام سورم خاطئ، يا بني. ربما صار مدفوناً ولكنه مازال حياً هذا المساء.

وتابع:

Telegram: somrlibrary

– قلت هذا لابنتي، مرات عدة عندما تكون حزينة أتحدث معها كثيراً عن مشاكل الحياة الكبرى.

نظر إلى الفتاةوابتسم. كانت عيناه العجوزتان تمتلئان دموعاً، بعد العيد أحضر المصباح الموعود لمصاريا. طلب خرقة قماش ومسح عنها الغبار ثم نصبها على الطاولة.

– هكذا... قال بصوت معتذر:

أعجبت الساعة العسكري وقال:

– هدية فاخرة. لا بد أن سعرها مرتفع. شكراً لهذه اللفتة الكريمة نك.

وضعتها ماريا بيك على طاولات النوم قرب السريرين. و لم تضئ عينا التنين، ولكنهما كانتا تبرقان. مع ذلك تعافت أستر. عاودت الذهاب إلى مدرستها. وبسبب خسارتها الوقت صارت مع أختها هانيلكا في صف واحد. كانت متوترة. إذا ما أثيرت سرعان ما تدفع برأسها بطون الأولاد. ولكنها في عام ١٩٤٢، ونظراً لاجتهادها وتهذيبها المتميزين حصلت على مائة وعشرين بنغو وهي المكافأة التعليمية التي قدمها مصرف الادخار في العاصمة. كان العسكري فخوراً فقبل جبينها قائلاً:

– شيء رائع منك

وبلغ به الزهو ليقول إنه لم يحصل في شهر واحد طوال حياته على مثل هذا المبلغ.

في مساء خريفي مات العم رايش. نعوه وقت الفجر. عجت المقبرة بالمشيعين. عندما أهيل التراب، وأنهيت عملية الدفن تقدم هابتلر يانوش

Telegram: somrlibrary

الابن من بين الحضور وأمسك يد الفتاة وغادرا المكان. وقفا في مدخل المقبرة اليهودية في «راكوش كرستوري». كانت الشمس تسطع دافئة. أنزل ياني قبعته ووزع نقوداً على الشحاذين.

– ابكي – قال لها.

ولمعت عيناه المصفرتان وهو يثبت نظره في وجه كاتو رايش. ثم مشيا أمام معمل البيرة، صعدا إلى الترام وفي ساحة تيسا كالمان في نهاية شارع المسرح نزلا. تسكعا وقتاً طويلاً.وعند الغروب وقف ياني على زاوية مسرح المدينة.

– ابكي – قال – إذا لم تبكي سأطرق رأسي بالجدار بكل ما عندي من قوة. سأفجه.

تلاقت عيونهما. اندست في صدره. وبكى الاثنان.

لافتة زجاجية سوداء تتصدر واجهة المنزل رقم (٢٧) في ساحة تيساكالمان:

بأحرف ذهبية كتب عليها «دوتيش هايم». كان يسكن الطابق الثالث مدنيون ألمان أنيقون. فما أن تقع عين هابتلر يانوش الابن عليهم في الشارع ويسمع كلامهم حتى يبهت وجهه من الغيظ، مرة لمح فتاة (سيئة) عاهرة برفقة ألمانيين فتبعها وراح يصر بأسنانه. لا يطيقهم. ولا يعرف سبباً واضحاً لكرهه لهم.

وحين اكتشف العسكري هابتلر أن عدائية ابنه تجاه الألمان تتفاقم شيئاً فشيئاً، بلغت حد شتمهم في الشارع بادره بالتدخل:

– قل لي متى ضايقك الألمان؟ هل سببوا لك إزعاجاً بأي يوم؟ حتى إنهم لا يفطنون إلى وجودك في هذا العالم. ولا تهمهم في شيء.

Telegram: somrlibrary

علماً أنهم يعيشون ببيتنا بكامل الحق وبموافقة الجهات العليا. لذلك أنا أحذرك. سد فمك قبل أن تقع في مشكلة.

لكن لم ينقطع الشاب عن شتمهم بل صار يشغل المذياع ليستمع إلى راديو روسيا.

في ربيع ١٩٤٣ اختلق مشكلة. ففي الخامس عشر من آذار «مارس» بث راديو موسكو ضمن برنامج احتفالي من برامجه بعض الأغاني المجرية القديمة، واستمع بعدها إلى المذيع يقول إنه في عام ١٩٤٨ كان قيصر روسيا هو شرطي أوروبا وهو الذي هرع لمساعدة الجيش النمساوي. والآن يحل محله هتلر، والألمان والفاشيست.

في اليوم التالي، ومن باب التفاخر زود بمعلوماته الطرية هذه بعض الفتية في باحة المدرسة. وكان أن استدعي بعد دقائق إلى الإدارة.

- بماذا ينبح راديو روسيا؟ سأل المدير.

صمت هابتلر.

- تحدث وإلا سأنتزع أسنانك.

شحب الصبي لكنه نبس بهدوء....

- حضرتك لست قوياً بما فيه الكفاية حتى.....

ضحك أحدهم في ركن الباحة. تراجع المدير قليلاً إلى الوراء.

-أحذرك - صاح

وقدم في الشاب تقريراً إلى السلطات المختصة.

لم يبلغوا العسكري بما حدث. كتمته حتى ماريا بيك التي توفزت بصمت وراحت تجول حائرة فاقدة الوعي. تركت من يديها كل شيء.

Telegram: somrlibrary

وارتدت ثياب حفلاتها وقصدت الدكتور فيلموش ماتياش في منزله. وروت له ما جرى، بصراحة.

أصغى إليها العقيد حتى أتمت الحكاية. همهم ثم قدم لها البالينكا.

– أنا لا أحب الألمان – قال

– سيدتي العزيزة أنا أستاذ تاريخ وموسيقى في المجر.

راح يضحك ويصفق بيديه. لاحظت ماريا كيف كان مأخوذاً بحالة من السكر. فسألته بهدوء:

– هل بوسعك مساعدة ابني؟

دس العقيد أصابعه في شعره الأشيب باحثاً عن فكرة. ابتسم:

– بالتأكيد – قال

– اعتبري أن الحادثة منتهية. وإذا ما دعت الضرورة سأذهب بدلاً منه حتى إلى حبل المشنقة.

فاقدة الحس، هبطت ماريا درجات البناء.

وفي الأسفل كان العم رايش بانتظارها.

– صلِّ ليلاً نهاراً – قالت المرأة

– عسى أن يكون ربُّك مختلفاً.

حضر هابتلر الابن إلى مخفر شارع «فينغ». تصفح رئيس القلم محضره ثم قال:

– انتظر.

Telegram: somrlibrary

وانتظر ساعة ونصف الساعة حتى أدخل إلى عميد الشرطة.

سأل العميد:

– هل تشعر أنك مذنب؟

– لا – قال الشاب.

– لماذا ذهبت إلى ماتياش إذا كنت لا تشعر أنك مذنب؟

لم يعرف الشاب كيف يجيب.

– هل أنت فوضوي؟ – قال ضابط الشرطة

– هل تعلم ماذا يعني هذا؟

– لا أعرف.

– مرض غير قابل للشفاء.

وصرفه إلى البيت.

في أكتوبر «تشرين الأول» استدعي إلى معسكر «بيليشابا» إلى وحدة الحرب الكيميائية.

شوت ماريا بيك وطبخت، وأعدت لابنها الصندوق العسكري الأخضر. صباح الاثنين ودعهم ياني في البيت ولم يسمح لأحد أن يخرج بصحبته وحين غادر البيت بكى الجميع.

في محطة القطار القريبة التقى جوري كالاوز الذي جاء وحيداً أيضاً. تصافحا بقوة. عجت قائمة الانتظار بالنسوة الفلاحات اللواتي يتحدثن بالألمانية. سألهن كالاوز عن الأحوال في «بيليشابا». أجابت النسوة: لا داعي للخوف. مسألة الطعام.... محلولة.

Telegram: somrlibrary

في هذه الأثناء ترقى قائد الفصيلة يوجف يوجا وصار مقدماً وكان يانوش رائداً. وكوفاتش أشتفان ملازماً. وخضع ثلاثتهم لدورة في النظام والتأهيل استمرت من أكتوبر «تشرين الأول» حتى عيد الفصح.

تعلموا فيها ترتيب أسرتهم وبعض القواعد الأخرى التي تخص العسكريين. دورة إعادة تأهيل.

كان ياني يتلقى الرسائل بكثافة من رايش كاتو تخبره فيها عن نتائج كرة القدم، وأن الجميع في البيت بخير، وأنها تعمل بأجر جيد وقد اشترت ثياباً كحلية لكن لن تلبسها حتى يأتي هو.

وأتى في عيد الفصح. اجتمع شمل الأسرة. ودعيت تشالا يولى كذلك برفقة ابنتها. وكانت كاتو رايش فائقة الجمال بثيابها الكحلية.

في اليوم الثاني للعيد جاءهم ضيوف. صدح الـ «غراموفون». رقصوا، لعبوا الورق، غنوا، شربوا النبيذ ولم يتح لماريا بيك أن تحضر السندويش. بدأ هيرش أشتفان شجاره مع غيزيكا مأخوذاً بتأثير النبيذ وعلت نبرته في وجه زوجته غيزيكا ولوح بقبضته. ثارت أستر. عانقت أختها الكبرى وصرخت بهستيرية:

- لا أسمح. لا أسمح.

ولم يتمكنوا من تهدئتها بسهولة. ماريا بيك أيضاً تلفعت غيظاً. وراحت ترشق قائد الفصيلة بعباراتها الرنانة كيفما اتفق، وألقت بين قدميه قدحاً زجاجياً. اصفرّ العسكري خجلاً، وتوسل إليهم أن ينهوا هذه المهزلة، وإلا سيحول هذا البيت إلى حطام.

أدارت «آنا كوفتش» «الغراموفون»، وصدح صوت «كارادیکاتالين» بأغنية: «هذه الخسارة خسارتنا نحن الاثنين».

Telegram: somrlibrary

ضحك جوري كالاوز. وكان أن استقامت السهرة. فيما بعد قال شابت بيلا: سيشرعون قانوناً يحظر أن يقبّل مسيحي يهودية.

ذهلت تشالا يولى.

– من سمع عن مثل هذا؟ سألت.

– من أحب أنا سأقبلها حتماً.

همهم شابت بيلا قائلاً:

– هذاقانون – قال

– من يقف ضده يقاومه، يتهم بالتحريض لتمازج الأجناس. وأنت لن يسجنك أحد. حتى الكلب لا يرضى أن يأخذه إلى مرقده. ضحك هيرش أشتفان قائلاً:

– أكيد.

وعندما لاحظت ماريا بيك عيني ياني صرخت بهم أن يكفوا عن هذا الحديث الغبي. ويهتموا بالشراب والطعام وافتعلت متضاحكة متوترة أن تروي حادثة قديمة مضحكة، تهدف إلى تحويل مسار السهرة لكنها لم تستطع إنقاذ الحالة المتفاقمة. اقترب ياني من شابت بيلا. ساخراً من فريق كرة القدم «فرنتس فارروس» الذي يشجعه.

ضحك الدهان. وبلهجة مازحة تهكم من فريق (فاشاش) الذي يشجعه ياني قائلاً:

– إنه فريق يهودي. مثل إم، تي – كا – فريقان ضعيفان.

رد ياني:

Telegram: somrlibrary

– أما أنا فبطيء مثل القملة لا تلحق وتبلل فرشاة الدهان حتى يبطل مفعول البطاقة الأسبوعية. صمت شابت بيلا لحظة.

– هل أدين لك بمبلغ؟ وجه السؤال وأخرج ورقة نقدية

– قل لي سأوفيه. قام عن الطاولة. واحتدت العينان الذئبيتان

– كنت تشرب الغاز المضيء الكاثوليكي، حين كانت زوجتك تنام مع بوربي سيلاجي أيضاً – قال ياني.

– و لم تفطس.

– قفزت ماريا بيك إليه. صفعة واحدة. وزعقت:

– تريد أن تتشاجر دائماً. أنت لعنة. أنت لعنة البشرية. آه. كيف ولدتك! ملعونة أمك.... أيها المجنون.... يا رب.

حين قاد العسكري الشاب برفقة كوفتش أندره، إلى الفرقة الثانية صبت جام غضبها على شابت بيلا:

– اذهب إلى الجحيم. وتحدث عن قوانينك هناك في الحانة. لا تأت إلى هنا مرة أخرى لأني سأطردك. كانت كاتو رايش تقف إلى جانب شجرة الفصح. تدير ظهرها للجميع. ارتعشت حين أمسك ياني يدها.

– انظر ما أرفع السلك الذي تتعلق به – أشارت إلى قطعة سكاكر تنوس على الشجرة. وحاولت أن تبتسم:

– قبلني قبل أن تسافر.

قطب ياني جبينه وشد على حنجرته و لم يستطعه التكلم.

– كيف تقف هنا – قال فيما بعد – كيف بحق الله – هيا ساعدي أمنا – لست ضيفة هنا.

Telegram: somrlibrary

كان البرد حين خرجا إلى بيشت أرجييت.

وكان الجليد يغطي وجه الدانوب. وفوق التربة الممتزجة بالثلج قاد الفتاة من ذراعها ودخلا كوخ القارب الصغير. في الداخل أشعل النار في الموقد المعدني وتابعا حتى صار اللهب ورديا وانقلب أحمر نارياً. خلعت الفتاة معطفها الشتوي وجلست بثيابها الكحلية على السرير.

كانت الشمس تسطع عبر النافذة. وانعكست ألوان الستارة على وجهها.

قرفص ياني قرب المدفأة.

حين أعود - قال - ستكونين زوجتي. لا تظني أن لأحد علاقة بهذا الشأن.

ابتسمت الفتاة.

- كنت دائماً....

مرت دقائق تفكير وقال الشاب:

- لا تظني أنني أحبك لأنك جميلة. قلت لجوري كالاوز إنني احبك لأنني لا أستطيع غير أن أحبك. أغلق عيني وأفتح عيني.... أراك.

تناول قطعة من خشب. أداره بيده. ثم وضعها بحرص على الأرض الخشبية.

- لا يجوز أن تنظري إلى أي رجل. لا يجوز أن تفعلي كما تفعل النساء الأخريات. أنا أقول لك الحقيقة. وإن كنت ستكذبين علي سأتخلى عنك.

- ليكن ما تشاء.

Telegram: somrlibrary

بعد عيد الفصح تعقدت أمور ياني ورفاقه. صادر التدريب قاسياً في دورة إطفاء الحرائق، وهم يرتدون الثياب الضيقة المزعجة. وخطيراً في دورة الألغام ونزعها. وقد حدثت انفجارات كثيرة ومزقت الجنود تمزيقاً.

في أيار «مايو» انطلقوا إلى الجبهة، عبر «تنارهاغ» وفي ديلاتين نزلوا من القطار ليعسكروا هناك حيث هاجمتهم الطائرات الروسية قبل انتشارهم، فكانت خسائرهم في الفجر الأول اثني عشر قتيلاً.

ومن ديلاتين توجهوا إلى «بوروهي» حيث زرعوا ألغاماً تحت الرمال، وجهزوا، عبر أسبوعين، مصائد الدبابات. وقد أطلق الضباط على عملهم هذا دعم خط آرباد. تقدموا خمسين كيلومتراً حتى خط الألمان. مرة لم يعد غير الأحصنة تجر الأعمدة الخشبية جريحة مثارة دون عربات، بعد انقضاض الفدائيين عليها.

– مساء اليوم التالي عاد كالاوز وحيداً. ومات الباقون. بدءوا يخافون من جهة المنحدر الشمالي. حيث سبحت الغيوم واطئة وعبأت شجرات الصنوبر العملاقة. وكان لون سواقي الجبال داكناً.

– ريف يوحي بالغرابة – قال كالاوز

– سوف يبكيني في أحلامي أيضاً.

لم يجب ياني.

عند انسحابهم من المكان أضاؤوا القرية بالعبوات الأسطوانية والبرجيكتورات والقنابل اليدوية بناء على تعليمات المقدم يوجا يوجف.

Telegram: somrlibrary

وتراجعوا حتى «أكرفرو» سيراً على الأقدام لعدم وجود خط للقطار. وبعد أيام قليلة أرسلوا من جديد إلى المكان نفسه لفتح طريق لعناصر المئونة وصلوا إلى «ليغيوها» في عصر حار. عسكروا وعينوا عناصر الحراسة.

خنادق مردومة، خوذة صدئة، بعض القبور بلا شواهد دلت على الحرب العالمية الأولى. حفر كالاوز واحداً من القبور. وقف الجنود والضباط يشاهدون ما يفعله في قاع الحفرة. رفع جمجمة، وذراعاً، وعظم ساق، وألقاها على العشب.

– من أية جنسية يمكن أن يكون؟

كان الجنود مجهدين، وهم يشاهدون العظام المخلوعة فلم يسعفهم مزاجهم أن يتمادوا في الهذر.

قطعوا الأشجار، وفجروا صخور سفح الجبل ليشقوا طريقاً لعبور المشاة الألمان. في آب ساروا على محاذاة نهر «التراك» وعسكروا حيث يصب التراك في نهر تيسا، وبعد أيام انسحبت سرية منهم باتجاه أنغفاء وبقيادة رئيس حرس انطلقت فصيلة ياني، وكالوز، إلى ماندوك سيراً على الأقدام.

هناك قايض كالاوز الفلاحين بالدجاج، والأرز مقابل أن يعطيهم المسامير والأسلاك الشائكة. واحتجز ياني لأنه قتل أرنباً بالرصاص في نوبة حراسته.

فيما بعد انتقلوا بالقطار باتجاه «هدشنمت» ثم باتجاه «باركان» وفي الثالث من تشرين الثاني «نوفمبر» تلقت فصيلتهم في محطة القطار نبأ تفجير «جسر مارغيت».

Telegram: somrlibrary

وكانت السرية قد وصلت إلى المحطة، فغادر الجميع إلى «أسترنوم» ومن هناك إلى «بيلشابا».

صباح الأحد كان قائد الكتيبة على ظهر حصانه يعطي لكتيبته في باحة المنسية أمراً بالاستعداد «استعد» قال:

– كتيبتي على أهبة الاستعداد للحرب ضد الشيوعية فداء الوطن وستموت فداءه. وكان حرس المعسكر يؤدون واجبهم في حراسة المكان.

بعد عشرة أيام سيرت الكتيبة على طول نهر الدانوب حتى استقرت في «سغدوروسلو». هناك رفعت الأيدي بالهتاف: «يعيش سالاشي» لكن التشكيلة استجابت لترديد الهتاف القديم بأصوات خافتة، عازئة.

ومن جديد هنا أقاموا المرابض، وحفروا خنادق القتال، ووزعوا مصائد الدبابات، واستخدموا سكان الناحية في أعمالهم.

وذات يوم، ظهراً، ظهرت بينهم باسمة وبمعطف ناصع البياض الممثلة البودابستية سالازكي زنيا.

اشتعل ياني غيظاً، صر بأسنانه، وتأهب ليرمي قنبلة يدوية بين أقدام المجموعة البودابستية الأنيقة فمنعه الجنود وأخذه كالاوز إلى باحة بيت فلامي ولازمه حتى هدأت أعصابه.

بعدئذ نقل الجنود بالعربات إلى قلعة «كومارم». ومن الجهة الأخرى لنهر الدانوب قصف الروس القلعة. وخلف القصف كثيراً من الجرحى، والدم، والموتى، والدمار.

في اليوم التالي ذهبوا إلى «ماني» ثم إلى تشابدي. وفي فترة

Telegram: somrlibrary

مسيرهم هوجمت الكتيبة، وكادت أن تباد عن آخرها. هنا قتل المقدم يوجايوجف، الرائد كاشا يانوش، والملازم «أشتفان كوفتش».

فرَّ ياني وكالاوز، يعدوان بين شجيرات الكرمة. فأصيب كالاوز برصاصة جعلته يتهاوى فوق الثلج. رمى ياني الكيس عن ظهره، وألقى بندقيته من يديه وحمل صديقه مسافة تزيد عن كيلومتر.

وعند حافة خندق حيث ترتسم بقعة من نور أهال عليه التراب ودفنه. وكان البرد شديداً حتى جعل دموع ياني تتجمد على وجنتيه.

تحت نشر الجنود، أقاموا حفراً للرمي. كل مائتي متر حفرة. وفي كل حفرة يربض راميان. وبعد فترة كانت حفر الأحياء من بينهم تتباعد ثمانمائة متر عن بعضها. فاجأهم الروس وأسروهم. وهكذا وقع في الأسر يانوش هابتلر الابن.

وضعت كاتو رايش طفلة معافاة في أيلول «سبتمبر»، لفوا مرافقها بقماشة كتانية كتب عليها بحبر أسود: رايش ماريا.

زارتهما غيزيكا في المشفى وأحضرت للأم الشاحبة السعيدة مرق الدجاج والكاتو وأشياء أخرى.

هي الأخرى كانت تنتظر مولوداً. فوضعت بعد أيام قليلة في المشفى ذاته، فتاتها الصغيرة. وأقيم عمادها في الكنيسة الإصلاحية في ساحة كالفين، باسم «آغوثا».

رجع هيرش أشتفان إلى البيت حاملاً الورود لزوجته وصرخ: لا مزاح في الأمر، لقد خسر الألمان الحرب. فليحرص كل منا، في الزمن المتبقي على أن يبقى حياً.

Telegram: somrlibrary

– وسنرى ما الذي سيحصل – قال.

بعد عشرة أيام انتقلت الكتيبة إلى «بيت» فذهب معها.

في الثامن والعشرين من أكتوبر «تشرين أول» طلب العميد كوكشيش مدير أكاديمية لودفيكا إفراغها.

وبينما كان العمال (اليهود) يرتبون محتويات الأكاديمية في صناديق ويحملونها في شاحنات إلى محطة «فرنتس فارو»، استدعي معاونه هابتلر يانوش إلى مكتبه.

– هذه ستة فيللرات – وبقي معك أمس أربعة فيللرات. أضفها إليها واشتر لي «جريدة» افتتاحية. تصفح «الجريدة»: وحين أفرغت الجدران من اللوحات الفنية، والخزائن الزجاجية من محتوياتها سأل العسكري:

– إذا استولى البلشفيون على البيت المقدسي ماذا ستفعل أنت؟

أجاب هابتلر بلهجة صادقة أنه لم يفكر كثيراً في هذا، وحتى لم يخطر بباله أبداً.

في ٣١ أكتوبر «تشرين أول» من عام ١٩٤٤ نقلت حاويات أكاديمية لودفيكا من محطة فرنتس فاروش إلى كورمند حيث حصل الضباط على مأوى في قصر استرهازي. ريثما استقروا في سنتهاردا.

قبل ظهيرة الثاني من شباط «فبراير» عبرا الحدود. وعند محطتهم الأولى في لاسينك أقاموا، تحت السماء المكشوفة وفي برودة عشرين درجة تحت الصفر أدوا صلاتهم البروتستانتية بأمر من العميد كوكشيش. ثم ذهبوا إلى درسدن، حيث ظل الجنود يومين يفرغون الحاويات. وفي اليوم الثالث بدأ القصف، ودمرت المدينة. عاش هابتلر الابن أسوأ ليالي

Telegram: somrlibrary

ونهارات عمره. أكثر من عشرة آلاف إنسان لقوا حتفهم. منهم كثير من المجريين ومن بينهم د. مانياش ميلوش. خرجوا من المدينة الملتهبة وتابعوا المسير إلى «ترشنرويت». وبتوجيه من الباسل روجاش يوجف مستودع الكنيسة. هابتلر يانوش سكن مع محتويات المتحف مع أم د. فيلموش في غرفة من منزل في الطابق الأول في شارع ويتزر. كان صاحب الغرفة جندياً بساحة واحدة وكانا يدفعان له الأجرة، دهناً مقدداً، ومعلبات وشراباً كحولياً. كانت العجوز دائمة البكاء لم تشأ أن تنام ليلاً، بل تظل جالسة على الكنبة، تتسلى بعلبة حليها وغالباً ما تنهض للتبول.

كانت بذلك تشحن هابتلر بالغيظ، وتدفعه ليقدم على أفعال لم يسبق أن قام بها في حياته. مرة شرب نصف لتر من الروم، ووصف السيدة العجوز بالخنزيرة الشمطاء، سبّ وشتم وغادر الغرفة.

صار القصف حالة غالبة في بودابست، جعلت فتيات المدارس تلوذ بالملاجئ وإذا ما انطلقت صفارات الإنذار وكنّ في الشارع لم تلتجئ استر وهانيلكا في مدخل البناية، بل كانت تسرعان إلى أمهما التي كانت تحتضنهما بذراعيها في القبو، وكانتا تستشعران أماناً في الحضن الدافئ.

كانت العائلة مشتتة. وفي فترة ما قبل الظهيرة من كل يوم، كانت ماريا بيك وحيدة مع ولدها الأكبر وآغوثا. تعصف بها الوساوس المؤلمة، من اللا أمان والرعب.

في هذه الحرب. غيزيكا لم تخف. كانت تذهب إلى عملها في بست الجديدة كالمعتاد وتقطع المسافة إلى البيت ماشية إذا توقفت حركة الترام لسبب ما. كاتو رايش لم تعلق شارة النجمة الصفراء لأن ماريا بيك لم تسمح لها. دخلت إلى شابت بيلا. كان الدهان في حزب «الصيب السهمي» بقميص أصفر، سألته:

Telegram: somrlibrary

– إذا لم أسمح لها بشارة النجمة، ما المشكلة في هذا؟

أجابت شابت بيلا:

– غباء. لن يضايق هذه الفتاة أحد وفي الحقيقة لم يضايقها أحد. في معمل العلب كانت زميلاتها يبدين لها معاملة لطيفة ويبادلنها الأحاديث الودية. وروّاد حانة هارفاش غالباً، كانوا يستوقفونها في الشارع ليطمئنوا على ابنتها الصغيرة، وجمالها المدهش. حتى إن نادل الحانة عرض عليها نقوداً لكنها رفضت ذلك. كانت تتناول طعامها لدى بيت هابتلر. وكانت ماريا بيك تمنح طفلتها القبلات وتوليها الحب والرعاية ذاتهما اللتين تخص بهما آغوثا. وإذا ما بكت الطفلة هي التي كانت تهدهدها بالأغنيات.

حين جاءت التعليمات تقول إن على كاتو رايش أن تقيم في بيت يهودي، بكت ماريا بيك حائرة، وصارت ترسل لها طعام الغداء والعشاء مع إحدى بناتها. وزارها شابت بيلا بمذاقين: الشوكولا لها واللعبة الرنانة لابنتها.

اشتعل مصنع شل، دمرت الأبنية، وعجت الشوارع بالقتلى. وبدا من سلوك ماريا أنها مصابة بمرض عصبي خطير. زعقت زعيقاً هستيرياً في وجه غيزيكا، و لم تسمح لها بالذهاب إلى عملها. وشدت استر وهانيلكا من شعرهما، في الممر، لتدخلهما إلى البيت. ثم هدأت. سقت الأزهار، تمشت في المطبخ حافية، نقعت حب الفاصولياء. كتبت رسالة. ثم تركت القلم. وشبكت كفيها.

– ربي. سيدي. كيف تفعل ما تفعله؟ سألت بصوت خافت متأملة بعينيها الزرقاوين أوراق الشجر المرتعشة في ضوء الفجر.

Telegram: somrlibrary

على غير انتظار، فاجأتهم أم هابتلر بقدومها من بروغتس وصاحت باضطراب:

– هيا تحركوا لأن السيارة ستنطلق.

خطفت ماريا بيك بعض الأغراض التافهة وانطلقت تهبط الدرج.

أسرعت الشاحنة بهم. حضنت ماريا آغوثا. واحتمت البنات ببعضهن. عمت الظلمة حين تذكرت ماريا بيك كاتو رايس.

– يا مسيح – قالت – نسيناها.

لم يتكلم أحد.

في بروغتش كان ينتظرهم الهدوء. أنهت ماريا عملها المزلي. في المساء كتبت رسائل. ونسجت ثياباً وردية اللون من أجل آغوثا، ومن أجل بنت كاتو رايش.

كانت فتيات – هابتلر يقضين أوقاتاً بهيجة. مضت بهن غيزيكا إلى المقبرة. يدرن بين القبور ويقرأن الشاهدات، ولعبت هانيلكا مع الأطفال الفلاحين، شاهدت الإوز السابح في البحيرة الشحيحة، وأحست أستر لأول مرة بمشاعر جذبتها إلى شاب لاهوتي شاحب ذي سبعة عشر ربيعاً. جلست قربه جنباً على جنب تحت شجرة العليق العريانة يقرأان معاً في كتاب آران يانوش. كان الفتى مسلولاً، ومات.

في نيسان ١٩٤٥ عادوا إلى البيت. وقد كان البيت مهجوراً فقد قشرت جدرانه فأمرت ماريا بيك بطلائه من جديد. عملت غيزيكا دؤوبة في صناعة القطن. وكان اسمها يتكرر دائماً بين الأسماء الثلاثة الأولى في لائحة العمال المتفوقين فتحصل إلى جانب أجرها الشهري

Telegram: somrlibrary

على الطحين، الفاصولياء، البازلاء، الزيت، سميد الذرة، إضافة إلى القماش، على رأس الجائزة. وعملت في وردية ليلية، كعمل إضافي خاص، فنحفت ونقص وزنها إلى أربعة وأربعين كيلوغراماً، وفي نوفمبر «تشرين الثاني» انهارت حالتها. أقلتها سيارة الإسعاف إلى مشفى اشتفان، و لم يظهر عليها أي مرض عضوي، انهيار عصبي.

كانت ماريا بيك تتابع في باحة الكنيسة اليهودية اللوائح الرسمية لأسماء القتلى، لكنها لم تجد اسم كاتو رايش، ولا اسم ماريا ريش.

انتسبت هانيلكا وأستر إلى ثانوية المعلمين في الأول من شباط «فبراير» تزحلق كوفتس أندره عند المنعطف ومات تحت الترام. وأقيمت طقوس دفنه من قبل القس الإصلاحي. بكت آنا، وعند عودتها عن القبور كانت تحتضن ثلاثة أطفال سود العيون كالغراب. تقدمت منها ماريا بيك برفقة بناتها. وعانقتها دون أن تنبس بكلمة.

سكن في بيت العم رايش أحد الشيوعيين. البدناء الطوال، وزوجه السمينة ذات الرجلين الثخينتين، واستجابة لرغبة الرجل الطويل ذي الثياب الرثة المهملة، أخبر خفير العمارة القاطنين فيها أنه سيلقي فيهم كلمة وينبغي حضورهم إلى الباحة. نصبوا طاولة أمام بيت الخفير، وغطوها بمشمع أحمر، وفي أمسية من أمسيات السبت، على ضوء الكهرباء ارتجل الساكن الجديد الشاحب بصوته الجذاب الكلمة المتأنية التالية:

– أيها الرفاق! أدعى شرش شاندور. أقولها منذ البداية من مواليد وادي بونا ١٩٠٣. يا رفاق كان عمري أحد عشر عاماً حين نشبت الحرب العالمية الأولى. وكنا في البيت أربعة عشر فرداً بنشوب الحرب خرجت من المدرسة و لم أكن قد أنهيت الصف الرابع. كان عليّ أن

Telegram: somrlibrary

أعمل «مياوماً» في حقول الإقطاعيين منذ مطلع الشمس حتى مغيبها لقاء بضع فلليرات.

رفاقي الأعزاء، كان أبي عاملاً في السكة الحديد، أجره لا يكفي لإعالة ثلاثة عشر فرداً، عانيت من الجوع وكان عليّ منذ بادية الربيع حتى نهاية الشتاء أن أبقى اليوم بطوله بثياب مرقعة وحذاء تالف.

لن ننسى أبداً. خاصة في الصيف أيام الحصاد حين كان علينا أن نرافق الحصادة منذ الساعة الثالثة فجراً حتى الساعة الحادية عشر ليلاً موعد راحتنا حتى الثالثة فجراً، وهكذا.... أيها الرفاق!

حين قامت ثورة التاسع عشر كنت في السادسة عشرة من عمري. هربت لأتعلم مهنة الخياطة. لا شك أن الجميع يعرف تمام المعرفة كيف كان الصبي المتمرن. ولا يجوز أن ننسى أيضاً أنه كان عليّ أن أقوم بكافة الأعمال المنزلية الأخرى.

إذا وجد رضيع في البيت كنت مضطراً أن أعتني به، وأغسل له خروقه القذرة، وأفرغ من تحته «النونية».

أيها الرفاق حتى جاء وقت الحرية تحررت من بين يدي معلم الخياطة. لكنني لم أمارس المهنة للأسف. هذا ما حصل. كنت مرغماً على العمل بأقل أجر. هكذا كان الإنسان لعبة بيد القدر.

رفاقي!

حين علمني القدر أن أعمل. صرت عاملاً نقابياً. خضت حرب الأجرة، وسعيت إلى تنظيم العمال. وطردني رب العمل لنني كنت أحرض عماله، وهكذا صرت عاطلاً عن العمل مرات كثيرة أنا، يا رفاق، شاء القدر أن يلقنني درساً من أجل ان أحدد انتمائي في حياتي

Telegram: somrlibrary

العمالية الأولى. والآن بعد أن حررنا الجيش الروسي المجيد، انزاح عن قلبي حجر، وأدركت على الفور واجباتي. وعلى رأسها انتسابي إلى الحزب، ولن أدخر جهداً لا الآن ولا في المستقبل. في متابعة أحوالكم والدفاع عنكم.

بقي شيء آخر، قبل أن أنهي حديثي، هو أن حديثي هذا ليس بدوافع رخيصة، وأنني لم أنتسب إلى الحزب لتحقيق مآربي الشخصية. فأنا لست أكثر من عامل بسيط، أعمل في مشغل لصناعة الثياب. وأخيراً أرجو منكم أن تنصتوا للشيوعين، لأنني اجزم، بقلب نقي، أنهم الذين صانوا في الماضي وسيصونون في المستقبل ودائماً، المصالح الحقيقية للإنسان العامل.

صفق له السكان بقوة. وخرجوا بنتيجة أن من لفتات القدر أن يحتكوا بهذا الإنسان الغبي.

تضاحكوا غير غاضبين، لأنه بدا شخصاً بسيطاً، صادقاً.

في آذار «مارس» وصل هابتلر يانوش إلى المنزل – الغرفة – المطبخ.

أنصتوا له في وزارة الدفاع، وبعد أن تأكدوا من صحة أقواله، صنفوه في القائمة B وعين في سينما «هيرادو» جامع تذاكر.

في نيسان سرّح من عمله لأنه أدخل أحد الجنود بلا بطاقة إلى صالة العرض. فحصل على عمل في مشفى يزوّد مرجلها بالفحم.

في أيلول عاد هيرش أشتفان من الأسر الروسي. وعمل في مصنع الآلات الدقيقة، مكلّفاً بخراطة القطع النموذجية التجريبية، ولقد أدى عمله بدقة مذهلة، حتى اشتهر اسمه في الوزارة.

Telegram: somrlibrary

من قائد مجموعة، ثم قائد ورشة ثم مسئول المسابقات والجوائز والحوافز، أصبح مدير قسم الإنتاج فبلغ دخله الشهري ثلاثة آلاف فورنت. ووظف غيزيكا في المصنع، كانت زوجته ماهرة دءوبة، مخلصة، ومطواعة حتى النهاية. عملت بمريول أبيض في قسم تصميم عربات الأجهزة. P4 ودربت فيما بعد على العمل في نماذج وعبوات الحديد المصهور والمعاجين المختلفة، وتنعيم مضخات الديزل المصنوعة بارتيابات القياس الدقيقة المقدرة بأجزاء من الميليمتر.

لكن هيرش أشتفان في بيت قريب من سكن عائلة هابتلر. اشترى خزانة وطاولة، وأربعة كراسي، وكومادينا لمصباح واشترى من تشالا يولى، بستين فورنتاً صورة مشغولة بأجنحة الفراشات، ليعلقها على الجدار فوق إناء الزهر.

خلال النهار اعتنت متاريا بيك بآغوثا، وأخذتها كل مساء بعد العشاء إلى والديها.

كان مدير العمل هيرش اشتفان قاسياً جداً. فإذا ما أهملت غيزيكا إحضار الشوكة والملعقة والسكين و لم تضعها إلى جانب طبق الطعام كان يرمق الطعام بنظرة متأففة وينتظر حتى تأتي إليه بالسكين والملعقة والشوكة دون أن يفيد وجود درج أدوات المطبخ قرب المائدة. كل يوم يشاهد وظائف أستر وهانيلكا في مادة الحساب، ويشرح بذكاء المعادلات المعقدة، وسواء كانت الفتاتان تفهمان عليه أو لا فقد كان يسهب في شرحه حتى منتصف الليل.

وذات مرة أحضر السكاكر لابنته آغوثا، وحين مدت يدها الصغيرة لتأخذ واحدة ارجعها إلى جيبه، ونادى في الممر على ابنة تشالا يولى حليقة شعر الرأس، القذرة حتى قمتي أذنيها، وأعطاها لها، بينما قال لآغوثا:

Telegram: somrlibrary

– لكي تشكري اباك إذا أحضر لك هدية مرة اخرى. شحبت ماريا بيك من الغضب.

– هل تعني أنني لا أربي ابنتك تربية جيدة؟

لم يجب هيرش أشتفان.

– انت بلا قلب – قالت ماريا بيك – لو أن الكثيرين يأتمرون بتوجيهاتك، ولو أن دخلك كبير، فأنت لا شيء في نظري. ابتسم هيرش أشتفان وقال:

– سيأتي ابنك يوماً إلى البيت، ماذا ستقولين؟

صمتت ماريا كثيراً حتى قالت محدقة بعينيها الزرقاوين في وجه الرجل:

– سأقول لابني.... سأقول لابني.... لا يقارن ماء البحر، بكمية الدموع التي في عيني...

بعد مضي ايام اثناء الغسيل في المطبخ المشرع للتيار انتابتها بردية شديدة. ارتفعت حرارتها، اقشعر جسدها، دون أن تتعرق، ورفضت استدعاء الطبيب.

– هاتوا بالينكا

ظلت تشرب ثلاثة أيام. تنام وتصحو وإذا ما صحت سمعت تهذي في الساعة الخامسة صباح اليوم الرابع استيقظت واغتسلت حتى أخمصيها ثم كوت لأستر وهانيلكا قميصيهما الأبيضين، وأعدت الفطور. وحين شاهدت أفراد العائلة الناهضين من النوم فاغرين الأفواه من دهشتهم بحالتها قالت:

Telegram: somrlibrary

- انظروا إلي. أنا بصحتي مثل الخنزير. مثل أرملة جميلة تنتظر الـ ..... وهزأت من الجميع متضاحكة بوجهها الموشى بالتجاعيد.

سارت العملية التعليمية للفتاتين بامتياز، ولكن بفضل استر وحدها. هي التي كانت توئب أختها الصغرى وتحثها على الدراسة، وتمزق صفحة الوظيفة من دفترها وترغمها على كتابتها من جديد، إذا لوحظت أية خطيئة فيها. كانت هانيلكا تبكي. ويبدأ شد الشعر والشجار بين الفتاتين وكانت ماريا بيك تصفع الأختين معاً. وتعودان إلى طاولة المطبخ تتابعان الدراسة حتى منتصف الليل كانت أستر مستبدة وعنيدة، حين تصطحب أختها إلى المسبح المغلق، كانت توفر ثمن بطاقة الترام وخلال الفترة التي تجوبان فيها المدينة تستظهر لأختها الدرس بصوت عال كيف كانت تدخر النقود بطرق شتى، لتشتري لها ولأختها تنورة أو بلوزة، أو جوراباً، أو بياضاً داخلياً، وهي التي كانت تختار كل شيء على ذوقها. وإذا لم ينل إعجاب الأخت الصغرى وحاولت الاعتراض كانت تقول لها:

- لا تناقشي. ذوقك رديء.

كان لأستر ذوق جيد.

شتاء، وفي عصر يوم من أيام الآحاد تعانقتا وراحتا تغنيان معاً، لكن بصوتين مختلفين. كانتا تهويان الموسيقا، وتستمعان إليها بإنصات مذهل.

مرة كانت أستر تعتني بجهاز الموسيقى «المونوغرام» وتزينه، فقالت لها ماريا بيك وهي ترفو مخدة الكنبة:

- من مخصصاتك للزفاف.

Telegram: somrlibrary

غضبت استر.

– لا تقولي مثل هذا. أنا لا أريد الزواج مطلقاً. ابتسمت ماريا بيك. وربتت على كتف الفتاة بيدها ذات الأصابع المعقوفة.

– كيف لا يا بنيتي. أنت أولاً. ثم أختك. أريد أن أسعد بكما وبأحفادي.

الحلفة الأولى أقيمت عند صديقة هانيلكا «آنجل» التي تقطن عائلتها في شارع «تلابي» قرب معمل الأدوية «نيرودا نادور» الذي يملأ المحيط برائحة الكاميلا الفائحة.

أوصل كوفتش لايوش الأختين هانيلكا وأستر حتى مكان الحفل حيث تناولتا الكاكاو والكعك، ورقصتا حول الدب الثلجي المنشور في الغرفة. لم تدع للرقص، ولم تلفت انتباه أحد. بل أوكل إليها حتى الثامنة مساءً أن تضع بيديها أسطوانات الغراموفون وعليها أغان مثل «الحب لديك لهب الهشيم» و «رقصة الرومبا تقتلني».

كئيبة كانت تراقب الراقصين، وترى الفتيات يتدللن بنعومة ويشردن بعيونهن في وجوه شبان الثانوية الجريئة. ظلت هانيلكا سيئة المزاج وعادت صامتة إلى البيت حيث قالت لأستر حين اندست إلى جانبها في السرير:

– جنون بجنون.

وفي بيت آنا كوفتش أقيمت حفلة تنكرية. تنكرت أستر بثياب صبيانية، وتزينت هانيلكا بتنورة حمراء سوداء وبلوزة بيضاء كتانية وجدلت شعرها. كانت ممتلئة بالحياة، وكانت تدور وتفتل بسرور فائق. وضحكت كثيراً، وقهقهت. وجدت لنفسها شاباً، يدعى «دودي»،

Telegram: somrlibrary

لاعب الجمباز الأول في الثانوية الإصلاحية، وبقي رفيقها الدائم في الحفلات واللقاءات الاحتفالية المدرسية. كان شاباً مفتول العضلات، وسيماً، حيوي الوجه والحركات، رمقته بإعجاب وحسد.

أحب الفتيان هانيلكا، واتخذت رفيقة للجميع. فإذا عبروا الغرفة الأخرى يروون نكتة خبيثة قالوا لها:

- هانيلكا! يمكن لك أن تأتي.

ضجت الفتيات، وتهامست، وألححن جميعاً إلى هانيلكا لكي تروي النكتة لهن، وكانت تفعل.

في رأس السنة عام ١٩٤٨ حضروا للذهاب على المركز الثقافي لمصنع الآلات الدقيقةز ماريا بيك، هابتلر هيرش أشتفان، غيزيكا، أستر، كانت هانيلكا متوعكة، لم تشأ أن ترافقهم، لكن ماريا بيك قالت:

- في رأس السنة على الأسرة أن تجتمع وتمضي الليلة معاً من أجل أن تبقى الأسرة مجتمعة طوال العام القادم.

خصصت لهم طاولة عائلية. ماريا بيك كانت تلبس ثوباً كحلياً مرتفع السحاب، بلا ياقة. حول جيدها حلية رقيقة تكاد لا تكرى، وشعرها الأشقر الأشيب ملفوف بعناية.

هابتلر أيضاً بثياب كحلية، وهيرش أشتفان ببزة رصاصية غامقة.... وعلى غيزيكا أيضاً طقم بتفصيلة إنكليزية من القماش واللون نفسيهما، أما هانيلكا وأستر فكانتا ترتديان التنورة السوداء والبلوزة البيضاء.

كان الطعام نقانق ودجاجاً. وكان هيرش أشتفان يطلب من النبيذ اللترات الزجاجية، ليجترعها برفقة ماريا بيك. وكل حين كان مدير

Telegram: somrlibrary

الإنتاج يستدعي إلى طاولته واحداً من رؤساء الورش الأكبر سناً، ويشرب نخبهم.

ما عدا ذلك فقد حافظ هيرش على موقعه، رادا بود وحرارة التحيات العديدة الموجهة إليه. وحصل أن عاملاً خرّاطاً أشقر مموج الشعر أعجب بهانيلكا و لم عينه عنها حتى جاءته الشجاعة واستدعاها للرقص. وطلب صديقه أختها أستر، ورقصوا رقصاً جميلاً وبلا توقف في الصالة المتنوعة الأضواء.

عند منتصف الليل أطفئت الأضواء، جلس الشابان عند الطاولة، وبصوت معتدل تمنيا لعائلة هابتلر سنة جديدة خيرة.

وعند الفجر تحت ندف الثلج، رافقاها حتى البيت.

بعد أيام جاءا بزيارة للفتاتين حاملين بطاقات لدخول السينما القريبة. ومن يومها صارت هانيلكا واستر ترتادان السينما كثيراً. وحتى بعد المدرسة أحياناً كانتا تنتظران أحداً من العائلة على ضفة الدانوب لمرافقتهما لمشاهدة عرض من العروض.

ذات مناسبة أرسل هيرش أشتفان هانيلكا من أجل طرد. فرافقها الشاب الأشقر، وبحثا لمدة طويلة عن البيت المحاط بحديقة، وفي الشارع المظلم تعانقا في قبلة طويلة. وبعدها تكررت قبلاتهما.

أما الشاب الخراط الآخر فقد ارتكب حماقة في نقاش محتد مع استر، فطردته الفتاة. في الربيع ذهبا إلى السينما وشاهدا «هاملت». كان الشاب يمسك على الدوام بقوة يد هانيلكا، تعرقت كفها، مما أثار الفتاة، وانفصلا بعد وقت قصير.

في الثانوية، كان الغناء والموسيقى مادتين رئيسيتين. استعار هابتلر

Telegram: somrlibrary

من «مدوزن» أكاديمية لودفيكا السابق زونغرافاً تنجز عليه الفتاتان تدريباتهما الموسيقية و لم تكونا تحتملان فروض المعزوفات عليه. بل كانت أستر أحياناً تخرج عن الفروض لتعزف مقطوعات لـ «بارتوك» وخاصة مقطوعة (قتلوا شاباً من أجل ستين فورنتاً). وعندها كانت تغمض عينيها وتضم شفتيها وتسرح.

وحاولت هانيلكا إيجاد معزوفات جديدة وكانت تحب الموسيقى النقية الهادئة. ولكن إذا ما اكتشفت اصواتاً متناغمة جنباً إلى جنب، كانت تغمرها البهجة. هذا الجو من الموسيقى كان يثير ماريا بيك غضباً:

ألا تعرفين شيئاً آخر يا بنتي؟ سألت.

غنتا كثيراً في هذه الفترة أغاني شعبية اوبرالية، جاز. وكانتا تمقتان الأغاني الراقصة التي يبثها المذياع مثل «الوردة تغني أنني مخلصة».

وإذا ما أدى أحدهم اغنية جذّابة تتناسب مع ذوق هانيلكا، رافقتها بموسيقى جذابة.

وذات مرة أقيمت في بيت موجهة السف «لوسي»، حفلة حضرها بعض الموسيقيين أيضاً. تعرفت هناك على شيما لاتسي وهو شاب متوسط القامة في السادسة والعشرين. يضع نظارتين ويدرس الرياضيات واللغة الروسية، عازف بيستون وقائد فرقة موسيقية صغيرة، بآلات النفخ: بيستون ساكسافون، كلارينيت، طبلة، وبيانو.

بعد أسبوع تكرر لقاؤهما في بيت لوسي، وعزفت الفرقة بقيادته رائعة من روائع شوبان، موزعة توزيعاً مدهشاً على الجاز بعد المعزوفة عن الأسطوانة قدمت بخمسة اصوات:

– الكونترالي الرنان (أوطأ الأصوات: هانيلكا)

Telegram: somrlibrary

- المعتدل: أستر

- المتوسط: لوسي

- الباص: رودي

- الصادح (أعلى أصوات الرجال): شيما لاتسي

يوم الأحد قدمت فرقة شيما لاتسي مقطوعاتها لشبان وشابات مدرسة للرقص في شارع مولنار.

هنا تعرفت أستر وهانيلكا لأول مرة على الرقص الغربي بإيقاعه المجنون.

تشكلت حلقات بحيث ينفصل اثنان من الحلقة ويرقصان ضمنها حتى الكلل ويتلوهما بالدخول راقصان آخران.

هانيلكا وجدت رفيقاً، أستر لم تجد.

وإذا لمح على مرمى البصر أثر لشرطي أو لرجل أمن أشار الرائي من باب الغرفة الأولية بذلك، وانتقلت الفرقة إلى معزوفات التانغو الهادئة.

كانت هانيلكا تلتقي شيما لاتسي، في المقاهي العامة فيحدثها عن المدرسة، وعن دروسه وأنه لا يعرف شيئاً باللغة اروسية، وأنه خلال الحصة الدرسية، يغش بالنقل عن الكتاب، أثناء الإجابة، و لم يفطن إلى ذلك أحد. وتحدثت هانيلكا عن تحضيراتها للتخرج، وبصوت دافئ وشغف عن الموسيقى الحديثة.

شيما لاتسي لم يدخل إلى قلب ماريا بيك، قالت إنه ذو عينين قذرتين، ومنقاد لرغباته وكذب على العديد من النساء في حياته.

Telegram: somrlibrary

لم يترك الانفصال عن شيما لاتسي وقعاً مراً في نفس هانيلكا، فلم يكن قريباً من قلبها، فقط كانت صحبته ممتعة بالنسبة إليها لبعض الوقت.

قبل امتحان التخرج، أنشدت جوقة المدرسة، كورسات مختلفة انضم إليها الفتيان، ومن بينهم التوأمان ليكو ديموش السمينان، قصيرا القامة اللذان حاولا مغازلة هانيلكا وأستر، فطلبا موعداً للقاء لكنهما رفضتا متضاحكتين.

وفي الربيع، أدت الجوقة في أكاديمية الموسيقى، بمرافقة الأرغن، مقطوعة لهاندل.

أدتا امتحان التخرج بامتياز. قبّل هابتلر الأب جبين كل منهما. وهنأهما شرش شاندور.

وفي المطبخ خطب فيهما، خطبة مطولة مملة أوضح فيها بؤس نظام «هورتي» ونضالات فقراء الشعب، والإضرابات، والسجون، والإعدامات، وعنف النازية الهتلرية، وفيما بعد تحدث عن شرف العمل وتمنى للفتاتين هابتلر مستقبلاً سعيداً فيما ينتظرهما من ايام.

- حب العمل واجب - قال.

لا تنسيا أن والديكما عانيا كثيراً من أجل لقمة الخبز في عالم الأسياد الظالم والمستغل لعموم الشعب. واسمحا لي أن أقول: لكما الأرض والمصنع، وبلاد المجر كلها وهي تبني الاشتراكية. لقد صار البلد لأولئك الناس الذين طلعوا من البراكات ومن أقبية المدن العميقة المظلمة، وإلى جانبهم حشود الفلاحين الفقراء ليرسخوا بقيادة الحزب الشيوعي المجيد، سلطة العمال، من أجل القضاء على الإمبريالية.

Telegram: somrlibrary

عزيزتيّ أستر، وهانيلكا. قبل بدء مسيرة حياتكما الرائعة أقول لكما أن تسمعاني، تصغيا إليّ جيداً: من أجل شيوعية حقة عليكما أن تحبا الآلات التي ستعملون عليها وأن تزدادا معرفة، وأن لا تنقطعا عن تحصيل العلوم، وأن تتعلما وتستوعبا الإيديولوجية الماركسية، لأن كل ذلك يزودكما بالإيمان والقوة. وإذا صح قولي فهذا إيمان أقدس من كل إيمان، وأقدس من الكتاب المقدس نفسه، لأنه يدعو حقاً إلى تغيير البشرية ويغيرها، ويخلق الجنة والشاسعة الكريمة. وبلا هذا الإيمان لا يتمكن الإنسان العامل من العيش إلا في مستنقع الحياة البائسة.

تذكرا: المعرفة سلطة. لكنها سلطة مثلها مثل الحياة الكريمة لا تأتي بالمجان، بل بالتعلم والكد من أجلها.

لذا أيتها العزيزتان هانيلكا وأستر أنصحكما بقلب صادق، أن تمارسا الحياة ببساطة وأن تحرصا بإرادة صلبة على أن تنجزا ما يلقى عليكما من مسؤولية وعندئذ ستحققان، في بلدنا العظيم باني الاشتراكية، الحياة الكريمة لكما، ولأسرتكما ولأبنائكما القادمين. وأخيراً باسمي، وباسم زوجتي أتمنى لكما انطلاقة مباركة في الحياة.

أنصتت له الفتاتان، بتهذيب وجيدة حتى النهاية، و لم تفجرا ضحكاً إلا عندما خرج من باب البيت.

أقيم الاحتفال في حديقة «الكازينو» في جزيرة مارغيت.

جلست الفتاتان هابتلر إلى طاولة بيضاء، بثياب خضراء فاتحة، تتحدثان، وتدخنان. فيما بعد دعيت أستر للرقص مع شاب طويل رفيع أشقر.

كان موظفاً وعازف سكسفون يدعى «فيلاتو يانو». أوصلهما ليلاً

Telegram: somrlibrary

حتى البيت وعند المدخل طلب موعداً من أستر. التقيا في محل للحلوى، حياها «أقبل يدك». طلب نوعاً من الحلوى، وروى لها فيما بعد كيف يتصور الحياة معها.

– سأكون موسيقياً – قال – مشهوراً على مستوى العالم. سندعى إلى الاحتفالات.وأكون انا بالسموكنغ، وأنت بحذاء فضي وحلي وثياب سهرة بيضاء ثلجية، وكان يسرح في حديثه الهادئ مبتسماً، وأشار أن كل ما حكاه حلم من الأحلام. لعبة غبية لكن عينيه كانت تخبئان شيئاً خفياً مؤثراً. عندئذ عرفت معه أستر القبلة للمرة الأولى.

عملت هانيلكا موظفة في مصنع التراكتورات، والتحقت أستر بورشة لصنع الأحذية، كان الراتب خمسمائة فرونت. لكن هانيلكا كانت تمقت المصنع. عملت أول الأمر في مستودع المسبوكات ثم في ورشة للخراطة كانت ورشة قديمة قذرة يحجب الغبار المتراكم الرؤية عبر زجاج نوافذها.

بدأ وقت العمل من السابعة صباحاً وانتهى في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. كانت هانيلكا إذا ما ذهبت إلى البيت ونامت ساعة من الزمان. اغتسلت وانطلقت إلى موعدها، أما أستر فكانت في ورشة الأحذية، تجلس في مكتب مشمس تحسب الأجور إلى جانب مروحة هوائية.

في بداية الصيف اشترى هيرش أشتفان محركاً لقاربه. كانت تزوره الفتاتان دون أن تشعرا بالراحة هناك. كانت غيزيكا في حالة بكاء لا تنتهي وكان الجو مشحوناً على الدوام، ولا نأمة لموسيقى أو أغنية، أو رقص على مقربة من المكان.

لحقت بهابتلر حرقة معدية نتيجة عمله في المخزن. وإثر تقرير طبي

Telegram: somrlibrary

يصف حالته، أوكلت إليه أخف الأعمال الممكنة. فصار مرافقاً لعربة شحن الفحم.

– ما قول العجوز الجميل بهذا؟ سالت ماريا بيك وقد أعدت له طعام الحمية.

صار أصدقاء فيلاتو يانو ضيوفاً لمنزل الغرفة – المطبخ. كانا شباناً موسيقيين، يضجون حيوية وأحلاماً.

أخرجوا آلاتهم الموسيقية، وعزفوا حتى التاسعة مساءً موعد نوم هابتلر.

فاتسي على البيانو، أرتين على سكسوفون متوسط، فاتسي على الدف، ضابطاً للإيقاع.

كان عازف السكسوفون فاتسي، قائد الفرقة موهوباً، دقيقاً، عالي القدرة السماعية لا يعرف المزاح خلال البروفات. إذا ما رفع وجهه المفيستي الشيطاني «نحو رفاقه العازفين وأطبق رموش عينيه السوداوين الكثيفين كانت حتى الفتيات تلتزمن الإنصات.

أحب هانيلكا كثيراً وتعانقا في محل للحلوى، وحين قدم لها خاتمين رفضت ذلك في الحال.

– لا تجن – ضحكت.

أرجع لاتسي الخاتمين، قائلاً:

– لا بأس أخيريني حين لا ترين ذلك ضرباً من الجنون.

في هذه الفترة درجت عند الفتيات موضة الشعر القصير والتسريحة الصبيانية، فقصته هانيلكا من بين أولهن.

Telegram: somrlibrary

وكان لديها لباسها المفضل: تنورة ضيقة، صدارية واسعة وحول الخصر حزام بلون بني فاتح.

هكذا كانت ترتاد الحفلات المنزلية لـ «فيلاتو يانو» الذي كان يسكن مع أمه المطلقة من أبيه تاجر القماش الذي هرب إلى لندن مع وجته الثانية.

وفي البيت المؤلف من غرفتين كانوا يرقصون ويغنون ويسمعون الأسطوانات. مرة سكر فاتسي من كثرة الشراب، وعكر جو الشلة، وهو يشكو مأساته الغرامية. كرهته هانيلكا نتيجة فعلته هذه، وقررت أن (تغازل) الشاب أرفين وصارت تتبعه من غرفة إلى غرفة، وتغازله بنظراتها وابتساماتها وملامساتها إياه أثناء الرقص. لكن الشاب أبى وفاء منه لصداقة «فاتسي». قرابة منتصف الليل بدأت هانيلكا لعبتها هذه. وقرابة الفجر كانا يتعانقان في الصالون، تقبيلاً. وفي اليوم التالي حكى أرفين لصديقه ما جرى معه.

تصافحا بقوة يداً بيد. وقال فاتسي للفتاة:

- أتمنى لك السعادة.

كان أرفين شاباً أشقر، ناصع الأسنان تنم ابتسامته عن ولد صغير. عيناه زرقاوان حالمتان. بادل هانيلكا حباً كبيراً.

في لقاءاتهما في محل الحلوى كثيراً ما لعبا هذه اللعبة: يرسم أحدهما بفمه قبلة صامتة على فم الآخر وعلى الآخر أن يخمن رقم الأغنية التي سوف يستمعان إليها.

ومرة فك الشاب أزرار بلوزتها وقبل نهديها العاريين. بعدها ظلا صامتين طويلاً. كانت هانيلكا وأختها تحضران عروض فرقة ارفين

Telegram: somrlibrary

كلها وخاصة المقامة في مدرسة الرقص أو في حفلات المصانع. وكان أرفين يروي أغنية «النجم» لهانيلكا، لأنه عازف يعرف أن يروي بالسكسوفون، الحكايات.

بينما كانت أستر محط أنظار ضابط الإيقاع فيلاتو المغرم بها إلى ما لا نهاية.

ألّف أغنية وأهداها كلماتها، وذات مساء صيفي جلس إلى البيانو وغناها بصوت هادئ. ولقد أعجبت الأغنية هابتلر يانوش إعجاباً شديداً فصار يرددها كثيراً. على العكس من هيرش أشتفن الذي شبهها بالليمونادة الرخيصة. فهاجمته أستر بعنف واختصما بأصوات عالية، جعلت ماريا بيك تأتي من المطبخ وتصفع ابنتها ثم تقول لهيرش اشتفان: أمسك آلة الماندولين وأسمعنا ماذا تستطيع أن تفعل.

وجلسوا إلى العشاء. بعد قليل أتى الشيوعي شرش شاندور. ابتسمت ماريا بيك وسكبت له النبيذ.

– هل أتيت لإبلاغنا شيئاً؟ كلنا آذان صاغية – سألته. ولكن كان عليك أن تحلق ذقنك. لا يليق ما أنت عليه. لو كنت زوجتك لألهبت قدميك ضرباً.

– أنا مرهق يا عزيزتي ماريا – أجاب شرش شاندور بجدية – صدقيني إنني لا أعرف طعماً للراحة. علمني قدري أن أظل صامداً، وأكافح دون توقف، وأمارس العمل الحزبي الجيد من أجل العدالة وإحقاق الحق.

– وفي وجه من تكافح؟ سألت ماريا

– قل لنا يا شاني لأني أخاف أنك نفسك لا تعرف. تتسرع وتتخبط، ثم لا تعرف أنت نفسك من أجل ماذا؟

Telegram: somrlibrary

شرب شاندور نخب عائلة هابتلر، بجرعات بطيئة. جلس مستقيماً كالوتد في ركن الصوفة، وصالب مرفقيه، قال:

– ترين، يا عزيزتي ماريا أنني شخص غبي. هذا ما ستقولونه عني حين أذهب من هنا إلى البيت. وهذا ما تقولينه أنت أيضاً، لكن طبعاً ليس بنية سيئة. بل من قبيل المزاح والدعابة، وهذا بحد ذاته ليس قضية بالنسبة لي، لأنني لم أزعم يوماً أنني سأسعى من خلال مكاني في الحزب أن أدافع عن العدالة وليس هذا بالأمر السهل، بل من أصعب الأمور. سأضرب مثالاً على نضالي.

أوضحت لأحد زملائي في العمل أنه يوجد فائض في العمال.

كان رده على ذلك: هذا المصنع لك، وأنا أعمل لديك ومع ذلك أقنعت نفسي بأنني لن أرحل وأتخلى عن العمل.

أنا أصغيت له حتى النهاية وسألته أن يوضح ما يريده من هذا القول. وبدأت قولي كما بدأ هو. افترض أن المصنع ملكك أنت وأنك تعمل (لدى نفسك) ومع ذلك ستقنع نفسك بأنك لا تريد أن تتخلى عن العمل.

أجاب: تماماً كما تكرمت وقلت:

عندئذ سألته: ما دمت تعتبر المصنع لك ماذا تفعل من أجل ذلك؟ في اعتقادي أن من يعتبر المصنع له هو من يفعل شيئاً من أجل مصالح الناس المشتركة.

أجاب: لست جشعاً، حتى أستأثر بالعمل الاجتماعي، وأنهب المجتمع.

Telegram: somrlibrary

أجبت: ولا يجوز الاستئثار، أو النهب، لأن كلاً منا سيحظى ولو بالقليل إذا ما اكتفى بحصته. لكن من لا يقبل بهذا، هو الذي يتخذ موقفاً مشابهاً لموقفه.

إن الإنسان الذي يعتبر أن من حقه الاستئثار بالمصنع وينظر لمصالحه الذاتية الضيقة فقط، عليه أن (يضحك بعبه) لأن جماهير الناس لا تلفظه من المجتمع. وإضافة إلى ذلك إذا كان كل واحد منا يقدر عالياً العمل الاجتماعي، لا يجوز له انطلاقاً من ضميره الحي وتفانيه أن يتأخر بعد منتصف الليل لحظة واحدة عن الذهاب إلى البيت لينام. مثل هؤلاء الناس الذين يأخذون قسطاً وفيراً من الراحة، ينجزون أعمالهم بقسط وافر من السهولة.

ولما جاؤوا إليّ من النقابة واستدعوني لأوضح لهم ما حصل، سردت لهم الوقائع كما جرت فعلاً. فأثنوا عليّ لقدرتي على الإقناع ولأن أحداً غيري لا يملك الموهبة لمنطق كمنطقي.

– أنت غبي يا شاني – قالت ماريا بيك – أخاف أنك لا تفهم في السياسة، لأن ما حكيته لنا الآن، غباء بغباء...

تضطجع الآن على الصوفة وتثرثر ومثل بالع عصا بلا معنى، من الأفضل أن تشرب قدحاً آخر من النبيذ، وتغني:

رفض شاندور شرش كأس النبيذ الثانية. انتصب واقفاً:

– عزيزتي ماريا. أنا في حال صعبة جداً. ابنك الوحيد الذي شارك في القتال ضد الاتحاد السوفييتي البطل، يعاني من الأسر لمدة طويلة.

أنا في حيرة كيف يمكن أن أجرح قلب أم. لكن إذا جاءك وحيدك، فيما بعد، بصحة جيدة، وكفت عيناك من الدموع ستدركين سياسة

Telegram: somrlibrary

الشيوعيين. أنا على يقين بان السعادة بانتظاركم. عائلتك جاءت من القاع، مثلي، ومثل الأكثرية الساحقة من الفقراء، وسترين التغير الكبير الذي سوف يحصل لبناتك وأصهارك القادمين.

وسوف تسألينني: كيف لك هذه الرؤيا؟

وستكون إجابتي: القدر علمني ودلني على جهتي في الانتماء. الشيوعيون: لأنهم من يحققون حياة الرخاء للشعب العامل وأعذروني إذا ما تسببت في إزعاجكم.

صافح الجميع يداً بيد، ورحل.

في نهاية الخريف عاد هابتلر الابن من الأسر، استحم. وبعدها سمحت ماريا بيك للجيران بالدخول والضجيج في المطبخ.

حضر شاندور شرش أيضاً وصافح الجندي العائد إلى الوطن.

- العمل بانتظارك - قال له.

أمامك مستقبل زاهر في المجر الديمقراطي الشعبي على طريق بناء الاشتراكية.

ضحك هابتلر العجوز: بكى. تشاغل ودار حول ياني ونزل إلى الحانة. جلب نبيذاً. قدمه للجميع. ما لبث أن سكر.

جاءت، فيما بعد، هلنيلكا وأستر، رمقتا باستغراب الرجل القوي المجهول، ثم عانقتا أخاهما تقبيلاً؟

بعد أن أخرجت ماريا بيك الجميع من البيت، قلت سمكاً وأعدت قريشاً، وفرشت البنتان غطاء أبيض.

Telegram: somrlibrary

وبعد العشاء. نظرت إلى ابنها بعينيها الزرقاوين وقال:

– كاتو رايش ماتت. أطلقوا على الطفلة اسم ماريا.

هزّ هابتلر العجوز رأسه.

– أوو. خسارة كبيرة – قال مخموراً

– أحببت اباها كذلك كان طيبين يستحقان الحب.

أجهشت غيزيكا بالبكاء. وصرخت:

– كفى يا أبي. كفى.

صمت الجميع طويلاً. قال ياني إنه متعب. فرشت ماريا وناموا.

وفي رأس السنة اشترت الفتيات لياني، طقماً وقميصاً وربطة عنق وحذاء. وبعد أيام بدأ عمله خراطاً في مصنع في «أرض الملاك – أنجل فواد».

وفي رأس السنة رتبت الفتاة حفلة منزلية، شوت ماريا بيك وطبخت. شرب الكبار النبيذ ولعبوا الورق، والشبان رقصوا وغنوا، وقبل منتصف الليل بساعة قالت ماريا بيك لـ «فلاتو ياني»:

– اذهب وأحضر أمك. لا تدعها وحيدة في البيت. قبل الشاب يدها ذات الأصابع المعقوفة وبرفقة أستر أحضر أمه بالتاكسي.

لم تبد المرأة ذات الحلي والشعر المصبوغ بالأشقر، بأنها تشعر بالراحة، بل تسمرت على كرسي، وكانت تلتفت بترفع. وإذا ما قدم إليها الشراب أو الطعام رفضته بإيماءة متعجرفة.

فيما بعد سعى كل من تشالا يولى وشابت بيلا، أن يتقربا منها ويبديا وداً نحوها لكنها حدجتهما ببرود، فكفا عن مسعاهما.

Telegram: somrlibrary

جلس ياني في الركن على صندوق أبيه العسكري، لم يرف له جفن، يحدق في المرآة. ثم انتصب وقال بصوت مرتفع:

- تباً لكل امرأة لم تدس إصبعها في الماء البارد.

خرج، لاطماً باب المطبخ فوقع زجاجه. صرخت الفتاتان، وضحك هيرش أشتفان، وتقدمت ماريا بيك من السيدة:

- لماذا تجلسين كالطاووس - سألتها

- اخلعي بلوزتك، سأغسلها لك.

احمر فيلاتو تماماً، وابتعد عن أمه. شلحت ماريا بيك الشال على كتفيها وانطلقت تبحث عن الشاب فوجدته مستنداً على جدار قبالة الحانة، يتأمل ندف الثلج الخفيف. رجعت صامتة إلى البيت. وجلست بين لاعبي الورق. وقد باتت أحاديثهم لها رائحة النبيذ، فصاروا يلعنون أيادي بعضهم ويتضاحكون كالأطفال الصغار ولم يبخل العجوز «كالاوز» بالتفاتة إلى الوراء.

- قلت إنها ماتت؟ - سألها.

كان قد رجع هابتلر الابن. بينما كان الشبان يضجون في الجانب الآخر من الغرفة.

قطعت أستر علاقتها مع «فيلاتو» الذي بعث لها هدية فراقهما مبسمة سكسوفون وكتب لها أنه سوف ينتحر.

مضى الشتاء، وبعده الربيع. وفي نهاية الصيف طلب هيرش أشتفان من حماته ألا تسمح لابنته آغوثا باللعب مع ابنة تشالايوي. فنشب عراك كبير اتهمت فيه ماري بيك صهرها بمرض التمييز.

Telegram: somrlibrary

– ماذا تظن نفسك؟ من أنت؟ صاحت.

هابتلر ياني وقف إلى جانب صهره قائلاً إن يولى تشالا جيفة خسيسة، لصة، ستقضي في السجن. وابنتها صورة طبق الأصل، لن تختلف عن أمها.

عملت تشالا في مصنع للشوكولاته، وكانت تسرق، كالعقعق.

وإذا انتابتها فترات من الضجر وفقدت مزاجها في العمل كانت تخلط ملحاً في القهوة الثقيلة، وتنفجر في ثرثرة صاخبة، وفي فترات جدولة الأمراض كانت تستغل الوضع تجارياً وتعقد صفقات رابحة في ساحة «تلكي»، ومع ذلك كانت مثقوبة اليدين ولا تملك مالاً.

مرة واجهها شاندرو شرش بلهجة موبخة وهو جالس على صوفة المطبخ، كالوتد المستقيم، وكان شاحب الوجه، يشع الغضب من عينيه:

– في النظام السابق، إذا ما حاول أي شخص أن يسيء للمجتمع الرأسمالي، كانوا يوقفونه بأقصى سرعة عند حده، أسرع من الآن.

انتظر لحظة ثم تابع بصوت أعلى وأكثر تهديداً:

– حرص الرأسمالي على ثروته، كان أشد من حرص الكثرة الكثيرة من الناس على ثروة الشعب، أمثال هؤلاء لا يخافون إلا على ثرواتهم الخاصة التي تؤمن لهم مكاسب إضافية. إن ثورة الديمقراطية الشعبية، التي لا تتشكل من جيوبهم هم، لا تأخذ بعين الاعتبار كم يساوي واحد رخيص من أمثالك. أنا، طوال فترة عملي في الورشة، كنت حريصاً على ثروة الشعب، وما زلت إلى الآن لأنني أشعر أنني إذا تخليت عن هذا الحرص، فإنني أخدع نفسي وأخدع الآخرين الذين يهمونني.

Telegram: somrlibrary

استدارت ماريا بيك وسألته:

– يا وجه السعادة، إذن تخليت عن العمل في الورشة؟

– تخليت عن العمل هنا يا عزيزتي ماريا – أجاب مزهواً

– منذ أيام رقّاني الحزب، وعينت في دائرة عمالية شديدة الخصوصية وأسارع إلى القول إنني لا أستطيع أن أقدم إيضاحات ولا إجابات عن الأسئلة المتعلقة بما ينتظرني من أعمال. تبسمت ماريا بيك.

– وأنا، إذن، لن أسألك شيئاً، يا شاني على اعتبار أنك صرت شخصاً مهماً يشار إليك، بارون الديمقراطية، وقد يأتون على ذكر اسمك في الصحف. وسنكون فخورين بك وسعداء بأنك تشرفنا بزيارتك لنا. لكن يا شاني، يدور في بالي أن عليك أن تكثف من حلاقة ذقنك. وغالباً أن تبدل قميصك لكي لا يعترينا الخجل بسببك.

بدا أن شاندرو شرش فكر بالجواب. فقال:

– عزيزتي ماريا. الحق معك. إنك لو ظللت تهزئين مني إلى الأبد. أعرف أنك تحبينني. وهذا يلغي عندي سوء نيتك تجاهي. ولن أغضب منك لأنني أؤمن أنك، بتأثير من توجيهاتي سوف تنتسبين إلى معسكر النضال الشيوعي. لأن هذا مكانك، وانتماؤك البروليتاري يعني الكثير من المساعدة للديمقراطية الشعبية. وباختصار فيما يتعلق بالمسألة السابقة، أن أحد الرفاق المرموقين في الحزب هو من لفت انتباهي إلى ذلك. وبناء عليه أسلك سلوكي هذا.

وفي الحقيقة، بعد أيام حضر شاندرو شرش إلى بيت هابتلر بكامل أناقته. طقم أنيق: قميص ناعم، ربطة عنق تنم عن ذوق. وجه حليق. ومن يومها لم يروه إلا هكذا، أنيقاً، مرتباً. بدا هابتلر الأب بتحفيزه

Telegram: somrlibrary

وبلهجة ودود، وإطلاق نكات سياسية ملغوزة، ووجه باسم يصطنع السذاجة صار يستفسر ويطلب توضيحات عن الفرق بين الأسياد السابقين وكوادر هذه الأيام وما يقومون به من أفعال.

وإذا بالغ في القدح كان يغضب شرش شاندرو ويغيب أياماً عن زيارتهم.

مرة في نهاية الصيف قال لهابتلر الأب:

– عيني في عينيك يا يانوش. أنت تعتبر نفسك ذكياً، بينما لم تتصفح في حياتك كلها جريدة أو تقرأ كتاباً. وأنا أقول أمام وجهك الآن أنك بالكاد تعرف القراءة أو الكتابة، أما أنا فلا أزعم أنني شخص ذكي، لكنني أؤكد أن الجهل الذي تعاني منه ليس خطأك أنت، بل جريمة من جرائم فاشية «هورتي» وظلمه.

أنا أيضاً أعاني من عبء ذلك، إضافة إلى كثيرين من جماهير البروليتاريا. لست أعتبر نفسي ذكياً، لكن عندما كان الألمان لا يزالون يحاربون في الساحة الروسية، كنا، نحن الشغيلة النقابيين، ندرك أنه إذا ما دارت الأيام، وتغيرت الأوضاع في بلادنا، سوف يحتل مراكز المسئولية بشر آخرون يختلفون عن السابقين. وهذا ما حصل فعلاً. والآن ما مشكلتك؟ م تشكو؟ من يسيء إليك أو يزعجك؟ كنت طول حياتك تنحني أمام الأسياد فهل يشدك الحنين إلى ذلك؟ لماذا تهزأ مني دائماً. أنا أجيبك. لأنك إنسان ساذج وغبي لا توفر شيئاً عن التغيرات التي تجتاح العالم. وكن على يقين أنه ليس بالإمكان السخرية من الإيديولوجية الماركسية. ليس بالإمكان السخرية من نظامنا، من شيوعيينا الذين يناضلون، وأنا من بينهم، من أجل مستقبل بناتك وأصهارك وأطفالك، ومن أجل سعادتهم.

Telegram: somrlibrary

عجز هابتلر الأب عن الإجابة، لأن ماريا بيك طردت شاندرو شرش من البيت. و لم يفتح في بيت هابتلر بعد ذهابه أي حديث يدور حول هذه الحادثة المؤسفة.

في الخريف دعا آرفين الهادئ المسالم ذو العينين الزرقاوين إلى الجندية، فتبعثرت الشلة.

عصر اليوم الأخير جاء الشاب لوداع هانيلكا، فترافقا في نزهة في شوارع المدينة.

عند الغروب توقفا عند ملتقى شارعي راكوتسي، والشارع الدائري، يتأملان الزحام. قالت هانيلكا:

– كل أسبوع سأكتب لك أنني أحبك حتى الموت.

في استراحة قريبة شربا (ليكور بالشوكولا) وقبلا بعضهما.

في منتصف الشتاء أقيم في مصنع التراكتورات برنامج تضمن فقرات مرحة. وتومبولا ورقصاً. رافق الأورغ التوأمان نيكوديموس على السكسوفون، والبستون، وضبط الإيقاع على الطبلة رجل في السادسة والثلاثين من العمر، نال إعجاب هانيلكا، فبدأت مغازلته بنظراتها ورقصت أمامه مرات، وتبادلا الابتسامات. وفي فاصل الاستراحة حيا التوأمان نيكوديموس لأستر، وهانيلكا وأبلغاهما بزهو أن هذه الفرقة المتواضعة تعود لهما وقد شكلاها منذ مدة قصيرة.

اقترب منهما الطبال. قدم نفسه: «ميكي مومل» وطلب موعداً من هانيلكا.

كان يلتقيان في كافيتريا – الشباب، عصر كل أربعاء من الساعة

Telegram: somrlibrary

السادسة حتى الثامنة. طاولتهما ركنية نصف مضاءة في القسم الطابقي من الكافيتريا. أوضح «ميكي مومل» منذ اللقاء الأول أنه يعيش منفصلاً عن زوجته وأن ابنته بعمر عشر سنوات. بعدها سرحا في القبل كان ميكي مومل شخصاً بانورامياً منوع المواهب ومتحدثاً بارعاً، يستخدم كلماته البذيئة دون أثر منفر. تحدث كثيراً عن العلاقة بين الرجل والمرأة وقال إذا ما أحب شخصان بعضهما، فإن الحياة الجسدية تتماشى مع الحب وأحياناً قرأ أشعاراً لهانيلكا، وحدثها عن لا معنى وتفاهة الحياة، وعلى نحو ممزوج بالفكاهة قال لها: إذا ما أردت أن تتخلص من عذريتها فلتخبره. ضحكت هانيلكا قائلة: حسناً سوف أخبرك! وكانا يتعانقان في كل لقاء. كانت هانيلكا تحب سقوط الثلج. كانت تشرد في غيمة وتحس أنها ترتفع باتجاه السماء. وكان ميكي يمارس معها الحالة نفسها ويقولان لبعض: سنطير من العالم.

تراشقا بكرات الثلج، ضحكا، لكن هانيلكا كانت تودع ميكي عند زاوية من ساحة الجمهورية دون أن تسمح لنفسها أن يرافقها حتى مدخل البناء.

ارتادت هانيلكا أماكن الرقص كثيراً، وتعرفت على كثير من الشبان الذين تبادلت معهم القبل. وأخبرت الطبال بكل مغامراتها العابرة هذه.

همهم ميكي متفحصاً المتوالية العشقية لهانيلكا وتضاحكا عالياً. تحدث في آذار ميكي مومل في السياسة، تفوه بشيء ما، فكان من نتيجة ذلك أنه لم يستطع أن يجد عملاً إلا في مؤسسة السيرك. وكان حزيناً.

كل أحد كانت هانيلكا تكتب رسالة لأرفين وتختمها بطبعة من حمرة جورية من شفتيها فوق اسمها في نهاية الرسالة.

في موعد كأس الشاي الساعة الخامسة تعرفا على الرسامين الهندسيين

Telegram: somrlibrary

الوسيمين. «سيلارد جولاش» الأشقر، وبرش لوتسي الأسود الشعر. القاطنين في شارع «سيف» «قلب» في شقة من ثلاث غرف لعجوز عانس متقاعدة صماء تماماً. دعا أستر وهانيلكا وصديقتهما «آنجل» إلى حفلة منزلية. شربت الفتيات القهوة، والليكور الحلو، وشرب الرجال الكونياك.

كانت الغرفة واسعة، غطت أحد جدرانها سجادة حائطية كبيرة. وبين النافذتين راديو على طاولة، في الزاوية طاولة تدخين، أربع كنبات وكلوب معدني، وكومادينو بلون بني غامق.

في اللقاء الأول كان الحضور مؤلفاً من سيلارد وجولاش ولوتسي برش، فيلكا طالب الطب البدين ونظاراته، وشخص مقنع، وشخص متقدم في العمر، لا احد يعرف من أين يكسب مصدر عيشه. لعبوا الورق، استمعوا إلى الراديو، قصوا الحوادث الطريفة وكثيراً من النكات فتآلف الجميع في شلة كبيرة متنوعة، في البيت. توافدت نساء ورجال جدد، تناولوا القهوة والكونياك، وتطرقت أحاديثهم إلى الأفلام السينمائية، والموضة، وأثنوا على «فيامالا»، وأعطوا أماكنهم لآخرين جدد.

أحبت الفتيات هذا اللقاء الحر البعيد عن أية التزامات ضاغطة، انفردت هانيلكا غير مرة بالشاب سيلارد.

نظمت، رتبت، كيفت الغرفة بفتح النوافذ، وجهزت ذات مرة عشاء لذيذاً من حواضر كانت في المطبخ، فكانت المرة الأولى التي تطهو فيها فابتهجت للحالة.

تحدث سيلارد عن أهله. قال إنهم يعيسون في الريف، أبوه موظف في دائرة تسجيل الزواج وسألها إذا ما كانت تتصور نفسها زوجة هذا البيت، فابتسمت وأجابت:

Telegram: somrlibrary

– ربما.

وبعدها غرقا في التقبيل.

وفي إحدى أماسي الخريف نقصت الشلة. بقي في الشقة فتاتا هابتلر، آنجل، جولاش، برش لوتسي، فيليكا. كان الجو كئيباً فرغبت هاينلكا بالذهاب إلى بودا فقد سمعت أن أرفين يعزف في مدرسة الرقص.

– لنستمع هنا إلى مقطوعة النجم – قالت لأختها الكبرى ترجوها الذهاب – سيعزفها لنا حتماً. لم يكن لأستر مزاج في الذهاب تحت المطر، وبقيت في ركن الغرفة إلى جانب برش لوتسي. أما آنجل فقد اشعلت مصباح الكلوب المعدني، وجلست على كنبة وأسلمت فمها لـ «فيليكيا». بينما راحت هانيلكا تتأمل شارع «سيف» المظلم لمس جولاش يدها

– تعالي لكي لا نزعجهم

في الغرفة الثانية لم يضيء جولاش مصباحاً، جلسا على الكنبة، وتراخت في الظلام تاركة نفسها لقبلات الشاب حتى إنها لم تعترض، بحركة قاسية من الرجل صارت مستلقية.

بعد دقائق أسحت بالأ لم يملأ جسدها.

لم تنبس بكلمة و لم تبك. حين اضاء جولاش المصباح بيده المرتجفة، حدجته بنظرة قاسية ثم رتبت نفسها وخرجت إلى الغرفة الثانية. وقالت:

– لنذهب.

في الشارع سألتها أستر مذعورة:

Telegram: somrlibrary

- ما الخطب؟

التفتت هانيلكا بوجهها المخضر إلى أختها الكبرى، وهزت كتفها.

- يا إلهي!

ظلتا صامتتين حتى البيت، حيث كان السكون مطبقاً. ياني نائم. غيرت الفتاتان ثيابهما، واندستا في السرير، أغفت هانيلكا في الحال، رنت نحوها أستر مشفقة ومسحت شعرها الصبياني القصير وشهقت تبكي بكاءً صامتاً.

بعد ذلك بحين لم تلتقيا هذه الشلة وبعد أسابيع جاء ميكي مومل من الريف. تلفن لهانيلكا في مصنع التراكتورات. والتقيا في استراحة الشاباب وروت حادثتهات المؤلمة بلهجة لاذعة خبيرة. غضب ميكي وضرب بقبضته الطاولة. ونعت جولاش بالحيوان المخادع، البربري.

وقال فيما بعد، إنه لو مكانه لعرفت هانيلكا أقصى حالات السعادة. وحدد موعد اللقاء القادم في مقهى «هاور». عرفت هانيلكا أن صديق ميكي يقطن قريباً من هناك فطلبت من صديقتها «آنجل» أن تأتي معها في الساعة السادسة والنصف، ملبية دعوتها إلى السينما. حضر ميكي في الساعة السادسة تماماً، تطرق في الحديث إلى بعض المسائل اليومية الاعتيادية، وترقبت هانيلكا أن يبدأ طرح مشروعه. وقبل دقائق من وصول آنجل سألته:

- لماذا التقينا هنا؟

فوجئ ميكي مومل. اشعل سيجارة وقال:

- في هذا البيت يسكن أحد الأصدقاء. أتمنى لو تصعدين معي.

نظرت إليه هانيلكا وقالت:

Telegram: somrlibrary

– حسناً.

كانت وصلت آنجل، ملوحة ببطاقات السينما، وبدأت تقص بطريقة فاشلة أنها وصلت بصعوبة إلى هذا المكان، وكادت أن تضيعه، والذي ساعدها في التعرف إليه أن أستر أفاضت بتعيين إحداثياته. ولامت هانيلكا لأنها لم تولِ برنامجها السينمائي المشترك اعتباراً.

– هيا.... لنذهب – قالت بغضب ظاهر

– لكي لا نتأخر

ابتسم ميكي هازئاً. وبترفع.

– أرجعي البطاقة – قالت هانيلكا

– لا وقت لدي هذا المساء.

وصعدت إلى الشقة. حياها صديق ميكي «أقبل يدك». واعتذر قائلاً إن لديه عملاً وعليه ان يخرج في الحال. فليتصرفا في البيت بحرية. كل شيء متوفر: الكونياك، القهوة السوداء، وعليهما إيداع المفتاح لدى ناظر العمارة. وذهب، بعد هدوء أليم سألت هانيلكا:

– ألا ترى هذا مضحكاً؟

تلاقت نظراتهما الحزينة. اشعل بعدها ميكي سيجارة وقال:

– خربوك، يا بنيتي، إلى الأبد.

كعادتها عند موسم تفتح الأكاسيا من كل عام سافرت ماريا بيك إلى «بروغتش». وفي يوم أحد ربيعي كانت غيزيكا تغفو على الصوفة. وياني أخذ آغوثا ينزهها خارج البيت. هيرتي إتنغان يتململ ضجراً، ويتصفح اوراقاً له، فدعا الفتاتان لسماع موسيقى، ذهبوا إلى مطعم

Telegram: somrlibrary

كورفيني وتناولوا العشاء. وهناك تحدث هيرش عن طموحه في شراء منزل خاص وأنه يحتاج إلى عشرين ألف فورنت، سيحصل عليها بأية وسيلة. عند طاولة مجاورة ركز رجلان نظراتهما محدقين في أستر. الأول متوسط القامة أسود الشعر والثاني أشقر وطويل، تململت هانيلكا، تثاءبت وقال: لنذهب إلى البيت حان وقت النوم.

عند الباب نادى الرجل الأشقر أستر: أعتذر للإزعاج، قدم نفسه وقال:

– أرغب في أن ألتقي حضرتك.

في اليوم التالي التقيا في «بريستول» موعد شاي الساعة الخامسة. رقصا. تحدثا، قال الرجل الأشقر إنه رئيس ورشة بناء في «ميشكولتس» ويقتني دراجة نارية ذات عربة جانبية. وسأل أستر عن مكان عملها وكيف تقضي وقتها. وأي الأماكن ترتاد للترويح عن نفسها... وماذا تعمل على العموم؟

بعد أسبوع التقيا في «أستوريا». ولكنهما لم يجدا موضوعاً مشتركاً للحديث فظلا صامتين. وقررت استر أنها حسمت أمرها مع الرجل الأشقر. بعد أيام هتف هو لها قائلاً إنه سيأتي يوم الأحد إلى«بست» مع صديق له، وسينتظرانها مع أختها هانيلكا في مطعم «أمكه». مساء الأحد تعرفت في «أمكه» الرجل المتوسط القامة الأسود الشعر «زنتاي جورج». لم يتفوه. جلس صامتاً عند الطاولة دون أن يزيح عينيه عن وجه أستر. وإذا التقت عيناه بعينيها تبسم بارتباك. فيما بعد راقصها. وطلب منها أن ترافقه إلى البار لأنه راغب في أن يعرفها على والده. كان العجوز زنتاي يجالس شلة تناسب عمره «قبل يدها» بلهجة واثقة. إنه لم ير مثيلاً لجمال الفتاة. وهكذا قدمها للشلة.

Telegram: somrlibrary

- خطيبة ابني.

رجع جورج زنتاي من أجل هانيلكا. وصديقه، هيأ العجوز مكاناً. وطلب الكونياك، والفليب بالشوكولا، وابتاع وردتين للفتاتين. وراقصهما. وروى لهما الحوادث المسلية الطريفة وضحك الجميع كثيراً.

في الأحد التالي التقت استر الرجل الأسود الشعر في مقهى «بالما» «النخلة». تأخرت نصف ساعة، ولكن جورج زنتاي لم يكن غاضباً، بل تأملها بعينين يغمرهما بريق سعادة وقال بهدوء:

- كنت خائفاً أن تنسي الموعد. طلب قهوة سوداء. أوضح لها أنه منفصل عن زوجته. استغربت أستر

- طفل ومتزوج؟

أنصت جورج لحظة، ثم تحدث عن الكتب،مشيراً إلى فرنتس هرتسغ، كرونين، دوستويفسكي، وقال بهدوء:

- هؤلاء أصدقاء جيدون غالباً ما يسامرونني، حتى الصباح.

فيما بعد بالتاكسي، صعدا إلى أولدفرنزا وشربا سينزانو. قال زنتاي إن أباه كان يعمل في البوليس السري، وأمه انتحرت. وأمه بالتبني كانت تشرب الروم سراً، ومرة أتته عارية إلى غرفة الدراسة ومصت شفتيه في قبلة طويلة. كان حزنه مؤثراً وهو يروي هذه الأحداث.

بالتاكسي أوصل أستر إلى بيتها بعد دقائق من إغلاق باب العمارة. وفي يوم اسمها صعدا إلى الوالدين هابتلر أولاً وحمل للفتاةوردةحمراء. وألبوماً للأورغ وأشعار «جيرالدي». أحبها وأحبته. وكانا كل أحد يقومان بجولة على دراجته النارية - تشابل.

Telegram: somrlibrary

وفي الصيف حصلت هانيلكا من النقابة في مصنع التراكتورات على بطاقة اصطياف إلى بحيرة «البلاتون».

بينما اصطافت أستر في «فولدفاري» وجورج زنتي في «بلاتون فنفش».

وفي مساء يوم سبت التقيا في حديقة مرقص «لؤلؤة البلاتون». اصطحب جورج زميله في الاصطياف الموظف «ديترا لاسلو» وأخته الكبرى مارغريت.

ولاسلو هذا ابن ضابط جمركي متقاعد، أسود الشعر، أخضر العينين في الثالثة والعشرين.

كان جل اهتمامها مقتصراً على المسائل التجريدية، يوغا، قراءة النجوم، التقمص، التنويم المغناطيسي، ولكنه راقص هانيلكا كثيراً وطلب منها أن يلتقيا في بست أيضاً.

وفعلاً. التقى الجمع في استراحة - الشبان. وهناك حدث ديترا لاسلو هانيلكا عن المسيح كأعظم منوم مغناطيسي. وفي رأيه أن هذا العرس القاني عندما صير المسيح الماء نبيذاً ما هو إلا ممارسة للتنويم المغناطيسي الجمعي.

هكذا صاح المسيح - الآن اشرب نبيذاً - فنشأت الخدعة الشعورية.

وفيما بعد شرح انبعاث إليعازر بقوله إنه مازال يعيش في الشرق حتى اليوم سحرة، يقبرون أنفسهم، وفي وقت محدد يفضون لحودهم فيبعثون أحياء من جديد. قال إنها حالة التركيز الأقصى، وإنه يجريها لكنها نادراً ما تلقى نجاحاً.

Telegram: somrlibrary

وسبب فشلها تزاحم الأفكار الأخرى وبروزها إلى السطح والشرط التركيز على فكرة واحدة لا غير. هذه نقطة البدء في التعلم. ووعد هانيلكا أنه سيريهما في أقرب وقت، كيفية الجلوس في رياضة اليوغا، والذي يشترط التحرر من العالم وكيفية التنفس عبر المعدة.

بعد ذلك تحدثت هانيلكا عن أسرتها، عن الموسيقى والشباب. ثم خرجا يتمشيان في ساحة الجمهورية وجلسا على مقعد يتعانقان.

تمت خطبة أستر في عيد الميلاد. وصار جورج زنتاي يسكن في شقة بالإيجار في شارع «ناج فرو»، لدى رئيس قسم «المرايا» ماندل يانو وفي عيد ميلاده منذ الصباح دعا الفتاتين بقصد الذهاب للرقص في مكان ما. وبصحبة ديترا الغرفة المستأجرة الصغيرة. كان جورج قد أعد مسبقاً سندويتشات الكافيار، والسلامي، واللحم المقدد. وفرقعت زجاجة النبيذ، فانسكب نصفها رغوة على الأرض. أداروا الراديو يستمعون إلى الموسيقى، وفيما بعد، طلبت الفتاتان للغناء فأدتا أغنية «في قرية اسكوتلاندية صغيرة عيد. الناس هناك يعيدون...» وأغنية وقت الصيف وشارك جورج الفتاتين بأداء الأغاني الشعبية القديمة وظل ديترا صامتاً لأن إصغاء الموسيقى كان سيئاً. بعد منتصف الليل بوقت طويل قالت هانيلكا إنها نعسانة. فرش جورج بطانية على الأرض وكانت المخدة مسنداً من مساند الصوفة فاستلقت هانيلكا بكامل ملابسها إلى جانب الشاب ذي الوجه اليوناني. واندست أستر مع خطيبها في السرير الضيق، و لم يلبثا، بعد إطفاء الأنوار. أن بدآ العناق.

انبثق ضوء الفجر من خلال النافذة، وسمع صوت الترام هادراً في مكان ما. رتبت استر شعرها قائلة جاء الصباح. هيا إلى البيت:

في نهاية شهر شباط«فبراير» طلب ديتار من ماريا بيك أن تسمح

Telegram: somrlibrary

لهانيلكا بالذهاب إلى الحفلة المنزلية الصغيرة في بيت خطيب أختها الكبرى، والبقاء حتى وقت متأخر بعد إغلاق باب العمارة. حدق هابتلر يانوش الأخ بعينيه الصفراوتين في الشاب الوسيم دون أن ينبس بكلمة.

خطيب مارغريت يسكن في شارع «لوني» واسمه جولا شوهابا، يعمل تاجر تحف قديمة.

فوجئت هانيكا حين فتح باب الصالون الضيق شخص شاحب، ذو شارب. في حوال الخمسين من العمر... قادهم تاجر التحق إلى غرفة واسعة، يشيع فيها الدفء. ويضيئها مصباح «كلوب» وحيد منتصب على جهاز راديو قرب نافذة مغطاة بستارة سميكة. عبر هذه الإنارة بدا كل شيء في الغرفة بنياً. الأثاث الأنتيكي، السقف، الجدران، أغطية الصوفات. وفي الركن ماغناتوفوت يتولى غدارته شخص وسيم أسود المقلتين، وإلى جانبه أنواع المشروب وأنواع الكعك الحلو، والكعك المالح على طاولة واطئة. وعلى كنبات جلس كل من الشاب الجامعي ذي الوجه الأنثوي، وزميله الوسيم بنظارتيه، ومارغريت النخيلة ذات الخامسة والثلاثين من العمر، إضافة إلى تاجر التحف المبلل الوجه. تحدث عن فن القرن السادس عشر، وعرض بعض التحف الناعمة الصغيرة، ومنها تمثال من البرونز لبوذا. طلبته مارغريت ورأته مع هانيلكا. تبسم تاجر التحف وقال لهانيلكا: ينبغي أن نقرأ عبر سطوة هذا التمثال شيئاً هو الصمت الحكيم، وفيما بعد قرفصت قرب الماغناتوفون، تبحث برفقة الملقم عن موسيقى مناسبة.

حين صدحت خفيفةً سيرنادا ضوء القمر، دعت الشاب للرقص، طووا السجادة ورقص الجميع. طبع ديترا قبلة على جيد هانيلكا - هذه الموسيقى كثيفة. معبأة بالشهوانية - تبسم. أطبقت هانيلكا جفنيها موافقة - صحيح - أجابت انتهت مقطوعة رافايل.

Telegram: somrlibrary

وعند النغمة الأولى بدأ ملقم المغناتونون بهز خفيف لوسطه وردفيه، ثم راح يرقص منفرداً في الجو الغبشي. وسرح متناسياً من حوله، مبتغياً متعة شخصية وحين انتهت الضربة الأخيرة للإيقاع، أطفأ المغناتونون وقال:

- في الأساس تمارس هذه الرقصة بأجساد عارية تحت وشاح.

صب تاجر التحف الكونياك. وأهاب بهم أن يتركوا الرقص ويلعبوا لعبة جماعية، من يخسر فيها يخلع قطعة من ثيابه كل دور، وإلا كانت اللعبة مملة لا حياة فيها. اقتعدوا السجادة، وبدؤوا في رمي حبات النرد. هانيلكا حالفها الحظ فترة طويلة جداً. وخسر ديترا، وصديقه فحلّ كل منهما ربطة عنقه وخلع قميصه، فجلسا جنباً إلى جنب شبه عاريين.

وفي أول خسارة لهانيلكا خلعت حذاءها ثم جوربها الطويل، فيما بعد. أما تاجر التحف فصار عاري الساقين لا يحجب سرواله الداخلي الأبيض الظاهر إلا القميص. لمحته هانيلكا. وانفجرت ضحكتها. لكنها في الرمية التالية تجهمت، قامت إلى الزاوية ببطء، فكت سحاب فستانها الأسود، ثم زر العنق. ورجعت إلى مكانها بثوبها الداخلي. واقتعدت على ساقيها فوق السجادة. بعد ذلك خلع الملقم الموسيقي الوسيم قميصه الأزرق الغامق فانكشف ساعداه عما يبرز شعار فصيل الطيران وتحته بلوزة خفيفة. فيما بعد انسلت الفتاة الجامعية ذات النظارات من ثيابها. وصارت مارغريت بالسروال الداخلي، والحمالة الصدرية. تاجر التحف جعل هانيلكا محط نظراته. ولاصق الشاب ذو الوجه النسائي مارغريت، وبدأ يداعب ظهرها. بشرتك مخملية - قال:

- مخمل ملتهب.

الرمية التالي كانت لهانيلكا. رمت حبة النرد، ونظرت مذعورة،

Telegram: somrlibrary

محبوسة الأنفاس، وضحكت من نفسها بصوت عال. نظرت إليها مارغريت.

والآن يا أولاد. أنا اكتفيت من هذا. غضب المبلل «تاجر التحف» قائلاً: لا يجوز إفساد مزاج سبعة أشخاص آخرين. أومأت لها مارغريت وقادتها من ذراعها إلى الغرفة الأخرى وبدوره، اختفى الملقم الوسيم، وصديقته ذات النظارات وراء باب بني اللون، وحدق الشاب ذو الوجه الأنثوي في مارغريت ثم لحق بهم. بقيا في الغرفة الغبشية وحيدين.

أدركت هانيلكا الماغنتفون، بحثت عن مقطوعة رافايل، وعانقت الشاب.

– بدافع الضجر حسب رأي في بيت الغرفة، المطبخ صار يانوش هابتلر الابن الفتاتين، يختلق مشكلة عصر كل يوم حين يرى أنهما قد أنهيا الاغتسال وتسريحة الشعر، ورسم أحمر الشفاه على فميهما.

– أين ستذهبان أيضاً؟

«امتلأت هانيلكا غيظاً»

– إلى شغلنا.

– إلى المقهى – صرخ ياني.

– وماذا ستفعلان في المقهى؟

ضربت هانيلكا طاولة المطبخ:

– نجلس – صرخت

– نجلس.

– نجلس، نجلس – صرخ ياني.

Telegram: somrlibrary

قهقهت ماريا بيك.

– اية جهنم تريد من الفتاتين؟ لم لا تذهب معهما؟

– تفضل – قالت أستر

– تعال معنا.

حدق فيهما ياني.

– أنا؟ إلى هناك؟ أنا؟

وأصدر قهقهة ساخرة.

في المساء بث شكواه إلى والده بصوت مشوب بالمعاناة:

– أمس أيضاً رجعتا بعد إغلاق الباب. إنهما تدخنان بين اللصوص وتحتسيان الـ ... الجهنم بالشوكولا. ولا يعني هذا شيئاً....! لا يعني شيئاً....!

وبخته ماريا بيك،تشاجرا، تصايحا. وكان أن أفصح هابتلر العجوز قائلاً إن من المحزن والمعيب إذا ما بدأ الجيران ينتبهون إلى تأخر البنتين اليومي بعد الحادية عشرة ليلاً، وصاح بنبرة حاسمة متوجهاً إلى ماريا بيك.

– أنا لا أحتمل هذا. قولي لابنتيك إذا ما تأخرتا ولو دقيقة واحدة سأختلق مشكلة.

في اليوم التالي وصلت الفتاتان بعد الإغلاق بدقائق قليلة. نهض هابتلر العجوز من السرير، وتلقفها بصفعة جعلتها تقع على الأرض ثم جاء دور هانيلكا فضربها. ولولت ماريا بيك، ودفعت زوجها عبر الباب، ثم هجمت على الفتاتين تهز قبضتها:

Telegram: somrlibrary

- تستحقان هذا، انصرفا إلى النوم.

سألت هانيلكا أخاها ياني:

- أنت سعيد الآن؟

بقي ياني مستلقياً على الصوفة يرمق أخته بعينيه الصفراوين. وأجاب:

- من دواعي سعادتي أن أقوم الآن وأشبعكما ركلاً.

كان ديترا لاتسي شخصاً فطناً، شديد الانتباه. دائماً كان يلاحظ تسريحة هانيلكا الجديدة، أحمر الشفاه المختلف وعندئذ (يقبل يد) الفتاة ويثني على ذائقتها الرفيعة. وكانا يتعانقان ويقبلان بعضاً في المقهى والشارع وأمام باب البناية مساءً، ولذلك كان البعض يثيرهما بتعليقاته الساخرة. مرة قال العجوز زنتاي متضاحكاً: ماداما يحبان بعضهاً فما المانع أحياناً أن يندسا تحت الغطاء. وبادر إلى تقديم غرفة بالإيجار. بعد أيام قالت هانيلكا لـ «ديمترا» باسمة:

- و لم لا نصعد.

كان العجوز زنتاي يسكن في وسط «كورفين» اصطحبهما إلى الغرفة قائلاً إنه سيعود حوالي الساعة الثامنة والنصف. تبادلا العناق والقبل طويلاً على الصوفة ثم طلبت هانيلكا من ديترا أن يدير وجهه، تعرت واستلقت في السرير وسحبت الشرشف حتى جيدها. وحين اندس إلى جانبها كانت تدير وجهها إلى الحائط. وبقيا فترة طويلة دون أية حركة. يدخنان معاً حتى قال ديترا:

- ليس جيداً هكذا. التخطيط للمسألة غير جيد.

- كلا - قالت هانيلكا.

Telegram: somrlibrary

– ليس جيداً.

ثم نهضا يرتديان الملابس وانصرفا.

ومن بعدها لم تقع عينا هانيلكا على الشاب الوسيم ذي الوجه اليوناني، و لم يحضر ابداً.

في الصيف ذاته اصطحب جورج زنتاي الفتاتين هابتلر بالقطار إلى المصيف في «شيوفوك». أحضر المشروب وعاد برفقة رجل زميل سابق له في المدرسة الداخلية. كان الرجل وسيماً، متواضعاً، قليل الكلام، قاصداً المصيف ببطاقة من مؤسسته.

وفي طريق العودة مساءً، قاسمهم المقصورة. كان يرمق هانيلكا بنظرات طفل متأمل مندهش وفيما بعد سألها بهدوء:

– أنلتقي في بودابست؟ أجابت هانيلكا ضاحكة:

– طبعاً.

التقيا في مقهى الشباب. هو يدعى ميلكوت سوها. وقال إنه ابن لعائلة من ملاك الأراضي، يعيش مع والديه ويعمل فنياً في مؤسسة للبناء. ولكنه من الكوادر السيئة، ولا يفيد في شيء أنه متفان في عمله، لأنه مشار إليه ومصنف من الجميع. أبوه مريض، وأمه تعمل في نقابة الصناعات المنزلية. ويعيشون بصعوبة. لكنه على الأقل، ليس قلقاً من أن يزاح من موقعه في العمل. أبدت هانيلكا أسفها وتعاطفها. وفي طريق العودة إلى البيت تبادلا القبل في ساحة الجمهورية.

كان ميلكوت سوها، كل مساء من السابعة حتى العاشرة، يتواجد في بيت هابتلر. أحبته هانيلكا. كانت تشعر أنها أكثر قوة وتماسكاً،

Telegram: somrlibrary

وأدركت أن الشاب في حاجة إلى قوتها... وفكرت، في البداية أنها ممكن أن تنجب منه، لأنه وسيم، ذكي، محترم. صارحت أستر بذلك مرة في السرير بأن ذلك سيكون خلطة رائعة في استراحة الملاكمين، حيث قبل عازف السكسوفون ذو العينين الزرقاوين صدرها أول مرة، صارحت ميلكوت بأنها ما عادت عذراء.

– ذات أمسية سيئة الطالع بالنسبة لي – قالت هانيلكا بهدوء.

قبلها ميلكوت سوها.

– كوني زوجتي – قال.

في عيد الميلاد، في عرس أستر، أحضر خاتمين، أعلنت خطبتهما، وبعد عيد الميلاد طلب من ماريا بيك أن تسمح لهانيلكا بمرافقته، لثلاثة أيام، إلى عند أقربائه في الريف، لنحر خنزير.

كانت اياماً ثلاثة لا تنسى بالنسبة لهانيلكا، قصدا «شيوفوك» واستأجرا غرفة لدى امرأة عجوز. ندف الثلج ناعماً، وكان العالم كأنما في حلم أبيض لا يصدق. أمضيا جل وقتهما في السرير منحت هانيلكا جسدها حراً للسعادة والمتعة. وحين كانا يرتادان مطعم «فوغاش» للعشاء، يرقصان متعانقين متلاصقين، وتركا انطباعاً جميلاً لدى الناظرين إلى هذين العاشقين، عادا متأخرين عن الموعد نصف يوم. ودون مقدمات، تناوبت ماريا بيك وجه هانيلكا بصفعة شديدة.

في شباط «فبراير» تزوجا. أعدت ماريا بيك مرقة اللحم، ولحماً مطبوخاً والمقبلات الكثيرة المثوّمة والمفلفلة، إضافة إلى اللحم المقلي، والدجاج المقلي، والسمك المقلي، والقريش، وأنواع الكعك والكاتو.

أكل، وشرب، وغنى كل من في البيت. وارتجل هابتلر استفان كلمة

Telegram: somrlibrary

جميلة بهذه المناسبة، ثم تلاه بيلا شابات وتمنى باسم الجيران القدماء كثيراً من السعادة. شرب بعض أقداح النبيذ، حل ربطة عنقه، وغنى بصوته الخشن، هيه يا صيادي السمك.... أيها الصيادون.

نهرته أستر: سد فمك! فيما بعد نادى ياني هانيلكا، في جيب طقمها الأسود، ساعة يد، وألفي فورنت.

– اشتري مقلاة و.... – قال باستحياء

وقفت هانيلكا على أصابع قدميها وقبلت وجهه.

وبعد منتصف الليل، استأذن الزوجان الشابان ماريا بيك، بالرحيل.

– ليس مناسباً الآن – قالت ماريا بيك بحزم.

– انتظرا حتى يغادر الضيوف.

ثم اتسعت على وجهها ابتسامة. ونادت العجوز هابتلر. قبلت هانيلكا يده مودعة.

وبعيون مغرورقة بالدمع وقف الجميع يشاهدون كيف غادرت صغرى الفتاتين برفقة ميلكوت سوها، المنزل.

وبعد بضعة أيام فتحت عائلة هابتلر باب البيت على مفاجأة لا تنتظر وقوعها. جاء شرش شاندور وزوجته لوداع العائلة.

– سنسافر إلى روما بالطائرة. من هناك إلى تل أبيب. هدفنا النهائي، قدّرنا أنا وبوريس، ألا نذهب بلا وداع، وألا ننفصل عنكم وأنتم الأعزاء بحزق. نحن الآن سنعمل ضمن الإمبريالية البعيدة من أجل الاشتراكية. بينما أنتم تعملون من أجلها هنا في بلدنا الجميل، بلد الديمقراطية الشعبية. وبما أننا حصلنا على سماح رفاقنا بأن نتواصل

Telegram: somrlibrary

بالمراسلة، نستطيع إذا شئتم أن نعطيكم عنواننا الدقيق، تستحق المسألة مزيداً من الانتباه:

أولاً: أن تضعوا الرسالة بمظروفين. المظروف الخارجي يعنون كالتالي: صندوق بريد (١١٤) بودابست.

وعلى المظروف الداخلي الذي يحتوي الرسالة، اكتبوا اسمي: الرفيق شرش شاندور - تل أبيب - السفارة المجرية. في هذه الحالة يكفي أن تلصقوا عليه الطابع وسيصل إلينا. هل أوضحت الخطوات؟ إذا شابها شيء من غموض سأشرحها لكم مرة أخرى.

كتبت ماريا بيك العنوان، وتمنت لهما سفراً طيباً، تعانقوا وودعوا بعضاً.

استأجرت استر بيتاً في شارع «ناج مزو». فقد صار زنتاي يعمل في بودابست، لدى مؤسسة المطاحن، وغالباً ما كان يسافر إلى الريف في جولة رقابية. كان راتبه ١٣٥٠ فورنتاً. ودخل أستر ٧٠٠ فورنت في الشهر الأول اشتريا راديو. وفيما يخص المصاريف كانا يشدان الأحزمة. أيام الآحاد يخرجان في جولة على الدراجة النارية. وبعد ثلاثة اشهر من زواجهما جاء جورج زنتاي فخوراً إلى البيت. وعندما اندس، بابتسامة بلهاء وأنفاس نبيذية إلى جانب أستر في السرير، انسحبت عنه.

- أكرهك. لا تقترب مني. أنا سأذهب.

ضحك جورج.

- ولتذهبي، يا بنيتي. انقلعي.

في الصباح استعاد توازنه. قبل أستر وسافر إلى الريف.

لبست استر ثيابها وذهبت إلى شارع ناج فوفاروت حيث أهلها.

Telegram: somrlibrary

قالت لأمها:

- أنا رجعت إليكم.

ذهبوا، مع ياني لإحضار الحقائب. وخلال ثلاث حمولات، كانت كل الأغراض منقولة. وحين عاد زنتاي من جولته الريفية، حدق في الغرفة الفارغة مذهولاً. ولم يجرؤ على الدخول إلى بيت هابتلر خوفاً من حماته ومن عيني ياني الصفراوين. لمح أستر أمام المدخل. دعا زوجته إلى مقهى الشباب. وبعد حديث قصير أبلغته أستر بنبرة حاسمة أنها لن تعود إليه ثانية. وبعد يومين حضر فيلاتو يانو بطلعته الوهاجة إلى بيت الغرفة - المطبخ. حيا أستر «أقبل يديك» واصطحبها في موعد شاي الساعة الخامسة للرقص. في شارع ناج فورفاروت أوقفهما زنتاي. ارتعد فيلاتو، رفعت أستر عينيها باردتي الزرقة وقالت: إياك والتهديد وإلا سأنادي أخي.

وعبر أسبوع بطوله كان زنتاي يرسل كل يوم، باقات الورد لزوجته ثم يتلفن لها في مشغل صنع الأحذية يطلب موعداً. التقيا في مقهى «هانفولات». طلب زنتاي سيزانو، وبلهجة هادئة صادقة استماحها عذراً. ووافق على الانقطاع عن الشراب. غازلها طويلاً، وأبدى محبة وافتتاناً وقال ضاحكاً:

- لن أفلت من يدي أجمل نساء بودابست.

رجعت استر إلى بيت الزوجية، وفي اليوم التالي، على غير انتظار، نقل العجوز زنتاي من بودابست إلى «آوهات بوست» قرب هورتو باج وصارت ماريا بيك تعد له كل شهر طرود الطعام وترسلها بالقطار مع ابنة زنتاي.

Telegram: somrlibrary

حين حملت أستر، أصدرت ماريا بيك تعليماتها بأن لا يتناولا وجبات الطعام عندها. وعبر تسعة أشهر طهت لابنتها وصهرها و لم تقبل منهما نقوداً. وضعت أستر بنتاً. لكن الطفلة ماتت في اليوم الأول في المشفى. وجاء في تقرير موتها: نزف في الجمجمة. لكن أستر لم تستطع أن تنزع من ذاكرتها كيف أوقعوها. ذهبت إلى دفنها كل العائلة عدا أستر التي اعترتها نوبة بكاء جعلتها تولول وتنتف بشعرها وظلت آغوثا الصغيرة ذات التسع سنوات إلى جانبها ترعاها وكانت تجلس مرتعدة على طرف السرير. «في بودا»، في الطابق الأول من فيلا خاصة استأجرت عائلة هانيلكا غرفة مكعبة، مضاءة هي امتداد لمطبخ وحمام. كانت الحديقة ملأى بالأزهار وزهر الآرغينيا متفتح عليها. كانت هانيلكا لا تنقطع عن الغناء. وكان حبهما كبيراً. وكانت رغبتهما عارمة في إنجاب طفل. وذات أحد فجأة. توفير والد ميلكوت سوها.

لم يبك الشاب. بل شخص بعينيه الواسعتين البنيتين ورمق هانيلكا ذاهلاً. لم يكلف بالتبعات والإجراءات المتعلقة بالدفن. بل قامت هانيلكا والعجوز بمتابعة وإنجاز ما يلزم من أوراق. حضرت عائلة هابتلر الدفن. ابتاعت ماريا بيك قوس زهر حي. ووقف ميلكوت سوها ساكناً قرب كتلة التراب الطري إلى جانب أمه. اصطحبته هانيلكا بالتاكسي إلى البيت، حيث جلس طويلاً عند الطاولة دون أن ينبس بحرف. فيما بعد تناول عشاءه مرتاحاً واقترب من النافذة يحدق في المشهد الخارجي.

أنجزت هانيلكا الترتيبات المنزلية، وغسلت بعض البياضات. وهجعا إلى النوم. قبل ميلكوش جيدها، صدرها، ومد يده إلى فخذيها.

في الشهر السادس لزواجهما حملت هانيلكا. وجاء حملها قاسياً عليها، فكانت تعاني من وعكات لا تفارقها. ورضوخاً لتعليمات ماريا بيك تركت عملها في مصنع التراكتورات، وانتقلت مع زوجها

Telegram: somrlibrary

إلى شارع فوفا روش حيث خصص لها أهلها نصف الغرفة الأصغر. وحين تحرك الجنين في بطنها تحسنت صحة هانيلكا. في المساء، كانا يراقبان حركات القادم المرتقب وتتلاقى عيونهما في دهشة. ضحكت هانيلكا وسألته:

– سوف تحبنا أليس كذلك؟

تبسم الرجل وطبع قبلة على جبينها المبرقع بالطفح.

في المرحلة التالية من الحمل تخاصم ياني باستمرار مع أخته الصغرى لأنها قليلة الحركة وكسولة، حاثاً إياها على المشي والحركة. لكنه لم يسمح لها أن تقوم بأبسط الأعمال فكان يلتقط كل شيء من يدها. أما في الأيام الأخيرة فقد كان متوتراً لدرجة تشاجر فيها مع الجميع، حتى هددته ماريا بيك بالطرد من المنزل.

– ماذا ستفعل فيما بعد لو كان الأمر يتعلق بزوجتك وهي على باب الولادة؟ هل تقتل الأسرة بكاملها؟

تلاقت نظراتهما. وكانت ماريا بيك متوترة هي الأخرى.

مساء الأحد توجعت هانيلكا من الساعة التاسعة حتى الرابعة من صباح الاثنين. و لم يغادر ياني وميلكوت الممشى حتى اللحظة الأخيرة.

وضعت صبياً سليماً. عمد باسم ميلكوت. وانتقل سوها ميلكوت بأسرته إلى بيت في الطابق الأرضي وهو منزل بغرفة ومطبخ تسمنه أمه بالإيجار.

ادخر هيرش أشتفان اثني عشر ألف فورنت. استدان ما لزمه من نقود من زملائه في العمل. للبدء ببناء منزله الخاص. وبحلول الصيف

Telegram: somrlibrary

قصد كوخه على شاطئ الدانوب، في إجازة لمدة أسبوعين. صباح السبت شوت غيزيكا لحماً، ولحقت به مع آغوثا. وقفت في الباب، سحبت الستارة الكرتونية الملونة وقالت لآغوثا أن تنتظرها عند شاطئ الدانوب، ثم دخلت إلى الغرفة (الكوخ). فتاة في حوالي العشرين تجلس على البنك. لاحظت غيزيكا أنها تحت وشاح النوم عارية.

– من هذه بحق الشيطان؟ سألت.

– عفواً؟ لا أسمح أن تسيئي الظن – قالت المرأة – أنا خطيبة هيرش أشتفان.

التقطت غيزيكا ثيابها ورمتها:

– انقلعي. هيا. بسرعة.

بدأت المرأة ترتدي ثيابها بتؤدة. وطلبت من هيرش أشتفان أن يغلق سحاب الظهر. فسكت غيزيكا الغاضب، ورمت حقيبتها خارجاً عبر الباب، حين ذهبت المرأة سألته بهدوء:

– كيف سمحت لنفسك بارتكاب مثل هذا؟ ومسح بكلتا يديه شعره الأشقر المائل إلى الأصلع، وأشعل سيجارة. ثم قال:

– لكي أهزك. يجهد الإنسان يريد أن يضحك، وأنت إما سارحة، وإما نائمة.

– لقد هززتني. أكرهك مثل جيفة.

وحملت آغوثا راجعة إلى البيت. مساء الأحد وصل هيرش أشتفان. قالت غيزيكا بنبرة هجومية، لقد حذروني غير مرة، في المصنع بأن زوجي عاهر وشاهدوك مع امرأة غجرية جميلة في شارع «بتوفي شاندور».

Telegram: somrlibrary

وضع الجريدة من يده:

- من قال؟

شخص يوثق بكلامه.

- ليس صحيحاً.

- يا للحقارة. وتشوه سمعتك في المصنع!

صفعها، فارتمت بالكرسي الذي تجلس عليه. لم تبك، احمر نصف وجهها وأذنها، وانكشط الجلد عن زاوية فمها. واغرورقت عينا هيرش بالدمع.

قال:

- أترين! لأنك تلقين كلماتك هكذا بلا تفكير.....

جلست غيزيكا على الأرض تحدق في زوجها.

وصلت رسالة من شرش شاندور. واعتبر هذا دائماً أمراً مريعاً بالنسبة لعائلة هابتلر التي دمعت عيون أفرادها جميعاً من شدة الضحك. والآن كذلك جلس الجميع في الغرفة منصتين إلى أستر وهي تقرأ الرسالة، لأنها باتخاذها هيئة جادة، برعت في أداء هذه الكوميديا. وحتى في أشد السطور إضحاكاً لم تفتر ابتسامة إضافية إلا أنها استطاعت أن تقلد لهجة شرش البطيئة في الحديث. وهذا بحد ذاته يوقع من الضحك. جاء في الرسالة المطولة:

عزيزيّ ماريا وياني أبلغكما أن الرسائل التي أرسلتماها وصلتنا. وقد سعدنا بها. وبرهنتما بردودكما المخلصة أن لا وجود لأية مشكلة فعلية بين أفكارنا ونظرتنا للحياة. فقط أنتما لم تفهماني في النقاش السياسي

Telegram: somrlibrary

الذي دار بيننا إلى جانب العمل الشيوعي الهادف إلى التربية الشعبية، يا عزيزيّ، أعلمكما أننا في حالة جيدة، نتمناها لكما من القلب. ونحن سعداء بأنكما، مع كافة أفراد الأسرة، في صحة وعافية.

ما يزال الحر شديداً عندنا، وهذا ما لا تحتمله بوريش فهي تتعرق دائماً، والمناخ يضعفها لأن الإنسان لا يعتاد هنا على الجو مهما تطل إقامته، بل على العكس فإن قوة احتماله تتراجع مع تقدم الزمن في هذا المكان. كل ما نفعله الآن، نفعله من أجلنا نحن بالذات. ولكننا سنسعى إلى إنجاز ما يكلفنا به الحزب بأقصى ما لدينا من ضمير وإحساس بالمسئولية. لأنه إذا ما سعينا جميعاً ونظرنا إلى الأمور بهذه الروح العالية فسنقضي على الإمبريالية بأسرع ما يمكن. فقط هكذا من أجل النصر النهائي نستطيع أن ننجز الوثبة الأخيرة.

عزيزي ياني. كم يسعدني أنك ترى فيّ حقيقة كوني لا أقف في طريق أحد. وأبرهن على هذا بأننا، نحن الشيوعيين الواعين، نختلف عن أولئك الذين لا يهمهم إلا الصعود والتسلق، ثم يتناسون أن الحزب هو الذي نصبهم، بثقة الشعب، لإنجاز المهمات الموكلة إليهم. لكن الذين يتناسون هذه الفكرة هم الذين يصلون بسهولة إلى مواقعهم.

عزيزي ياني: تكتب أن كفالتك رفضت. ما هو مهم استمراريتنا في العمل بسلام. وهذا أثمن من رفض أي كفالة. كل ما أستطيع أن أكتبه لك في هذا الخصوص أنهم لو لم يقبلوا أي كفالة فإن حكومتنا ستؤمن حياة أمينة، وحقوقاً لكل منا. وهذا أثمن من كل شيء.

وتكتب أيضاً يا عزيزي: عن هانيلكا تركت العمل. هذا ليس باعثاً على السرور، ولكنه أيضاً لا يستدعي القلق والقنوط. أنا واثق أن النقابة ستهتم بعودة هانيلكا إلى عملها، لأن الثروة الحقيقية، بالنسبة لحزبنا،

Telegram: somrlibrary

إنما هي الفئات الشابة، عماد المستقبل. فلا داعي للقلق، وعما قريب ستحل المشكلة.

سأكتب عن نتائج لاعبينا في كرة القدم، التي شغلت العالم بأسره، ولاقت اعترافاً منه.

لكم كل الحب. ونحن في شوق عارم لرؤيتكم جميعاً وللجميع قبلات. شاني وبوريش. تحياتنا لكل سكان العمارة دون ذكر الأسماء لأنكم ستقدرون أي شخص نخص بتحياتنا».

لاقت الرسالة نجاحاً باهراً. مما جعل حتى أستر تفتر شفتاها عن ضحكة وخاصة عند عبارة: فقط هكذا نستطيع أن ننجز القفزة الأخيرة لبلوغ النصر النهائي.

وأعجب غيزيكا: سنبذل كل ما بوسعنا، إذا ما امتلكنها مصيرنا بأيدينا، للحفاظ على إمكانية الحياة بسلام.

وبرأي هانيلكا أن الأروع هو: المناخ يضعف بوريش، وهي تتعرق كثيراً.

أما العجوز هابتلر فقال تغمره السعادة:

- إنسان غبي. إنسان غبي.

وكان لجورج زنتاي رأي مختلف:

- يمتلك عقلاً أرجح من عقولنا. إنه يكثر من كتابة هذه الحماقات لأنه يعرف أن رسالته ستقرأ من قبل الرقابة. وسيكون مخبولاً لو غامر بأية كلمة أخرى.

ابتسم سوها ميلكوت وقال بلهجة هادئة:

Telegram: somrlibrary

– أظن أنك على خطأ. هذا الإنسان مثال في السذاجة. في رأيي إنه مجرد موظف بسيط في السفارة. وزوجته تنظف، تطبخ، تقوم بكل أعمال الخادمة.

– لا تغضب يا ميلكوت إذا ما قلت أنك لا تمتلك كثيراً من الأحاسيس تجاه الأمور العملية. أنا لا أزعم أن هذا الشخص فائق الذكاء ويشع بالفطنة، ولكنه ضرب ضربته المتعددة الأبعاد. هؤلاء في الخارج يقبضون رواتبهم بالعملة الأجنبية، بالعملة الفلسطينية، فإذا ما عادوا إلى البلد بحقائبهم وطرودهم فأنت تعرف ما يعني هذا....

مؤكد أن المجنون يأخذ تعابير البشلفية أكثر من أي شخص آخر. ثم تبسم قائلاً:

– ذات مرة سوف أفعلها وأجعله يجترع النبيذ البروغشي حتى ينطفئ ثم سنستمع منه كيف يتناول السياسة.

– ليس له سياسة، ولا يفهم فيها – قال ياني – وإذا سقيتموه النبيذ سيغني لكم النوتات المجرية.

ضحكت هانيلكا قائلة:

– النوتات المجرية؟ سوف يزأر زئيراً

فقال ياني:

– وما الضير في هذا؟ أليس أفضل من (B تنور) أو في (فليب الشوكولا). أو من أي شيء آخر.

رفعت أستر رأسها عند الطاولة؟ وقال بعصبية:

– ما مشكلتك مرة أخرى؟ انتسب إلى الحزب إذا كنت ميالاً إليه. أو قم اغتسل بالماء البارد.

Telegram: somrlibrary

لم تفارق الابتسامة وجه ياني.

– أغلقي فمك. أقترح أن تغلقي فمك كي لا أحطم كل شيء هنا... الأثاث، المنزل.... كل شيء أحطمه إلى ألف قطعة وقطعة ثم أبصق عليه.... اخرسي.

قام هابتلر يانوش الأب عن الصوفة.

– ماذا ستفعل؟ – سأل – لست الآن على ضفة بحر «أوهوسكي». بين الروسيين. أنت ضمن أسرتي وعليك أن تسلك سلوكاً لائقاً بإنسان لطيف، وإلا سأقوم بضربك.

ساد صمت. وضع ياني المطرقة من يده على الطاولة وقال:

– ما دخلك في الموضوع يا أبي؟ أنت يا أبي أغبى من عليها في الحي الثامن. قل لي يا أبي كم تسعة ضرب ستة؟

رنا هابتلر يانوش العجوز إلى ابنه بعينين دامعتين: وقال بصوت مرتجف:

– حين يسجنونني في التابوت. سوف تتذكر كلامك هذا. ولكن عندها لن يتمكن أبوك الغبي من أن يقول لك شيئاً من عالم القبور.

بدأت الفتيات بالبكاء الهستيري. عبرت ماريا بيك من المطبخ، ولكمت ابنها على وجهه. ثم أمسكت به ودفعته إلى الخارج.

– تتهجم على أبيك – زعقت ماريا بيك. أنت حيّة. عدو لأهلك. عدو لأخواتك. أنت تمساح.

– ما الذي يضحك في رسالة حاجب – صرخ ياني – إذا كان الحاجب والخادمة يؤمنان بشيء ما فهذا مبعث سخرية للمخبولين فقط.

Telegram: somrlibrary

والذين يسخرون من مثل هذا بأي شيء يؤمنون. قولوا لي أرجوكم. امي أرجوك قولي لي.

بعد قليل هدأ. ساعد أمه في غسيل الآنية، ونظف سطح المجلى. بينما ظل الأب جالساً فوق الصندوق العسكري حتى وقت متأخر من المساء. وبعد ذلك، بابتسامة خجلة تمنى للوالدين ليلة سعيدة واندس سريعاً في السرير.

عينت هانيلكا في ديوان أحد مستودعات مؤسسة تركيب زجاج الأبنية. وكانت تستقبل قطار الساعة السادسة صباحاً.

يوم الأحد كانت تنام كثيراً. وكانت حماتها تسكن في المطبخ مع حفيدها. وكانت تقوم بترتيبات البيت.

جلبت هانيلكا، بعد الغداء، الماء من البئر، وغسلت البياضات، ونشرتها في الحديقة لتجف. وقام ميلكوت سوها بأعمال متنوعة منها صنع مظلة كلوب. ومن القصاصات الجلدية، محفظة نقود، وبابوج. ثم اندسا في السرير وتعانقا حتى موعد العشاء، نادته هانيلكا، للتحدث معاً. ليقص لها بعض الحكايات والمغامرات الغرامية والنساء، أو ليبوح لها عما رغب يوماً من الأيام، أن يكون. صمت الرجل ماجاً سيجارته. ثم أجاب بعينين وهاجتين: طيار.

ذات عصر أحضرت هانيلكا بطاقة مسرح. ولكن لم يكن ميلكوت سوها مستعداً للذهاب في ثيابه المخططة.

في الربيع تعرفت هانيلكا رجلاً وسيماً، كانا كل صباح ينتظران معاً على موقف القطار كانت تحياته المتكررة لها تنم عن ذوق ولطافة. فيما بعد قدّم نفسه. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف لسانه عن قص الأحداث

Telegram: somrlibrary

الطريفة. كانت هانيلكا تضحك كاشفة عن أسنان بيضاء تأخذ بالأبصار. و لم تخل أحاديثه من مواضيع جادة. من ضمنها في رأيه، أن لقطة من مثل تقبيل الساقين في فيلم الأحمر والأسود تثير ضحك المشاهد. ولكن في الواقع، أن ممارسة الحب تتطلب كثيراً من الخيال والتحرر من العوائق. وإن العاشق ليس أخرس، أثناء العناق في السرير على الإطلاق.

قلبياً اصغت إليه هانيلكا. وأحبت كثيراً تلك الأحاديث الصباحية في القطار. وفي عصر يوم من أيام آب «أغسطس» التقيا مصادفة، في باص الخط السادس. كان مع الرجل حقيبة سوداء وبطانية، وكان ذاهباً إلى شقة نهاية الأسبوع.

– هل ثمة ما يشغلك الآن؟ سألها

– لا، لا شيء مهم.

– إذن ترافقيني.

بعيداً، في استراحة ذات حديقة في بودا تناولا القهوة السوداء والكونياك. كانت الحديقة خالية. وكانت تصدح موسيقى عبر بافل صوتي. فيما بعد قادهما درب مستقيم إلى شقة الويك إند. أعجبت الشقة ذات النوافذ البيضاء هانيلكا وكذلك حديقتها الناعمة الصغيرة، والأزهار الصيفية الكثيفة. ثم دلفا إلى الغرفة. أنزل الرجل الستارة. وبعد حين حلّ زراً من أزرار ثياب هانيلكا. في هذا المساء لم تقبّل هانيلكا طفلها، و لم تتناول عشاءها. قالت إنها في حال سيئة. اندست في الفراش وابتعدت عن زوجها. أحب الأرمل هانيلكا، وكان ممتناً لها أن تجعل ابنه الوحيد سعيداً. وعندما، في الخريف أجريت عملية جراحية لهانيلكا في المعي الغليظ، بكت عند الجيران.

Telegram: somrlibrary

انتظرت أستر طفلاً مرة أخرى. ورضوخاً لأمر ماريا بيك انتقلت أسرتها إلى بيت الغرفة والمطبخ. ماريا بيك، طبخت، غسلت، نظفت البيت وكانت كل أسبوعين تذهب إلى «راكوش فالفا» محملة بالطبخ واللحم والكعك. تقبل حفيدها وترجع في الساعة الثامنة إلى بيتها.

كان جورج زنتاي يبحث عن بيت. لأن ياني لم يكن يطيق صهره. مرة بعد العشاء نزل زنتاي إلى الحانوت، اشترى لحماً مقدداً، وألقى به على الطاولة.

– كلي – قال لأستر.

رنت إليه المرأة الحامل، و لم تجرؤ أن ترفض.

ولدت بنتاً سليمة. انتقل زنتاي بأسرته إلى بيت بحمام في «بست الصغيرة».

ولكن في أعياد الفصح، والميلاد، ورأس السنة وأعياد الاسم كانوا يحتفلون في شارع «تاج موفاروش» في بيت هابتلر.

قامت ماريا بيك بالتنظيفات الشاملة، وأعادت ترتيب الأثاث وقام بمساعدتها في كل هذا رب الأسرة وياني، وأستر وغيزيكا. أما هانيلكا فقدمت مساعدتها لأمها في طهي الطعام. و لم يخل الأمر من مشاجرة وصياح. وصل الرجال مساءً مصطحبين الأولاد وباقات الزهر لماريا بيك، وقبلوا يدها البشعة المعقوفة الأصابع، وبعدها فرشت الأطعمة وتحلقوا إلى مائدة عامرة.

استفزّ زنتاي العجوز ماريا بيك قائلاً:

– يا أولاد. تعرفت إلى امرأة بديعة. زوجها دائماً في الريف. شقة مفروشة جميل. امرأة نبيلة.

Telegram: somrlibrary

– ألا تخاف من أن يفاجئك رجلها النبيل، بالعودة – سألته ماريا بيك.

– آ.... لا يأتي... لا يأتي.

– وكم عمر المرأة النبيلة؟

– أربعون. أجمل الأعمار. لكنها لا تبدو بهذا العمر. تعشقني حتى العبادة.

عندئذ احمرّت ماريا بيك ثم قالت بعصبية:

– لعلها عاهرة يا بني. كيف تكون عاشقة! ماذا تعطيها بالمقابل.

– كل ما تطلبه.

وانفجر الجميع في الضحك. ضربت ماريا بيك قبضتها على الطاولة. ونعتت العجوز بالعجوز اللعين، وأكالت الشتائم الفاضحة.

بعدئذ جلس هابتلر والعجوز زنتاي وشابات بيلا شيربون وجلس ميلكوت سوها وهيرش أشتفان وزنتاي جورج يتحدثون.

شرح هيرش أشتفان مشاغله في العمل وتحدث في السياسة، شتم المنطلقات والنظام.

وأهان زوجته. وقال زنتاي جورج إن لأستر فماً قبيحاً تخرجه أحياناً عن طوره.

ميلكوت سوها ظل صامتاً يبتسم.

نظر إليه هيرش أشتفان وقال بجدية:

– أنت محظوظ.

Telegram: somrlibrary

أجاب ميلكوت.

– نعم. لا مشكلة لدي.

ياني لاعب الصغار. استلقى على السجادة العتيقة. امتطوه وصفقوا على ظهره. النساء في المطبخ ينظفن الآنية فيما بعد فرشت ماريا بيك على الأرض لينام أحفادها وصرفت الجميع إلى النوم.

وتحت عنوان تعديلات وظيفية نقل ميلكوت سوها من مؤسسة البناء البيتونية. وبقي دون تسمية وظيفية مدة طويلة، حتى عين أخيراً لدى السكك الحديدية في رصف الحجارة. ولكن فيما بعد وبناءً على رغبة هانيلكا، عين عامل شحن في مؤسسة تركيب زجاج الأبنية، حيث هنا أيضاً واجه أصعب الأعمال. وكان الناس فيها غرباء عليه، وطرائقهم ثقيلة الوقع ودخله الشهري كان معتبراً. كانت وردية العمل تجتمع شهرياً يوم استلام الراتب في مطعم «بوشتا كورت» يدفع واحدهم مائة فورنت. يشربون ويغنون و لم يجرؤ ميلكوت على البقاء طويلاً، لأن هانيلكا كانت برفقته مرتين.

وهكذا صار شخصاً صامتاً قليل الكلام. فإذا ما انتهى وقت العمل توجه إلى البيت و لم يغادر الغرفة. يلاعب ابنه، أو يحل الكلمات المتقاطعة والألغاز. وبعد العشاء يضاجع زوجته، ثم يغطان، تعبين، في نوم عميق. اشترى راديو يلتقط كل إذاعات العالم، وأثاثاً للمنزل، وطباخاً مع طاولة. وسترة صفراء، وبنطالاً بنياً، وصنع مع هانيلكا حذاء رياضة بني اللون خلف الباحة المكتظة بصناديق ضخمة جاهزة للشحن.

كانت هانيلكا في مكتبها الزجاجي تسجل واردات المستودع من الإنتاج التي على أساسها تحسب أجور وردية العمل.

Telegram: somrlibrary

كان في المكتب طاولتان – واحدة لأمين المستودع – وخزانة. إضافة إلى خزانة أخرى توضع داخلها قطع الألماس، الدحروجات القاطعة التي يقصون بها القطع الزجاجية حسب الطلب. كانت هانيلكا تنجز عملاً إضافياً مرة كل شهر. يذهب ميلكوت إلى البيت وتقوم هي بإنجاز الحسابات حتى العاشرة مساءً، برفقة قائد وردية الشحن. كان قائد الوردية هذا رجلاً طويل القامة، محض عضلات، أصلع في الأربعين، يرتدي ثياب العمل الزرقاء ويعتمر قبعة من الطراز السويسري.

كان عمال الشحن يقدرون قوته الخارقة والحيوية النادرة التي يتمتع بها إضافة إلى شهامته الملموسة.

بعد استحمام عناصر الوردية كانوا يجلسون بثياب الخروج في مطعمهم ويمارسون لعبة «واحد= وعشرين بالورق». فإذا ما ربح نقودهم كان يوصي على النبيذ والطعام من المطعم المجاور. وإذا ما تزوج أحدهم كان يجمع النقود من كل عنصر من عناصر الوردية ويدفع من جيبه خمسمائة فورنت.

في عيد الاسم لهانيلكا عبأ المكتب بالورد. وذيل إهداءه: بكل الحب – من الوردية. و لم لا. إن هانيلكا قدمت عوناً كبيراً له ولكنه في نهاية كل عمل حسابي مضن لها في المكتب كان قائد الوردية يوصي على عشاء ثم على القهوة من المطعم المجاور.

– لا تعملي مجاناً – قال ضاحكاً مسنداً مرفقيه على الطاولة، رانياً في المرأة ذات الشعر القصير، وهي تجري حساباتها في ضوء مصباح المكتب.

في المرة الأولى قبل قفا عنقها. استقامت المرأة. وضعت القلم من يدها. حدقا في بعضهما.

Telegram: somrlibrary

وفي العاشرة مساءً ذهب بها، بالتاكسي، إلى«راكوش فالفا».

ذات مساء صيفي عقدت هانيلكا اللعبة كثيراً، حين انسلت من محاولة العناق، لتضع الآلة الحاسبة في الخزانة، شد قائد الدورية المريول عن جسدها العاري. تماسكا بالأيدي.

بعدها ابترد الرجل غاسلاً وجهه بالماء البارد. ثم قدم اعتذاره بصوت هادئ.

بعد يومين من ذلك قال ميلكوت سوها لهانيلكا وهما في السرير:

– لك علاقة مع قائد ورديتي.

شحبت هانيلكا. أجابت ليس لها علاقة. وأنهما تبادلا قبلاً مرات ثلاثاً أو أربعاً. صمت ميلكوت وقتاً طويلاً. حتى قال:

– البسي. سنذهب إليه.

– وما يفيد هذا؟ سألت.

– البسي.

مسكن قائد الوردية في بست الجديدة. حين وصلا كان جالساً في المطبخ. زوجته فتحت الباب. باغته مليكوت سوها بسؤال هبط عليه كالشلال:

– ما علاقتك بزوجتي؟

اندهش قائد الوردية وأجاب:

– ولا أية علاقة؟

بدأت هانيلكا تبكي وقالت:

Telegram: somrlibrary

– لا تتغاب. أنا قلت لزوجي أننا قبلنا بعضنا.

– أنت تكذب – قال ميلكوت – وهانيلكا صرحت لي بكل شيء، ومن المضحك أنك تنكر.

أجاب قائد الوردية:

– كل ما حدث بسيط ويدعو إلى السخرية ولا شيء اساساً، لنكرانه.

كل ما كان لزوجته أنها وقفت تحملق مدهوشة، بين ثلاثة مجانين. أمسكت هانيلكا بذراع ميلكوت وقالت متوسلة:

– هيا لنذهب.

استغرق مسيرهما أكثر من ثلاث ساعات في شوارع المدينة وأزقتها الداخلية المظلمة. وعند محطة القطار الشرقية قال ميلكوت إن الولد سيبقى تحت رعايته طبعاً. هنا ولولت هانيلكا جزعة، وقالت بتوسل:

– لا إلا هذا لا. ليس بإمكانك أن تفعل هذا.

رجاها ميلكوت أن تضبط نفسها. فلا حاجة للفضيحة. وأشعل سيجارة.

– كيف سمحت لنفسك أن ترتكبي هذا؟ – سألها بشحوب وبغض – لا أستاهل منك. ومع قذر من أمثاله. أنت أم الولد. كيف تستطيعين أن تقبليه؟

ظلت صامتة، تتأمل أسقف الأبنية، والنجوم.

ثم رفع عينيه الحزينتين المستديرتين إلى هانيلكا:

– والآن ماذا عليّ أن أفعل؟ – سأل المرأة بهدوء.

Telegram: somrlibrary

ظلا اسبوعاً بطوله، لا يتحدثان مع بعض. مساء الأحد عانق زوجته في السرير. فانهمر الدمع من عينيها وقبلت يده.

- شكراً - قالت.

كانت تحب ميلكوت كثيراً.

حين عاد شرش شاندور وزوجته بالحقائب الأنيقة، إلى البلد وكانت وجهتهما بيت الغرفة - المطبخ في «ناج فوفارش». لغط قاطنو البناية وتحدثوا كثيراً في الحدث الضخم. وانتشرت أنباء شتى، تمس مجوهرات نفيسة وأغراضاً متنوعة.

قات تشالا يولى: أدخلا معهما ألف زوج من الجوارب النيلونية، إضافة إلى مغناتوفون بإبرة من البلاتين، يمكن وضعهما في صندوق صغير، وجهاز ليستخدمه أطباء الأسنان. وبلغت شابات بيلا أخبار عن دراجتين ناريتين من طراز BMW. وحسب رأيه أنه يخفيهما في مرآب الحزب. أما الوضع المالي لهما فلا يستطيع أحد تخمينه.

وفي مثل هذه الحالات يكون الناس في غاية التهذيب إذا لم يولوا اهتماماً بالمهربات.

وبالمقابل كان باستطاعة أي كان أن يلمس القفزة المادية التي حققناها والتي لا تحتاج إلى براهين خارج الملاحظة العادية.

ابتاعا خزانة فاخرة، وأثاثاً معدنياً فاخراً ومذياعاً يلتقط محطات العالم. فاستخدما لطلاء البيت شابات بيلا، الذي أذاع في حانة هارفاش أنه تعمد أن يطلب أجراً مرتفعاً قيمته ثمانمائة فورنت وقد أدياه دون أي نقاش أو امتعاض.

Telegram: somrlibrary

– الرفيق شرش يخفي حتى بشرة جلده المال الذي يكد من أجله الشعب المجري. وينزف عرقاً. وسوف يسأل عن ذلك ذات مرة.

كان رواد الحانة يحتسون النبيذ. وهم ينصتون لحديثه ثم بدءوا يتحدثون عن مباراة «رفادي» يوم الأحد.

لم يول شرش شاندور اهتماماً بالثرثرات المغرضة. كان كثيراً ما يرد في طريق عودته إلى البيت تحيات الجيران بأحسن منها. وكان يكثر من زيارة عائلة هابتلر.

يأخذ مكانه على الصوفة، متخذاً وضعية مستقيمة للجلوس كمن ابتلع عصا، وهو يخاطب ماريا بيك بإصرار وبلا كلل، لكن بصوت متباطئ:

– عزيزتي ماريا! صدقيني أن ثمة بالنسبة لشيوعي مخلص فرقاً كبيراً بين نظام الأسياد السابق، ونظام الديمقراطية الشعبية. ويجب أن تقتنعي أنت بالذات بذلك. لأنك وصلت إلى عتبة الاشتراكية، من صفوف الخدم البؤساء الخزانى. على الشيوعيين أن يبرهنوا على صحة منطلقاتهم بأمثلة ملموسة، وإلا سيقعون في شرك الديماغوجيا القصوى. لذلك سأضرب لك مثلاً ملموساً: ألم يصبح ابن صديقتكم العزيزة القديمة كوفتش آنا رائداً في الأكاديمية العسكرية للجيش المجري المجيد، والابن الآخر مهندساً إلكترونياً ولا أعرف عن الباقين شيئاً. هذه الأمثلة الملموسة تثبت أن التاريخ الآن يمر في طوره الجميل.

قدمت له ماريا بيك كأساً من النبيذ وقالت ضاحكة:

– يا شاني! أنت بوق سيء. يقال إنك تكنز كثيراً من الذهب. وقد صرت السيد البارون للديمقراطية. تتأنق. وتترك الآخرين يعملون عنك. أين العدالة في ذلك؟

Telegram: somrlibrary

احمر شرش شاندور فاجترع قدحه من النبيذ وضربه على الطاولة. أداره قليلاً بأصابعه ثم أجاب بهدوء:

– مثل هذا لا يقال، يا عزيزتي ماريا. أنا مستمر في العمل منذ طفولتي. وأنجز كل ما يوكل إليّ من مهمات كما يجدر بشيوعي. لم أفوت يوماً، ولا حتى ساعة. و لم اتغيب مرة واحدة عن مكتبي. ولذلك كوفئت بترقيتي على عملي الـدؤوب، وعلى استعدادي المتواصل للدفاع عن الحق. ثم انصرف بحمية.

بعد ايـام تدهور زنتاي جـورج، بدراجته النارية خلال جولته التفتيشية في الريف. وظل ساعات مشلوحاً في الخندق. وجدوه عند الغروب ونقل فاقداً الوعي إلى مشفى «نيرجهازي» حيث جبروا كسور عظامه دون أن تسكت أوجاعه. وفي بودابست قرر له عمل جراحي.

فعلت استر الكثير من أجله، وظلت حائرة قلقة حتى وجدوا طبيباً ذائع الصيت تعهد بإجراء العمل الجراحي الصعب والخطير. وبعد اشهر نقل إلى شارع «ناج فوفاروش». وحين التحقت استر بالعمل، صارت ماريا بيك تعتني بنظافته، وإطعامه، وتقليبه في السرير لفترة طويلة إضافة إلى عنايتها بابنته آغوثا.

في أكتوبر – تشرين الأول – وقف على قدميه بمساعدة قائمتين. ورافقتهما هانيلكا بالترام إلى «بست الصغرى»، لمساعدتهما في حمل الحقائب. بعد الغداء دخل مع استر إلى الحمام. وفي المساء رن الهاتف فقال الطبيب الشاب أن يخبروا الممرضة أنه لن يستطيع أن يأتي إلى البيت بسبب بقائه في المشفى. فيما بعد استمعوا إلى خطاب «غيرو» بالراديو. فقال زنتاي: ترقبوا أزمة.

فتلفن لبعض معارفه. وأقلقتهما الأخبار المتناقضة. وظلا طوال الليل

Telegram: somrlibrary

يسمعان الطلقات النارية تلعلع في السماء من جهة «بست» وفي اليوم التالي، بناء على تحذير المذياع لم يغادر المنزل. وفجأة في المساء قدم هيرش اشتفان. كانت ثيابه مغبرة، لحيته طويلة، عيناه مشتعلتين وسألاه في الحال: ما الذي يحدث في بودابست؟ أجاب: ثورة.

– لكن ما حكاية الاشتباكات بالرصاص. من يطلق النار؟ وعلى من؟ ولماذا؟

مسح هيرش أشتفان شعره بكلتا يديه فكر. ثم قال:

– أنا عضو في حلقة «بتوفي». نحن قررنا ان نتظاهر. اعلناها في المصنع وقدناهم. كنت عند تمثال بتوفي، عند تمثال بم، وعند الإذاعة. هنا أطلقوا علينا للمرة الأولى.

اغتسل: قَلَت هانيلكا له البيض. فرشت أستر لينام، لكنه قال إنه ذاهب. فقالت أستر:

– ممنوع التجوال. هل جننت؟

هز كتفيه:

– عليّ أن أذهب.

وذهب. قال زنتاي بهدوء:

– يا إلهي! ما أبأسني الآن.

غطت أستر ابنتها. صلّت فيما بعد، بدأت حركاتها الهستيرية في البيت، ولولت ماذا ستفعل الآن؟ هانيلكا توجهت إليها بالرجاء أن تدع هذا، حتى تشاجرتا في النهاية؟ وانتحبتا.

صباح الخميس انطلقت هانيلكا إلى شارع «ناج فوفاروس» كان

Telegram: somrlibrary

يخيم ضباب كثيف وكلما اقتربت من بودابست كان يتكثف عدد القتلى الذين تشاهدهم، ملقين في المداخل والشوارع ولكنها لم تفهم شيئاً.

ماريا بيك عانقتها وهي تبكي. هدأتها هانيلكا مطمئنة إياها بأن أستر وعائلتها في صحة جيدة وأن هيرش أشتفان مازال حياً، وقد زارهم وخرج إلى مكان ما.

– إلى عند العاهرة صاحبة المعطف الأحمر – قالت غيزيكا.

رنا إليها العجوز و لم يسألوها شيئاً. قي العجوز هابتلر حيث أمكن في الشارع طوال النهار واصطف من أجل المواد الغذائية. سابات بيلا، وتشالا جولي حصلت على أربع دجانات بالينكا من المستودع وقدماها لأفراد البيت. ابنة تشالا يولى كانت تلعب في الممر، وتروي كيف يعلقون الشيوعيين في ساحة الجمهورية، ويخصونهم.

كتب على باب شرش شاندور بالطباشير: هيا يا فرادي «فريق كرة قدم». الموت للشيوعيين! رمق شرش شاندور الشعار ثم مسحه بمنديل في جيبه. ووجد زوجته تبكي في البيت. ألقت عليها ثوباً من الفانيل، وعقدت رأسها بمنديل فبدت تشبه الفلاحات وعلى الطاولة انتصبت حقيبة.

– لنذهب من هنا – توسلت المرأة.

– الشارع قامت قيامته. وفي أيدي أبناء الغجر في ساحة ماتياش مسدسات وأمام حانة «هارفاش» رجال الأمن قتلوا رجلاً بالبيجاما بعد أن أخرجوه من أحد المنازل. شاني الناس سكارى وهم يرددون كلاماً مخيفاً، ولا أحد يفعل شيئاً. لنذهب يا شاندور.

Telegram: somrlibrary

راح شرش شاندور يذرع الغرفة نازلاً، صاعداً ثم أحكم إغلاق الباب بالقفل وأغلق النوافذ.

– وإلى اين سنذهب يا بوريش؟ – سألها

– طردوني من المكتب أيضاً.

– من المكتب؟ من طردك؟

– يانو شلايفيرت.

جلسا عند الصوفة، وراحا يحدقان في بعض.

عند الغروب جاء إليهما هابتلر الابن. وقف أمام الباب ورن الجرس ونادى بصوت عالٍ: يا عم شاني. جهزت أمي حساء السمك. وهي تنتظركما.

تناولوا العشاء في المطبخ. واستخدمت أصابع يديها الاثنين لإبعاد (حسك) السمك عن شفتيها. اثنت على مذاق الطعام وقالت إنها لم تذق في أي مكان آخر طعاماً أطيب.

– كلي يا بوريش الغالية – شدد عليها هابتلر الأب – تفضلي أرجوك (فصفصي) من السمك ما يطيب لك.

أنا سعيد حقاً أن ينال إعجابك عشاؤنا المتواضع.

شكرته بوريش على تشديده عليها وقالت إنه إنسان في غاية اللطف، ثم فجأة نظرت حولها.

– كتبوا على الباب – جهدت كي تبتسم – الموت للشيوعيين. بمن ألحقنا أذى نحن؟ نادراً ما خالطنا الجيران وتحدثنا معهم حتى نؤذي أحداً منهم. أشعلت هانيلكا سيجارة:

Telegram: somrlibrary

– لا أحد يرغب في إيذاء الخالة بوريشكا لا بد أن أحداً كتبها من باب الدعابة.

بكلمات بطيئة شكا شرش شاندور من الرفيق شلايفر، الذي كان له صباح هذا اليوم رأى مفاده أن ثمة مشكلة كبيرة ستحدث هنا، وأنه لا بد من مساعدة فورية ولو بأقسى الوسائل لإنقاذ قضية الديمقراطية الشعبية. قاطعته ماريا بيك قائلة:

– كل يا شاني. لا تظل تتحدث بالسياسة إلى الأبد. لا تفهم فيها.

هكذا الحزب.... كذلك الحزب.... أوجعتنا رأسنا. سنرى أين يكون الحزب الآن.

ورفعت عينيها الزرقاوين إلى وجه شيرش.

– لا يعلم حتى الشيطان ماذا فعلت..... حك شرش ذقنه التي بزغ شعرها:

– لا أدري كيف أرد عليك الآن يا ماريا، قال ببطء معتاد – كنت أعتقد يوماً أن هؤلاء الناس سيكونون مختلفين عمن سبقوهم. وهذا ما كنه نسمعه ونؤكده في محاضراتنا لكن.... يبدو أنه لحق بالإنسانية ضلال كبير. أنا مارست حياتي دون أنانية، لم أنحرف كغيري – مع احترامي للاستثناء – الذين ارتقوا مناصب الحزب لمنافعهم الشخصية. أنا مازلت حتى الآن ذلك العامل في وزارة الخارجية الذي لا يلقي المدير نظراً لمرتبته المتواضعة. بينما بوريش خادمة تنظيفات لست غرف، وممر بطوله أربعين متراً، ومغاسل. وكما ترين يا عزيزتي ماريا علينا أن نخاف مثل الآخرين. كل سكان العمارة يرمقوننا بنظرات موارية، كما يرمقون مجموعة من اللصوص.

Telegram: somrlibrary

قالت بوريش وهي تداعب الخاتم في إصبعها:

– دعهم يثرثرون، فهم يعرفوننا تمام المعرفة.

ياني هز رأسه:

– وحوش، دائماً يشهرون البنادق، والمسدسات. مرة هنا. مرة هناك. يتسلقون أسطحة المنازل ويطلقون الرصاص لا أعرف من يكونون. الإنسان ينخبل.

أجابت بوريش:

– نعم. يزأرون... صباحاً وعاء الحليب من يد امرأة.

رتب شرش شاندور من وضع ربطة العنق وقال:

– ما يحدث، مشكلة كبرى... على رفاقنا أن يروا هذا.... إنه سوء طالع..... وعلى رفاقنا بحس عالٍ من المسئولية، أن يروه.

نظر إليه ياني. فتيسم.

– انزل إلى الشارع، واجلس على عمود كهرباء. تشع منك رائحة جيفة.

شحبت ماريا بيك. رفعت قبعتها النحيلة صارخة:

– بدأت تنبح؟ أنت حيوان. أنت ثعلب مخبول. تنبح ثانيةً؟

ضحك ياني وصرخ:

– انبح؟ لماذا؟ أليس الأمر كذلك؟ لقد أهملوه وعليه أن يجلس على عمود كهرباء ويتخوزق. لقد تخلوا عنه. وإذا فطس سيفطس من حظه السيئ.

Telegram: somrlibrary

أغلقت هانيلكا أذنيها قائلة بتوسل:

- ياني. أنهِ الأمر يا ياني. حفظك الله.

ما في هذا الإنسان يكفيه. ينقصه أنت وتهريجك؟ دائماً سيركك أنت!

أخفض رأسه على الطاولة. وبدأ يبكي. أغلق هابتلر العجوز باب المطبخ. سوى وضع الستارة الكرتونية. وبابتسامة خجلى اعتذر من الزوجين. ثم قدم لهما القريش وجلب دجاجة من الغرفة وصب كأسين من النبيذ البروغتي. ورفع نخبهما ونخب الجميع متمنياً الصحة والسعادة وطول العمر. لضيفيه الجميلين ولعائلة هابتلر.

حوالي الساعة التاسعة دخل شابات بيلا وجلس على صندوق في المطبخ. أشعلت عيناه من البالينكا.

ضرب أسداساً بأسباع. وحكى أنه أمام مقر الحزب، وفي ساحة الجمهورية يحفرون في الأرض بحثاً عن قبو للاعتقال، حيث يعاني دون ذنب أكثر من ألف معتقل. قدم هابتلر له النبيذ وأجهر أنه لا يثق بنتيجة التنقيب، حتى إنه يعتبر التنقيب حيونة وغبار لأنهم لم يبنوا معتقلاً في البقعة المذكورة وعلل ذلك هكذا:

- علي أن أقول بكامل الصدق، إنني لم أغرم بالسياسة أبداً، لذا فأنا لا أزعم أنني أفهم فيها. ما عناني، وأخذ كل اهتمامي مصير عائلتي الغالية وسعادتها فقط، من أجلها عملت. وبذلت كل طاقتي وجهدي، لكنني رغم ذلك، استطيع أن أتصور أن بناءً ضخماً كهذا، يتسع لألف شخص، لا بد أنه يكلف كثيراً من المال يستحيل على الـ (Avh) صرفه، في حين تحت حوزتهم ما يكفي من السجون. رفع شابات بيلا كتفيه. وقال:

Telegram: somrlibrary

– المال لا يهم. من يدفعونه ليس الشيوعيون مرتزقة المجلس التشريعي المسافرون إلى الخارج. وليس فروع الـ aAV المجرمون، بل الشعب العامل. خذ مثلاً السكة الحديدية التي أنشئت تحت الأرض. ما فائدتها؟ ومع ذلك أنشؤوها.

أشعل سيجارة، وأشار إلى نبأ مهم. بعد ثلاثة أيام سيصل مبعوثو الأمم المتحدة ويحررون الشعب المجري، من نير الاستعمار الروسي. صدر قرار عالمي بهذا الشأن.

– الأمم المتحدة؟ – استغرب هابتلر العجوز.

– أجل – أجاب عامل الدهان

– سيدخلون نظام الأحزاب الثمانية، أو البيت العلوي – السفلي. النظام الملكي.

تبسم وسأل:

– وأنت رفيق شرش. ما رأيك؟ ماذا تلقنك الكتب الحمراء بهذا الخصوص؟ صمت شرش. جلس على الصوفة كمن ابتلع عصا.

– علموني في المحاضرات – قال ببطء

– إذا ما ارتكب أحد ما شيئاً معادياً للنظام القائم، سوف يحصل على جزائه المناسب.

وأضيف أنه لم يكن بالإمكان اختباره في مدة قصيرة، إن المجتمع الرأسمالي استطاع أن يحافظ على نفسه أكثر. وهذه إجابتي على سؤالك الساذج، مج الدخان من سيكارته. وأطبق عينيه:

– وبعد ثلاثة أيام؟ هل سيكون هنا في المجر المظليون مظليو

Telegram: somrlibrary

الثياب الزرقاء وآخرون؟ ما موقفك عندها؟ رمقه شرش شاندور وقال بامتقاع:

- أنت بالذات، لن أجيبك. لأنك متسكع. أنا ألفظك. سأخبر زوجتي التي ترتعد من رؤية وجهك كما ترتعد من المتظاهرين الصارخين في الشوارع، والتي صارت في حالة نفسية هي من السوء بحيث يصعب عليّ تهدئتها، لأنها ترى بأم عينها ما يجري من أحداث. وأما أنا الذي درست حتى الصف الرابع الابتدائي كيف سأدعي بذكاء أنني متفائل.

صبّ نبيذاً في الكأس. اجترعه ثم قال بهدوء: في عام واحد وأربعين حين اجتاح الألمان الاتحاد السوفييتي سألني أحد أقاربي وكان فتى صغيراً: من الذي سوف يربح الحرب؟ الألمان أم الإنكليز أم الأميركيون؟ كان جوابي أن السوفييت سيأتون إلى هنا. فارتعد مما يسمع، لأن المعلم أخافهم من الروس. فقلت لا تصدق المعلم لأن كلامه غير صحيح. ونحن لن نظل عبيداً للأسياد، لكننا سنعمل من أجل أنفسنا وسنكون بشراً. فسألني هل صحيح ما تقول؟ فأجبته:

سيأتي يوم تقول لي عندما تراني أمامك:

الحق معك وهذا ما حدث فعلاً. قال: الحق معك يا أبي. كم أنت متفائل؟ وكم أنا فخور بك. قلت له: إن القدر دلني على جهة انتمائي. فإما أن نظل عبيداً للأسياد وإما نحن الذين بيدنا السيطرة، لنخلق سعادة الشعب الفقير. وعندها كان من أوائل المنتسبين إلى الحزب الشيوعي. وعلى إثر ذلك تقدم للعمل في سلك الشرطة، حيث سئل عن دافعه لممارسة هذا العمل. فذكرني وأشار إلى أنني كنت نصيره ودافعه إلى الانتماء. وهكذا صار عنصراً من عناصر (AVH) وهكذا مات قبل أيام.

Telegram: somrlibrary

لم يتفوه احد. ملأ هابتلر الكؤوس واستمروا في الشرب. بدأ تأثير النبيذ في رأس شرش، فقال إنه دائخ، وأن عليه أن يضحك. فنصحته ماريا بيك أن ينام وستفرش له على الصوفة مع زوجته. لكنه أبى مجهراً أن له منزله الخاص. وعلى كل حال إنه يريد أن يطمئن عائلة هابتلر بأن لا يخافوا.

فليس من قوة على وجه البسيطة يمكن لها أن تقف في وجه سعادتهم لأن قضية الاشتراكية قضية صحيحة وصالحة حتى النهاية.

مسحت بوريش قطرات العرق عن وجهها الأبيض. وبعدها رافقها ياني موصلاً «شرش» إلى البيت. سمعت ضحكاته العالية في الممر، وراح يغني: «أوو. انت الجميل والرائع». وكان الجيران واقفين على عتبات الأبواب يبتسمون. عصر اليوم التالي وصل هيرش أشتفان. اغتسل، وطهت له الطعام، أعطته قميصاً نظيفاً. نام ساعة. ثم في المطبخ، بسحنة جادة، وبابتسامة ناعمة هازئة رمق ياني وجه صهره. اقترب منه وسحب من عروة قميصه الشعار بالألوان الوطنية.

– نهرّج يا هيرش أشتفان – سأله

– على أساس أنك عضو في الحزب! لم لا توقع الآن على الاستمرار؟ ليس الآن تجارة رابحة؟

صرخت ماريا بيك أن يغلق فمه فلا علاقة له بهذا. خرج هيرش أشتفان، وابتعدا وما زالا يتلاسنان بصوت مرتفع.

بعد الظهر خرجت هانيلكا إلى راكوش فلفا. اصطحبها والدها إلى المحطة الشرقية، قبلها، وقبلته ثم رجع ماشياً تحت زخ المطر، فوصل إلى البيت مبللاً تماماً. في المطبخ عانق ابنه وانفجر يبكي.

– لم تبكي يا أبي؟ – سأله.

Telegram: somrlibrary

– لأن الحرب قامت.

العجوز سخنت له ماءً، فاستحم. وما إن اندس في السرير حتى وصل ميلكوت سوها قادماً من الريف في سيارة باعتباره الفني لدى مكتب المساحة. أطالوا عناق بعضهم. وفيما بعد سألته هانيلكا ما نهاية كل هذا؟ اعتدل ميلكوت سوها في السرير باحثاً عن سيجارة.

– ادخل في الحزب الشيوعي. ربما تتحسن حياتنا لأن الحياة هنا لن تتغير أبداً. وإذا تغيرت، أنا وأمي سوف نوافقك...

لم تكن هانيلكا ترى وجهه في الظلمة.

وذات عصر تشريني بشع، تعصف فيه الرياح، أطلق الرصاص على هيرش أشتفان. ليس بعيداً عن جسر «لانتس» (جسر السلاسل).

وكان يحاول نقل مناشير إلى بودا في كيس على ظهره. مزق الرصاص كفه. ركض قرابة مئتي متر فأوقفه الناس أمام حانوت. استدعوا الإسعاف ونقل إلى مشفى «سيكلا».

بعد أيام زارته غيزيكا. وفي الغرفة الطويلة المكتظة بالمرضى والزائرين أشعلت الأنوار وبحثت عن رأسه. جلست على طرف السرير. وظلا صامتين. فيما بعد أطبق هيرش جفنيه وقال إن حرارته مرتفعة وعليه أن ينام.

فلتذهب هي إلى البيت. ولعل غيزيكا لم تسمعه فقد ظلت على جلستها ترمقه وتداعب شعره الكث، الأشيب.

حتى دخلت المرأة ذات المعطف الأحمر ساحبة معها عطر الخزامى حتى السرير. فحملقت فيها غيزيكا وحملق هيرش اشتفان في زوجته بكراهية حتى خرجت من الباب.

Telegram: somrlibrary

بعد أسابيع زارت كل من استر وهانيلكا الجريح حاملتين الكاتو، والليمون والدخان لكنهما لم تجلسا للتحدث معه لأنه محموم. كما قال، ويريد أن ينام.

أخرج من المشفى في نهاية شباط «فبراير»، ذهب من أجله هابتلر الأب، حين التقيا في الممشى المنار توقف هيرش أشتفان وألقى التحية بشيء من حرج ثم مدت المرأة ذات المعطف الأحمر يدها إلى ذراعه واخذته.

فيما بعد تواصلوا. وكانت غيزيكا، في كل لقاء، تحمل له الطعام، والدخان في صينية، لكنها لم تلتق المرأة ذات المعطف الأحمر مطلقاً.

عملت هانيلكا محاسبة على صندوق في متجر «آتكس». كان مدير المتجر شخصاً ماهراً طويل القامة، محبوباً من الجميع. وكان يزوره رهط متنوع من الأصدقاء، خياطون وسيمون، ممثلون مساعدون حزينون، ملاكم رفيع الصوت، شخص آخر ضخم يجر كلباً ذئباً، وأشكال غريبة أخرى. يطلبون القهوة السوداء من المقهى المجاور، ويتحدثون، وكم أثنوا على جمال المرأة المحاسبة. كانت هانيلكا مبتهجة، دائمة الشعور بالاعتزاز بالنفس، وكانت تضحك لأتفه غباوة عابرة.

في بداية الصيف جاءهم مراقب جديد. شاب شديد الشقرة مفتول العضلات في العشرين من العمر، قدم إلى المتجر من قسم الشرطة. هادنته هانيلكا من اليوم الأول. كان المراقب دائم المكوث عند صندوق المحاسبة. روى انه مصارع، وأنه يقرأ قصص الرعب والتشويق واستعرض أمامها علبة السجائر الفضية الجديدة.

تورطت عدة مرات وهزأت منه، فصارت ترجوه أن يقلل من حديثه الغبي. لكنها سألته عن كل ما يدور بذهنها حول علم نفس الجريمة.

Telegram: somrlibrary

بعد الإغلاق أخذت عشرين كيلو من الكرز إلى البيت. والمراقب هو الذي حمل الحقيبتين. سارا في شوارع ثانوية وفي أحدها وضع الشاب الحقيبتين وتعانقا.

في الخريف تعرفت على الراقص في الفرقة الشعبية الحكومية. كان وسيماً، طويلاً، اسود الشعر، رافق هانيلكا، مرات عدة، إلى موقف القطار الداخلي. وحدثها عن رحلاته الخارجية وسعادته الفائقة بأن يرقص. في منتصف تشرين الثاني «نوفمبر» جلسا في محل الحلويات في الشارع الدائري. مضى الوقت سريعاً فأبدت هانيلكا حركة مرتعدة وقد صارت الساعة الحادية عشرة.

زارها الراقص:

– الآن ستحدث مشكلة؟

هزت هانيلكا كتفيها.

– زوجي في الريف. حدث قبل ذلك وبقيت في الليل عند أختي الكبرى.

رقصا حتى منتصف الليل في «بيباتش». وبعد ذلك استقلا التاكسي إلى بودا القديمة. ونزلا أمام بيت أرضي قديم. وبعد رنين متواصل طويل سمح لهما ناطور العمارة بالدخول. انفتح البيت عن فناء تلحق به حديقة. خلع معطفه في الغرفة الأولية. عبر الرجل غرفة مظلمة إلى أخرى حيث أضاء مصباح كلوب أزرق. كانت الغرفة صغيرة، وفي وسطها عند الجدارين المتعامدان صوفتان، وطاولة نصفية خلت من أي شيء عليها. وإلى جانبها كنبة صغيرة.

جلست هانيلكا على الصوفة بطقمها الأسود. خلع الرجل سترته،

Telegram: somrlibrary

وربطة عنقه، وجلس إلى جانبها بكنزة دون كم. ولفته. ثم بدأت المرأة تخلع معطفها، وقد تغير لون وجهها، وعيناها، واعتراها إحساس بالانقباض بدا مرتسماً حول شفتيها. دفعته هانيلكا عنها وانتصبت في جلستها:

– لم أتيت إلى هنا؟ سأل الراقص. وضحك.

في الصباح. وقفت هانيلكا في الشارع المرصوف بالحجارة وسألت امرأة معصوبة الرأس كيف يمكن بلوغ المدينة؟

في منتصف الشتاء، تلفتت أستر في حالة من القنوط والغضب لأختها الصغرى لتقول لها إن زنتاي يرجع إلى البيت في حالة سكر دائم. أجابتها هانيلكا مظهرة غضبها منها:

– نعم. تستحقين. هذا لأنك لا تعرفين كيف تتعاملين معه. لو شرب زوجي قدحاً واحداً من النبيذ أعمل له فضيحة. وأقطع أنفاسه.

صرخت استر:

– إنك تعطينه الحق دائماً. أنا أعرف كيف أتعامل معه. هل أتركه على هواه ليظل مخموراً ليلاً نهاراً.

وخبطت المهتاف.

بعد أيام هتفت لها هانيلكا لتستفسر عن سلوك زنتاي. فأجابت أستر أن سلوكه جيد.

– تصوري. هذا المجنون انضبط بكنزتين. كما ترين إذا كان مستقيماً انا كذلك مستقيمة معه.

بعد عشرة أيام حطمت مظلتها على رأس زنتاي جورج. فانكشطت

Telegram: somrlibrary

عنه رقعة شعرية. رد لها زنتاي بلكمة على وجهها فانخلعت الضحكة من أسنانها.

نظرت هانيلكا كالملسوعة، إلى أختها الكبرى في مقهى الشباب.

– يا إلهي؟ وهل رأى الولد هذا؟ هل فقدتما العقل؟

بكت أستر:

– لم أعد أحتمله. لم أعد أحتمل رؤية صورته المقرفة حين يكون سكران.

عصر كل يوم أحد، أخذا إلى شارع «ناج فورفاش» حيث بيت أهلها. وهناك بثت أستر شكواها لماريا بيك التي راحت تغلي غضباً.

– ألاحظ عليه حين يعود من الريف. يجترع الكحول كالماء.

قاطعتها غيزيكا:

– هذا سبب غير مناسب. كلكم تتهجمون عليه. بينما عليكم أن تروا الوجه الآخر للمسألة، أستر تتحمل جزءاً من المسؤولية، وهي مخطئة كثيراً. نكدية، عنيفة، جارحة، هذه الإنسانة ليس لها وجه حق. لا تعرف السكينة. تبسم ياني قائلاً بسخرية:

– تأخذ دور محامي الدفاع. الذي لا يهزم.

وأشار برأسه نحو غيزيكا ثم زأر:

– أنت بقرة. وصلتني أخباره. إنه سكير، دوماً. أتدرين ماذا يفعل في الريف؟

إنهم يراقصون النساء فوق الطاولات.

Telegram: somrlibrary

– أما أنت فأغلق فمك صاحت – ماريا بيك

– لماذا؟ لأنه لم يقدم حتى لقمة واحدة لزوجته الحامل!

قال هابتلر العجوز:

– ضمن عائلتي لا مكان لمثل هذا السلوك الشاذ. فيما بعد سأتحدث معه.

صاحت ماريا بيك:

– أما أنت فلا تتحدث مع أحد. ما الذي تريد قوله؟

ألست أنا منتمية إليك. هذه قضيتنا معاً.

التفتت غيزيكا إلى أختها الصغرى:

– أما أنت فمجنونة. هل تأتين إلى البيت لتناقشي مثل هذه الأمور؟

فسألتها ماريا بيك:

– ماذا تقولين؟ إلى أين ستذهب إذاً وتبث شكواها؟

– إلى أي مكان غير هنا. ينتقون ذلك الإنسان المنحوس، ويقدمون في ثورة غضبهم أسوأ النصائح.

رفعت ماريا بيك كفها النحيلة:

– اسكتي أو انقلعي.

لملمت أشياءها ووضعت على الصغيرة آغوثا المعطف وقال باكية:

– كنت أنا المخطئة دائماً. لا أحد يقف إلى جانبي ويعطيني الحق. في هذا البيت أنا المخطئة دائماً. سأنصرف. سأنصرف ولن أعود ثانية أبداً.

Telegram: somrlibrary

أسرعت ماريا بيك وأغلقت باب المطبخ.

– تذهبين إلى الجحيم. تعرفين. إلى الجحيم. ثم فرشوا طاولة كبير الأساقفة، العميد، تاوبنغر وجلسوا إلى «الملفوف المحشي». ضحكوا، مرحوا، أثاروا ياني وشجعوه على الزواج. كان ياني يحمر خجلاً.

– ضاقت بنا الطاولة – قال بارتباك.

– ألم نتشاجر كفاية؟

ضحكت ماريا بيك:

– الشجار عندنا لا يعني زعلاً وغضباً. أما زوجته فسنوسع لها مكاناً بيننا. سكت.

– بودي لو يطول عمري وأحضر زواجك. رفع هابتلر العجوز كأسه:

– أنا لا أحبذ النبيذ. ويمكنني القول إنني خلال مراحل حياتي كلها لم اشرب أكثر مما شربته خلال أسبوع. لكنني الآن أرفع كأسي نخب زوجتي الطيبة والغالية، ونخب أولادي. نخب عائلتي الغالية. المتيم بحبها.

فسألتها ماريا بيك:

– والأرملة الجميلة! أتنساها؟

قبلها هابتلر. وضحك.

– دعيها في سلام. يشتد عليها وجع المعدة.

ضحك أفراد العائلة. لأن الأرملة آنا كوفتش قد دارت من عيادة إلى عيادة، مرة تشكو من قلبها ومرة تشكو من معدتها، وقد أخبر الأطباء أبناءها جميعاً أنها سليمة ومعافاة وصحتها جيدة.

Telegram: somrlibrary

اشترى زنتاي جورج لأستر قماشة معطف شتوي. وباقة زهر كبيرة. والتحق بدافع ذاتي لعلاج التسمم الكحولي، واحتفيا بالمصالحة السعيدة في مطعم كورفني وقد وجها الدعوة لكل من العجوز زنتاي، وميلكوت سوها، وهانيلكا، ورغبة من ماريا، ياني أيضاً طلب العجوز زنتاي للرهط الكريم، العشاء، والنبيذ، وفيما بعد الكونياك.

– بصحة أمكم. من أجل سعادتها وعمرها الطويل بيننا. أنا لا أعرف كيف ارد جميل ما بذلته لأجلي أيام الغربة.

سكر ياني سريعاً، تبسم وقال إنه دائخ، وعندما حاولوا مرافقته إلى البيت لم يسمح لهم. فيما بعد قبّل أختيه الصغيرتين، وصافح الرجال ومضى.

عند ناصية شارع فوفاروش التقى يولا تشالا.

– ما خطبك؟ – سألته تشالا يولى.

– سَكِرت.

ضحك واستند على عمود الكهرباء وكان الثلج يندف غزيراً.

– هل أغضبك أمر ما؟ سألت المرأة.

– لا سبب لذلك – أجاب وأطبق رموش عينيه – هل تؤمنين بالأحلام؟ حلمت بمياه غزيرة. وهذا حسب معرفتي نذير سوء. موت. أو مشاجرة عنيفة. تقول أمي إن الحلم يقول الحقيقة. لم أخبرها حتى الآن.

رفعت يولى كتفيها.

– أنا لا أؤمن بهذا. يمكن أن تتذكر أن العم رايش من رأيي.

Telegram: somrlibrary

فكر ياني طويلاً.

– أنت عاهرة – قالها دون غضب.

– لصة. تلطخت روحك في المبصقة.

سحبت يولى تشالا قفازيها وأشعلت سيجارة.

– وروحك أنت؟ – سألته.

صمت ياني لحظة.

– تخلعين ثيابك لأي كان... تكذبين، تسرقين، وتختلسين.

هزت رأسها.

– أنام معك أيضاً وإذا شئت أدفع لك من أجل ذلك. الآن أملك نقوداً كافية. كم أمقت الليالي وحيدة. تعال سأرتدي ثوبي الشفاف من الحرير الصيني. إنه يبعث على العجب. تنينات ملونة، سوداء، وصفراء، وخضراء، تتفتل... مخلوقات مقيتة لكنني اعتدت عليها منذ زمن بعيد فلا أخافها.

حملق فيها ياني.

– حيوانة – قالها بهدوء.

ابتسمت يولى تشالا.

– طبعاً. أنا مجرد امرأة تافهة. بينما أصولي فاخرة. تشترى بالذهب. لن تفيدك السخرية. صدق أو لا تصدق كان يمكن أن أكون طبيبة أو قاضياً، أو مستشارة قانونية، لم لا؟... ذلك المجنون شرش يقسم على ذلك... تصور أن سكان المبنى يستغربون أنني أذهب إلى الأوبرا.... قسماً كم أتمنى أن يكون زوجي لطيفاً، وذكياً، إذا ما شقّ علي الفهم

Telegram: somrlibrary

في أمر ما، أسأله فيجيبني.... ياني.... كم يخفي المرء من أمور.... صحيح أم لا؟

انتظرت كي يتفوه الرجل بشيء. لكنه ظل مشغولاً بسقوط الثلج عندئذ ضحكت:

بم م م. وما هو واقع حالي الآن؟ لم أحصل على وثيقة الثانوية. ولا أرتاد الأوبرا. اعبد البالينكا، والنقود، والرجال. وهذا أيضاً جيد. صدق أو لا تصدق. أن أحدهم اعترف بأني عيني عينا فتاة صغيرة. ظننت أنني سألتهمه. لكنني حملقت فيه وبكيت. قلت له حالاً إنني أحبه. هذه تفاهة. لا يمكن للمرء أن يحب أياً كان. لكن هذه الكذبة لازمة معهم. لازمة لأنني خبرتهم في أن تجعلهم من الصعب أن يتخلفوا.... طبعاً هذا شيء فاسد في النتيجة وعليك أن نكون أكثر ذكاءً.

دلفا إلى الحانة. اجترعا البالينكا حتى إغلاقها. ساعدته يولى تشالا على الدرجات و لم يرغب في أن يحدث في المطبخ المظلم، ضجيجاً. جلس على الحجر. خلع حذاءه حتى أتت، فيما بعد، ماريا بيك، وأشعلت الأنوار. استلقى على ظهره. وبعينين مفوحتين راح يغمغم: في عيد الميلاد أطلق سراح هيرش أشتفان فتوجه حالاً إلى بيت هابتلر. قبل يدي ماريا بيك، وشكر طيب العائلة كلها. واستقبل بكثير من الود والحفاوة. ووضعت تحت شجرة الميلاد ثلاثة مناديل ودزينة سجائر لأجله أيضاً. ومثل ذلك كافة الرجال. وبعد العشاء جذبته غيزيكا إلى الركن وقالت:

– في محنتك وقفت إلى جانبك. أنت حر الآن. ويمكن لك أن تعمل. ومن الآن فصاعداً لا تلزم لي.

سوى هيرش اشتفان ربطة عنقه السوداء وخرج. حملق الجميع في المرأة. تقدمت منها هانيلكا وسألتها:

Telegram: somrlibrary

– ما الذي حدث.

روت لها غيزيكا كل ما جرى بصراحة، فدمعت عيناها.

– ما كان مناسباً الآن ما فعلته يا غيزيكا. فهو الآن خارج لتوه من المعتقل. إلى أين، وإلى من يلجأ؟

أستر أيضاً حل عليها البكاء. فسألها العجوز هابتلر قلقاً:

– هل فكرت بذلك جيداً يا ابنتي؟

فأجابت غيزيكا بهدوء وحزم:

– فكرت. وأعرف ماذا أفعل. عندما اكتشفتم حماقاته، أردتم جميعاً، عودتي إلى البيت. فقلت لكم لم يفض الكأس بعد. انتظرت ووقفت صابرة إلى جانبه. لم يكن بوسعي أبداً الحصول على منزل لوحدي. صار الآن يحتاج إلي. ونحن لسنا في حاجة إليه.

ثم انتقلوا إلى حديث آخر.

في ليلة رأس السنة فاجأهم هابتلر الابن وأحضر معه ضيفاً مجهولاً. فكانت بهجة الجميع استثنائية لا نظير لها من قبل في حياة الأسرة. كان اسمها «بيروشكل تسيرا» وهي فتاة شقراء، هيفاء ذات قوام نحيل، تعمل معه في الورشة. قام العجوز هابتلر حالاً وساعدها في خلع معطفها، وقادها إلى جانب المدفأة:

– تفضلي اجلسي هنا وتدفئي في بيتنا الصغير المتواضع.

قدمت لها الفتيات الطعام والمشروب ورمقتها ماريا بيك بعينيها الزرقاوين، ورشقتها ببعض الكلمات على سبيل المجاملة.

Telegram: somrlibrary

والتقط زنتاي جورج صوراً فوتوغرافية ضمت بيروشكا أيضاً إلى العائلة، وقد ارتسمت على فمها ابتسامة خجلة إلى جانب ياني. وبعد منتصف الليل، جمع ياني الأولاد الصغار ووزع عليهم المعاطف، والقبعات.

– لا تترك يد الولد لكي لا يفلت إلى الشارع، فتكتمل الكارثة – قالت أستر بتوتر:

– هل تظنينني مخبولاً؟ – قال ياني.

– و لم تتذاكَ. لا تعرف كيف تسهو عنه للحظة. فيصدمه شيء ما.

فصرخ ياني:

– إذن لن آخذه. سأتركه هنا.

تقدمت ماريا بيك وصاحت:

– تضجان من جديد. طبعاً لن يفلت يده. انقلعا من أمامي.

بعد ساعة أرجعهم إلى البيت. بالمزمارات والبالونات والقبعات الورقية. فكانت جلبة جهنمية. شيئاً فشيئاً صار صمت ميلكوش سوها يثير أعصاب هانيلكا. فكان انشغاله بحل الكلمات المتقاطعة والمعادلات الرياضية مجال تسليته الوحيد، ثم بعد العشاء يعانق زوجته دون التفوه بكلمة. ويغفو عميقاً. في شباط «فبراير» حصلا على عطلتهما. زارهما ياني ودهن البيت، بينما قامت هانيلكا بالتنظيفات والغسل، وكيّ الثياب، واندست مساءً في السرير وسلمت جسدها المتعب للعناق. مضى الأسبوعان بطيئان. وكانت سعيدة لأنها أخيراً بدأت تعمل.

عصر يوم ماطر صادفت في الشارع عازف السكسوفون «آرفين».

Telegram: somrlibrary

تبادلا من شدة ابتهاجهما، قبلاً على الخدود، وجلسا في مقهى الشباب يتبادلان الأحاديث.

روى الشاب فخوراً، بأنه شكل فرقته الصغيرة الخاصة، وأنهم الآن رجعوا من بلغاريا، إثر عقد مجز هناك. وأنهم قاموا بعرض حفلاتهم على شاطئ البحر بدخل وفير. وحكت هانيلكا أن لها بنتاً صغيرة رائعة وأنها تعمل وراء صندوق في متجر «آتكس». وأن زوجها غالباً ما يسافر إلى الريف ويقوم بجولات تقنية على حساب مكتب المساحة.

– يموت في الرياضيات – ضحكت.

ثم استرجعا الذكريات الماضية – فتبمست هانيلكا وسألته:

– هل ما زلت تعزف مقطوعة النجم؟

قبل الشاب يدها قائلاً:

– تعالي معي. سأحكي....

والتقيا، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع.

مرضت ماريا بيك، كانت تتنفس بصعوبة، تكاد تختنق وتسعل سعالاً جافاً مريراً يخرج من الأعماق. كانت تنجز أعمال البيت، ولكنها لم تتحرك خارجه خطوة واحدة. كان العجوز هابتلر يتبضع من سوق ساحة «تلكي» وياني يمسح أرضية البيت والمجلى، ويلمع النوافذ حتى إنه كان ينجز أعمال الغسيل الصغيرة.

تراجعت أحوال العجوز هابتلر أيضاً، فصار شيئاً فشيئاً يقطع الدرجات صعوداً ونزولاً بخطوات بطيئة. ويتوقف أحياناً في صعوده عليها دقائق بطولها. ويشد بيده على صدره من جهة القلب.

Telegram: somrlibrary

عاينه طبيب الحي وحذّره من إجهاد نفسه. ووصف له أنواعاً مختلفة من الأدوية. فصار العجوز هابتلر يتناولها بدقة وعناية. في موسم تفتح الأكاسيا سافرت ماريا بيك لترتاح في برغتش. كان الوالدان المربيان قد قضيا، وقطنت البيت القديم الفتاة الكبرى مع زوجها. فنزلت عندهما. كان العجوز هابتلر يزورها كل سبت. حاملاً الخبز واللحم والكارفيول والفليفلة الخضراء. الأمر الذي أغضب ماريا بيك.

– و لم تعتل الفليفلة الخضراء إلى هنا أيها العجوز؟

– انظري ما أجملها. انتقيتها قطعة قطعة كانت ماريا تنسج التنانير والسراويل للفلاحات، وتزركشها بخيوط من مختلف الألوان، فتحصل مقابل ذلك على الدجاج والبيض،واللبن، والقريش، فتقسمها بالتساوي وترسلها مساء الأحد إلى الأولاد. وبعد ظهر الاثنين يقوم العجوز هابتلر بتوزيع الطرود لكل منهم.

في منتصف الصيف ساءت حالة العجوز وهو في القطاء، فشحب وجهه واغتسل بالعرق. وعند نزوله في محطة أكاتس العليا شعر بألم حاج اعتصر قلبه. مشى بعض الخطوات ثم جلس يرتاح على طرف الخندق. و لم ينزل الكيس عن ظهره. لم تتقلص حدة الألم.

– لعلني أحتمل حتى البيت – فكر جزعاً.

تحامل على نفسه. وانطلق بخطوات متباطئة. رأته ماريا بيك من محل الجنينة فأسرعت إليه.

– يا مسيح! ماذا جرى لك؟

– قلبي – وأنزل الكيس مبتسماً

Telegram: somrlibrary

– لكني في حال أفضل الآن.

ساءت حاله في المساء. وجد صعوبة في التنفس. التوى رأسه وغاب عن الوعي. وقفت ماريا بيك جانب السرير وحيدة في القرية البعيدة الخرساء.

رجع الأقارب صباحاً من حفل الزفاف فباغتهم الخبر، أحضروا سيارة أقلته على فراش من القش، مسافة عشرة كيلومترات فوق الرمال الصفراء. حتى محطة أكاتس العليا.

استدعي الطبيب من الكنيسة. اسعفه بحقنة وتلفن للإسعاف. وخلال وقت قصير كان برفقة ماريا بيك في مشفى أشتفان في بودابست.

هتف شابات بيلا لأستر. ورجاها أن تخبر أخواتها. جلست ماريا بيك في المطبخ، كان المنديل فوق راسها مايزال مغبراً. وكانت ترنو في هدوء قلق من خلال ستارة الباب إلى أشعة الشمس الساطعة. ذهب ثلاثة منهم إلى المشفى.

نام هابتلر يانوش العجوز بلا وسادة. أفقياً، دون أن يبدي حركة. وجه شمعي شاحب يتقطر عرقاً. فمه فاغر، صدره يخفق، يلتقط الهواء بصعوبة. تحلقوا حول سريره، نادوه فلم يعرفهم، أطلقت أستر بكاءها الهستيري. جذبتها هانيلكا إلى الممشى. هزّتها:

– اضبطي نفسك. أو انصرفي من هنا وضعت مائتي فورنت في الظرف. ثم بحثت عن طبيب القسم وناولته إياه. عدل الطبيب نظارتيه. وبلهجة صادقة، مليئة بحس التضامن قال:

– للأسف. لا يمكنني أن أخبركم بشيء موثوق لكن الغريب في الأمر أن حالته احتملت أن يصل إلى هنا سالماً.

Telegram: somrlibrary

سالت دموع هانيلكا.

– هل سيكون السيد رئيس الأطباء إلى جانبه في المساء؟

– الطبيب المناوب. لكني سأكون هنا منذ الفجر. لا تدعي أباك وحيداً.

بعد حين وصل ياني وغزيكا وزنتاي جورج وبيروشكا. بكى ياني، اخرج من جيبه خمسمائة فورنت وقال لهانيلكا:

– تدبري الأمر. وزعي على الجميع. وغداً أعطيك أيضاً.

أعطت هانيلكا مائتين للطبيب المناوب وعشرين فورنتاً لكل ممرضة جاءت إلى غرفة المريض. ظلوا في الممشى حتى الساعة العاشرة ليلاً، تتناهى إلى سماعهم الحشرجات الأليمة. وفي النهاية وبعد إلحاح من الجميع أوصلوا ماريا بيك إلى البيت.

في صباح اليوم التالي ترافقت هانيلكا وأستر إلى المشفى. أجلسهما طبيب القسم وشرح لهما مطولاً وبالتفصيل حالة أبيهما.

– إنه في خطر – قال بصراحة.

– لا أستطيع أن أطمئنكما.

عندئذ بكتا. وأسرعتا إلى شارع ناج فوفاروش. كانت ماريا بيك جالسة على الصوفة. قبلتاها. تبسمت هانيلكا:

– الحمد لله. تجاوز الخطر هذه الليلة. وقد لا تتأزم حالته، هذا ما قاله الطبيب أيضاً...

رنت إليها ماريا بيك دون أن تبدي حركة، ثم ما لبثت أن انفجرت بالبكاء.

Telegram: somrlibrary

عصراً عادت هانيلكا وأستر إلى المشفى عرفهما هابتلر يانوش العجوز. فقال بصوت خافت:

– ابنتيّ. ابنتيّ!

وأخذته نوبة بكاء حادة.

انحنت هانيلكا إليه وقالت دامعة:

– لا يجوز أن تبكي يا أبتاه. ممنوع الكلام. والحراك والبكاء. عليك أن ترتاح وستعود إلى البيت بسرعة. نحن جميعاً سنزورك، ونطعمك يا أبي. وعبر أسابيع أطعمتا أباهما. كان يغلبه الوهن، حتى لا يكاد يقوى على بلع ملعقة حساء الدجاج، من يد هانيلكا لولا إلحاحها الشديد. وكان لا يمكن الانتفاع من أستر لأن يدها ترتجف، فظلت تدور حول السرير و لم يفتها أن تلاسنت مع أبيها كلما لامست أصابع قدميه.

انتظرهم عازف السكسوفون في ساحة «ناج فارد». أوصل النساء إلى شارع فوفاروش. وفي أيام السماح بزيارة المرضى كانت العائلة دائماً في المشفى. وفي أيام الآحاد لم ينقطع كل من العجوز زنتاي وميلكوت سوها وشرش شاندور وبوريش والجيران، عن زيارته. وكان هيرش أشتفان دائماً يحضر حلويات الكستناء. ويقبّل العجوز ثم يخرج إلى الممشى. يدخن ويتحدث مع الرجال. ومنذ أن انتقلت تشالا يولى من البيت، واشترت منزلاً خاصاً، أشيع أنه يعيش عندها، لكن لم يوجه إليه أي سؤال بهذا الخصوص. ساءت صحة ماريا بيك. وصاروا ينقلونها بالمصعد إلى غرفة مرض زوجها. وإذا كان المصعد عاطلاً، و لم يجدوا حلاً لتشغيله يدوياً صعد بها ياني بين ذراعيه، بعد جدال عنيف.

حين تكاثف ضباب الخريف فوق المدينة، صار يصعب تنفسها،

Telegram: somrlibrary

وشعرت بالاختناق، و لم يستطع الخروج من المنزل. بقيت بيروشكا معها وصارت أخيراً تنام هناك. وترافق ياني كل صباح إلى عملهما. وذات مرة سألت ماريا بيك ابنها بلهجة قاسية متى سيتزوجان؟ طبع ياني قبلة على جبينها.

– حين يجيء أبوك إلى عيد الميلاد.

مساء السبت في بداية تشرين الثاني «نوفمبر». قالت هانيلكا لزوجها في السرير: بأنها المرة الأخيرة التي تنام فيها في هذا البيت. وأنها لا تريح أن تأخذ شيئاً معها سوى طفلها.

وظل الليل بطوله يتوسل إلى زوجته ألا تتخلى عنه.

قالت هانيلكا في الصباح إنها ستأتي يوم الاثنين لأخذ أغراضها، وطفلها. ارتدت ثيابها وميلكوت في السرير، يراقبها.

– هل ستذهبين إلى المشفى؟

– نلتقي هناك.

وافقها ميلكوت سوها. وراح يمج سيجارته.

صباح هذا الأحد ذهبت هانيلكا إلى أمها يف البيت، كانت وحيدة، تطبخ لأن ياني وبيروشكا سافرا إلى بروغتش من أجل النبيذ. قبلت جبينها المليء بالتجاعيد جلست قربها. وأشعلت سيجارة.

– سأترك ميلكوت – قالت لأمها:

توقفت يدا ماريا بيك فوق الإناء. وسألتها:

– ما الذي حدث؟

فكرت هانيلكا قليلاً وأجابت:

Telegram: somrlibrary

– لقد فسد هذا الزواج. لا أستطيع أن أتفوه بكلمة سيئة عنه، لكنني سئمت الحياة معه. باختصار... ليس جيداً، ليس جيداً. وربما ما كنت شعرت بكل هذا لو أنني أحب غيره. عازف السكسوفون، أرفين.

– يا مسيح! ماذا تقولين؟ ولكن ميلكوت شخص نزيه، مهذب، محب لأسرته، هل فكرت جيداً؟

– أجل فكرت يا أمي. وقد أتيت الآن لأعرف إذا كنت تسمحين لي بالعودة إلى البيت؟

صمتت ماريا بيك. وعدّلت منديلها الأسد.

– متى تحضرين الولد؟

سألتها وتابعت العجن.

عند الغداء وصلت أستر وزوجها وابنتاهما. أجهرت أستر:

فليذهب ميلكوت سوها بكلماته المتقاطعة إلى الجحيم. تشرين الثاني «نوفمبر» على الأبواب، وليس لدى هانيلكا أو طفلها معطف شتوي.

ثم التفتت إلى أختها الصغرى.

– كم راتبه؟

– لا أعرف.

– كيف لا تعرفين – صرخت في وجهها – كنت تعطينه كل مدخولك حتى آخر فيللر. كم قدم زوجك للبيت؟

ستمائة فورنت؟ قولي لأمك. قولي إنك أنت التي تنفقين على الأسرة. وكنت تفتقدين دائماً ثمن الدخان وأجور الترام.

Telegram: somrlibrary

والتفتت إلى أمها:

كل أحد تمضي وقتها في الغسيل والكي و لم يصطحبها إلى السينما. أفضل لها أن تعيش وحيدة مع طفلها.

نظرت إلى زوجها لكنه كان يأكل صامتاً.

أعدت ماريا بيك طعام هابتلر العجوز، وانهمكت في غسيل الثياب أما هم فقد ذهبوا إلى المشفى لإطعام أبيهم. بعد حين وصلت آنا كوفتش، برفقة ابنها المقدم، وغيزيكتا وآغوثا، وتلاهم هيرش أشتفان مع حلوياته الكستنائية، وأخيراً ميلكوت سوها بوجهه المتجهم.

شعر هابتلر يانوش العجوز بتحسن في حاله فسمح لأحدهم بالمكوث عنده دقيقة أو دقيقتين قرب السرير، ولكن لم يسمح لهم كثيراً بالحديث.

انتهت الزيارة الساعة الخامسة، وقف جميعهم أمام مدخل المشفى والمطر يهطل.

رفع زنتاي جورج ياقة معطفه المطري وقال:

– ما وجهة كل منا؟ نحن ذاهبون إلى أمنا فقال هيرش أشتفان:

– وأنا أيضاً أزورها.

– وأنا كذلك – أردف ميلكوت سوها.

ودعت آنا كوفتش ابنها. قالت غيزيكا وقد حملت آغوثا:

– سيلحق بنا الآخرون بعد قضاء أشغالهم.

جلسوا في المطبخ. شعر الجميع بأن جواً من التوتر قد ساد بينهم. فصاروا يدخنون وينظرون في بعضهم. ماريا بيك على الصوفة، تسعل.

Telegram: somrlibrary

قالت أستر:

– حالة أبي في تحسن دائم، وعلينا الآن ألا نسمح له بالتحرك كثيراً.

ظلوا صامتين. رمقت هانيلكا وجه ميلكوت سوها. ثم بعد حين، أطلقت ضحكة عالية. وانتصبت.

فتحت ذراعيها. وقامت بانحناءة مازحة وقالت:

– الآن اكتمل مجلس العائلة. يمكن أن نبدأ. أعتقد أن كلاً منا يعلم باستقلالي عن ميلكوت سوها، لأنني لا أريد متابعة حياتي معه. لا أريد منه شيئاً سوى طفلي.

أطفأ هيرش أشتفان سيجارته.

– ما الذي ارتكبه في حقك؟

– لا شيء. لكن المسألة ليست في هذا.

تفوه سوها:

– لكنما هي ارتكبت في حقي...

نظرت إليه ماريا بيك

– لماذا؟ ما الذي فعلته؟

– خانتني. مع رئيس مجموعتي.

حدق زنتاي فيمن احتمت بالجدار، وارتجفت يدا أستر. وحملقت هانيلكا في زوجها بعينين مطبقتين نصف إطباقة. وابتسم هيرش أشتفان. ماريا بيك ثبتت بصرها في وجه ميلكوت سوها، وأطبقت أصابعها المعقوفة، وضربت بقبضتها على الطاولة:

Telegram: somrlibrary

- إذن ابنتي عاهرة؟

شحب الرجل.

- لم أقل هذا...

ضحكت هانلكا قائلة:

- رائع. إذن لم تابعت حياتك معي؟ المسألة لم تكن كذلك أبداً. أنت تعلم تمام العلم أن المسألة ليست هكذا.

جاء دور زنتاي جورج ليقول بصوت هادئ:

- يا جماعة الفكرة غير هذا. هذه قضيتكما أنتما وهي لا تخص أحداً. علينا نحن التحدث بمصير الطفل. هذا هو الشيء المهم.

بعد قليل تفرقت المجموعة. انتحى ميلكوت سوها بزوجته جانباً وسألها بخفوت مرتبك.

- أتأتين معي إلى البيت.

حدقت هانيلكا بعينيها الكبيرتين المستديرتين. وصرخت في وجهه بغتة:

- لا يا ميكلوت. غداً سأجلب أغراضي والطفل.

أطرق ميكلوت سوها. ثم سحبه هيرش أشتفان في التاسعة مساءً وصل ياني وبيروشكا، ومعهما أربع دبجانات من النبيذ ذاقت ماريا بيك كأساً، نظرت إلى ابنها:

- رجعت أختك إلينا - قالت

- أحضر الطفل غداً، سيسكنان معنا.

Telegram: somrlibrary

انحنى ياني ليحل رباط حذائه، وأجاب:

– البيت متسع.

كان زفاف هابتلر يانوش الابن في عيد الميلاد. بدأت ماريا بيك منذ الفجر، في إعداد الأطعمة وقطعت خمسة أزواج من الدجاج، وقرقر الماء المغلي فوق النار، عجنت هانيلكا. قشرت غيزيكا البطاطا. ونظفت الكمية الكبيرة من الخضار وغسلت أستر اللحم البقري ولحم الخنزير وأعدت تبلة القلي. وأرحن بيروشكا فلم يسمحن لها بالدخول إلى المطبخ.

– سيأتي يوم تشتغلين ما يكفي. حتى تملّي.

جلس ياني حول طاولة الاحتال ببزته الزرقاء الغامقة وزوجته بطقمها الأزرق الغامق. شربا النبيذ البروغتشي القوي. قام زنتاي بمهمة التقاط الصور. فيما بعد رغب هابتلر العجوز في كلمة يلقيها. كان جالساً في السرير تسند ظهره الوسائد. كاد أن يكون أصلع، وما تبقى من شعره أبيض تماماً.

دلّ عنقه الثخين على قوة غابرة، وامتلأت بشرته بالتجاعيد. سكبوا في كأس قليلاً من النبيذ، وناولته إياه غيزيكا. عدل جلسته وقال:

– أولادي الحلوين من كل قلبي أتمنى لكم أن تعيشوا كما عشنا أنا وأمكم الغالية. لا يخلو الأمر من المشاجرات والخلافات التي يعود الفضل لأمكم في فضها. وعليّ أن أعترف أنني أمقت الكلمة الكاذبة كما أكره الإنسان الكاذب، فأنا ألفظه ولا يعني لي أي شيء. صحيح أنني لا أريد أن أتفاخر بنفسي، لكني كنت أسلم كل مدخولي لها، لأنني لم أقدم على ارتكاب أي فعلة مسيئة من أي نوع. والآن أرفع نخب زوجتي الغالية، نخب الزوجين الشابين، نخب أسرتي الغالية وأتمنى لكم دوام السعادة وسالت عيناه بالدمع.

Telegram: somrlibrary

بعد منتصف الليل، اشتدت حرارة الاحتفال فأجهر العجوز زنتاي أنه سيتزوج. وسيتخذ إحدى الأرامل زوجاً له. وهي تملك ستين ألف فورنت، وجميلة أيضاً ضحكت ماريا بيك:

– أيها القرفة العجوز! دائماً،هذا ما يدور بذهنك. استغرب العجوز زنتاي فقال:

– و لم لا؟ ليس هذا أكثر من شيء مريح ويبعث على البهجة ننفق نقود الـ «ماما» ثم نرحل.

احتدت ماريا بيك.

– ليحترق لسانك عاجلاً ستوضع في التابوت، ومازلت تفكر بالنساء.

وضع زنتاي قدحه.

– التقدم في العمر ليس مشكلة.

ضحكت ماريا بيك:

– لماذا؟ ألا تترهل مثل جزمة.

كرر:

– ليس مشكلة. ذات مرة سيقع المرء في الشارع أو في أي مكان آخر لا أفكر أنا بمثل هذا...

صار زنتاي جورج سكران. فراح يغني كيفما اتفق: هيه أيها السماكون.... هاجمته هانيلكا واصفة إياه بالجيفة، والحيوان. توهجت عينا ماريا بيك من النبيذ، فاحتدت وطردت أستر من الغرفة، ذهب وراءها العجوز زنتاي ومسح شعرها.

Telegram: somrlibrary

– آسف. لأن القدر قادك إلى ياني. لن يكون في يوم شخصاً رزيناً. مثل جده، يشرب ويلحق بالعاهرات وينفق المال. أقترح عليك أن تخونيه ليكتشف غروره.

شرش شاندور وزوجته اشتريا شرشفين وغطاءي لحاف بلون كرزي هدية زفاف الشباب. كان شرش شاندور قد توهج وجهه من النبيذ البرغتشي. اجترع قدحه وأمر بالصمت. لكن حين انتصب واقفاً كان تأثير النبيذ قد بلغ حداً جعل عينيه تدمعان:

– كن سعيداً يا ياني. أنت زوجتك. هذا ما أتمناه لكما.

وعاد إلى جلسته سريعاً. منحه شابات بيلا قبلة، ثم قبل زوجته. وبدأ يغني ملء حنجرته «توشوش الغابة، يوشوش القصب» وغنى الجميع حتى الفجر، وبين الحين والحين كانوا يشربون نخب صحة وسعادة العروسين الشابين.

في آذار «مارس» أدخل العجوز هابتلر مشفى الأمراض القلبية في «بلاتون فردي». وبعد ثلاثة أشهر خرج إلى البيت في أفضل الحالات الصحية وأحيل، حسب تقرير الطبيب وإرشاداته، إلى التقاعد. أعد زنتاي كافة الأوراق، وبعد شهرين من المتابعة حصل على راتب تقاعدي سبعمائة فورنت لكل شهر. واتفق الجميع على أن يدفع كل منهم مائة فورنت لتجميع المبلغ.

في البيت الغرفة – المطبخ صارت الحالة مزرية.

وصار العجوز هابتلر يشعر أنه في سجن، وسيطر عليه القنوط. بذلت ماريا بيك، كل ما في وسعها للعناية به فلم تدعه حتى في الممشى. لم يعر اهتمامه لصحيفة أو كتاب، بل كان يتمشى في البيت ذاهباً آيباً،

Telegram: somrlibrary

يشكو ويوجه ملاحظاته الحادة، والهازئة، يجرح بها زوجته. في مثل هذه الأوضاع كانت ماريا بيك تشرب ثلاث كوس من النبيذ، ثم تأخذ بشتم زوجها بنبرة صوتها الهستيرية. وحدث أن لكمها على وجهها. ويوماً بعد يوم احتد الشجار بينهما، فامتنعا، غير مرة، عن الكلام معاً. فنشأت بغيضة صامتة شديدة تجاه بعضهما البعض.

انتهت قضية طلاق هانيلكا. وحددت المحكمة مبلغ أربعمائة فورنت غرامة لحضانة الطفل.

وفي مستهل الخريف عقد قرانها في مقر المحافظة بشهادة شخصين غريبين. واشتريا منزلاً خاصاً في شارع «أوللوي» دفع منها عازف السكسوفون أرفين أربعين ألف فورنت كدفعة أولى.

التحق زنتاي جورج بالمعهد التقني الاقتصادي، وأنهى سنته الأخيرة بحضور المحاضرات الليلية. درس بإرادة صلبة، وبعد الحصول على الشهادة الثانوية أراد الالتحاق بالجامعة.

وعقد العزم على أن لا يهدأ له بال حتى ينادوه الدكتور زنتاي.

– حتى لو تغير النظام ستبقى الشهادة صالحة – قال.

والذي أغاظ أستر. وأفقدها صوابها أنه في كل مساء كان ينشغل بالدراسة. فكانت تهزأ منه.

– لا تغضب! ولكن يضحكني أن بشراً صلعاً يمشون الخيلاء. أقبل ذلك في عمر ثمانية عشرة عاماً، ولكن، هكذا بالنسبة لي، يبدو الأمر..... مضحكاً.

– لا يهمني رأيك – أجاب بجفاف.

قالت أستر ذات مساء إنها ستسجل في الجامعة. وقد زكيت لذلك

Telegram: somrlibrary

في الورشة، لأن وثيقتها في الثانوية العامة ممتازة. وأنها تريد أن تدرس الحقوق.

– سأكون الدكتورة أستر هابتلر.

أجاب زنتاي:

– لا توجعي رأسك بهذا، لأنني غير مستعد أن أولي الولد اهتماماً كل مساء.

تجددت بذلك منغصات حياتهما المشتركة، عاود زنتاي الشرب. وصار غالباً ما يرجع إلى البيت مطفأ من شرب الكحول. عندئذ غضبت أستر قائلة:

– لا تلمسني. أمقتك. لا تلمس الولد. انقلع من هنا. هذا لا يحتمل.

– حسناً – قال.

– لا بأس. سأنقلع.

لكنه لم يذهب.

بثت أستر شكواها الباكية في بيت أهلها.

قالت ماريا بيك: تعالي مع طفلك. أما غيزيكا فقد نظرت إلى المسألة من منظار آخر. و لم تغادر البيت وتترك الأثاث، والغسالة؟ كي يشرب بثمنها الكحول؟

ياني كز بأسنانه:

– وما دخلك أنت؟ أنت مجنونة دائماً طوال حياتك. وربما انهال عليها ضرباً في حالة من حالات سكره. ماذا تقولين عندها؟

Telegram: somrlibrary

وبعد بكاء طويل، وشجار، وجدال عادت أستر إلى«بست الصغيرة». خلع العجوز هابتلر ثيابه، واندس في السرير. أشعل مصباح الكلوب. ورمق زوجته بنظرة متحدية ساخرة. وقال بنبرة معتبرة:

– عليّ أن أتحدث مع زنتاي، أنا لا أسمح بالسكر بين أفراد أسرتي وأرفض إنساناً مثله.

شحيت ماريا بيك وصرخت:

– صار يلعلع لسانك ثانية؟ هل ترغب في القضاء علي؟ وعن قصد؟ دخل ياني إلى المطبخ.

– أمي! لا تبدئي الأمر من جديد. أرجوكما بحق الله يا أمي. وإلا سنغدو جميعاً في مشفى الأمراض لعقلية.

نظرت إليه ماريا بيك شذراً:

– وتقول ما تقول لأمك؟ أيها الفدان.

– أعرف – قال ياني.

– تشرب أمي ثلاث أقداح نبيذ ويصير كل منا فداناً!

تناول الزجاجة وألقاها أرضاً. ثم خرج إلى المطبخ يغتسل.

كانت بيروشكا حاملاً. وكان ياني يترقب المولود كالممسوس. فكان يراعي زوجته ويحرص عليها من النسيم. ويأخذ من يدها حتى أخف الأعمال المنزلية، ويجلب من أجلها الموز والبرتقال. ومرة أخرى، حلم بالماء الغزير، فحكى حلمه هذا لأمه التي نصحته بألا يخاف. صحيح أن بيروشكا شديدة النحول، وتعاني من نقص في دمها إلا أن طبيباً ممتازاً ينتظرها في مشفى أشتفان.

Telegram: somrlibrary

تبسمت:

- لكن كل صباح، حين تستيقظ، انظر حالاً من النافذة. وسوف تنسى حلمك.

ومسحت يده القوية.

ساءت حال بيروشكا في الشهر الثامن، وتوجعت قبل حينها. وجاءتها آلام المخاض الدورية كل عشر دقائق. لملمت ماريا بيك أغراضها وأحضر عازف السكسوفون أرفين (التاكسي) ونقلوها برفقة هانيلكا إلى مشفى أشتفان.

جاء ياني بعد حين. وانتظروها مضطربين في الممشى. حتى خرج الطبيب من غرفة التوليد. وأخبرهم أن عليه القيام بعملية قيصرية وأن هناك خطورة، وعلى ذويها أن يختاروا بين حياة الطفل وحياة الأم. وطلب ياني الحفاظ على حياة زوجته، كانت عيناه مغرورقتين بالدمع.

نقلت بيروشكا على عربة العمليات، وريثما كان الأطباء يغتسلون استعداداً لإجراء العمل الجراحي سمع صراخ طفل معافى أصلع باغت الجميع دون تدخل من أحد. وبعد شهر كانت تجري طقوس عماده ضمن كنيسة الإصلاحية في ساحة «ناج فارد». قلت ماريا بيك السمك وأعدت القريش، فاجتمعت العائلة واحتسي النبيذ، وصدح الغناء حتى الصباح، وكان ياني أسعد من عليها.

يوماً بعد يوم صار خناق العجوزين يتنامى، فلم تسمع من أحدهما كلمة طيبة تجاه الآخر. مارس هابتلر قتاله بهدوء، وطول بال، ملاحقاً بتعليقاته واقتراحاته زوجته حتى أخرجها عن طورها الهستيري.

Telegram: somrlibrary

ذات صباح على قدح الشاي سألها هل زارتها «آنا» حين كان نائماً في المشفى؟

وضعت ماريا بيك القدح.

– أهذا ما يدور في بالك؟ أيها البقرة العجوز! حتى وأنت ميت في الحياة يشطح خيالك الأسود بمثل هذا؟

هز هابتلر رأسه:

– لا تجرحيها دائماً. آنا امرأة شريفة. جديرة بالحب. ودود، وهي مخلوقة رقيقة وتستحق الصداقة.

هنا انفجرت ماريا بيك.

– ومع ذلك ضربتني من أجلها. ورميتني أرضاً أيها القواد. اشتغلت وغسلت أربعين عاماً، كالحيوان وأنت مع عاملات التنظيف في أكاديمية لودفيكا. وكنت تعتقد أنني لا أعرف وكنت تظن أنني لا أعرف أنك ضاجعت زوجة شابات بيلا.

– ممكن – قال هابتلر.

– ولم لا؟ كما أذكر، امرأة قوية، ذات جسد بديع.

زعقت ماريا بيك حتى بدا التشوه على وجهها الصغير المجعد، وراحت تشد شعرها وتنفشه بأصابعها المعقوفة، والدموع تسيل من عينيها الزرقاوين.

صرخت:

– هل تريد أن تضعني تحت الأرض؟ سأفعل ذلك وأحقق لكم هذه

Telegram: somrlibrary

الرغبة بنفسي. لكن لا تحمل لي زهوراً لتضعها على قبري. أنت المجرم الهانئ البال. حقير، وكنت دائماً حقيراً أيها الحرباء.

قال هابتلر:

– اسكتي بحق الله. وإلا سأفجر البيت بكل ما فيه. منذ أربعين عاماً وأنا أتوسل إليك أن تطبقي فمك القبيح، وأن تتحدثي بصوت هادئ. كما يليق. ولكنك لا تتقنين غير الصياح في وجهي، ووجوه أبنائك والجيران، كالخنزير البري، اسألي أياً كان، وأي أحد من أبعد الجيران، ناطور العمارة وأي فرد من أفراد عائلتي في بروغتش، وأي ولد من أولادنا إن كنت قد أظهرت احترامك وتقديرك لأحد في هذه الحياة. الجواب لا. هل خاطبت أياً كان، في أي مكان، إلا بفجاجة؟ الجواب لا، إذا طرحنا السؤال للتصويت لن يقف أحد في العالم إلى جانبك.

لم يرف لماريا بيك جفن. بل قالت:

– ليحاسبك الله أيها الدودة....

ودخلت الغرفة تبكي.

في مثل هذه الحالات يتخاصمان، فلا يكلم أحدهما الآخر. تعد ماريا بيك غداء وعشاء، وتضعه على المائدة دون أن تتفوه بكلمة. لكنها بعد أيام تهزأ من نفسها.

– كل أيها العجوز ملعونة معدتك.

تبسم هابتلر. وطبع على شفتيها قبلة بأسارير معترفة بالذنب.

وقال بصوت مرهف الحس:

Telegram: somrlibrary

– شكراً جزيلاً أيتها الأم الرائعة. شكراً لهذه العناية بقلبك الطيب، والتي بذلتها من أجلي دائماً وأبداً.

وفي اليوم التالي تجدد خصامهما وهما يسترجعان ذكريات غابرة قديمة.

حتى في النهاية سأل ياني أخيه أن تفعلا شيئاً لإنهاء هذه الشجارات القاتلة خاصة أمام زوجته بيروشكا.

عصر يوم الأحد حضر جميع الأخوة واجتمع شمل العائلة. وأنصت الوالدان كطفلين ملعونين.

تحدث هانيلكا بمرارة وعينين دامعتين.

– الحياة، هكذا، مستحيلة. كلاكما مريض. لا نعرف أي منكما سنحتمل أكثر. كم مرة وعدتما ألا تعودا إلى الشجار ثانية. لكن دون أي جدوى. إذن لم يبق إلا حل وحيد. تأتي أمي وتعيش عندي، أو عند أي منا. وأبي يظل هنا. الحياة معاً مستحيلة.

احمرت ماريا بيك وقالت مثارة:

– حسناً. حسناً؟ ليهتم كل منكم بأموره الخاصة. وكفى. على كل حال ما دامت حياتنا خلال أربعين عاماً، كانت جيدة، ستظل جيدة إذن.

وضحكت بغضب مشوب بحياء.

بدا أنهما في حالة سلم. هيمن المرض على ماريا بيك. فوهنت يوماً بعد يوم، قواها، وصوتها، و لم يبق إلا عيناها على سابق عهدهما، تشعان نقاءً وحزماً. تناولت كثيراً من الأدوية: سوفالسمين، أستماميد، قطرات إزولانيد، كودريت، والمهدئات العصبية، وشدد عليها طبيب الجادة أن

Telegram: somrlibrary

تلزم الراحة. لكنها كانت تخاف أن تنام، لأنها تشعر بضيق أنفاسها عند الاستيقاظ، فتعض على الغطاء من الألم. لذلك كانت تظل ساهرة الليل بطوله، جالسة في السرير، تستمع إلى همسات الآخرين، ثم تأخذ غفوة عند حلول الفجر.

كان نوم العجوز هابتلر هانئاً، عميقاً، وكان يستيقظ نشطاً مليئاً بالحيوية. يحلق ذقنه وينظف حذاءه ويلمعه. ويعقد ربطة عنقه راغباً في الخروج. يتسلى بمزاورة المعارف مادام لا يتاح له أن يعمل. لكن، وبإرشادات من الطبيب، وبرغبة ملحاح من قبل الأبناء لم تسمح له ماريا بيك بالخروج من المنزل. عندئذ، من شدة ضجره وحقنه، يبدأ بالتفاخر بقوته ورجولته. مجاهداً أن أشد النساء حرارة لن تشكو بين ذراعيه.

لكن ماريا بيك صنفت تفاخره هذا في باب التجريح وقسوة القلب، فتجددت المشاحنة ربما على نحو أشد، بينهما.

فجر يوم الأحد في نهاية الصيف، تحدث ياني مع أمه، في المطبخ بهدوء لكي لا يزعج النائمين. جلست ماريا بيك على الصوفة وفي حضنها مقلاة وكانت تقشر التفاح وتقطعه. وكان ياني يحلق ذقنه:

– سأذهب ا أمي. سآخذ زوجتي وابني.

– إلى اين يا بني.

– لا أعرف. طلبت سكناً من الورشة. إذا لم يساعدوني سأذهب إلى «جور» أو إلى أي مصنع جديد حيث يعطونني سكناً.

– والأسرة؟

– لا شأن لي بها.

Telegram: somrlibrary

– حقاً؟

– حقاً يا أمي. لا أبي السافل ولا إخوتي المومسات ولا كل الشلة الملعونة.

– وأمك بماذا تنعتها؟

غسل ياني الرغوة عن ذقنه. نشف.

– لا يمكن العيش هنا. لن ينتهي هذا الوسخ والضجيج على خير. أريد أن أرتب حياتي. سآخذ ابني.

أوحت العجوز بضحكة دون صوت:

– لن تغادر هذا المكان. سأقتلع عينيك من وجهك ولن أدعك تذهب. سأنام على عتبة البيت لتمرق فوق جثتي. أنا أمك. أنت خلقت فيّ. تحت قلبي. أنت ضناي، وسعادتي كأخوتك الآخريات. لي أنا الحق في الكلام لأنني عانيت وشقيت من أجل الأسرة. عشنا معاً في السراء والضراء، وسنبقى معاً ما دمت أنا حية ترزق.

ثم إنك.... ابني. أضحك أحياناً حين تصرخ، وتضغط على أسنانك، وتستخدم قبضتك... لا تسئ لأبيك، صار عجوزاً خرفاً. لا تسئ لأخواتك من دمك. أقول عليك أن تقوم بحمايتهن لأنك أصبحت رجل البيت ودعامة الجميع. هذه وصيتي لك.

– أمي – أجابها.

– لو ربطت بقدمي تراكتوراً سأغادر حظيرة الخنزير هذه. لي طريقتي في تربية ابني. ولي الحق في ذلك يا أمي. وبابتسامة رقيقة ارتدى قميصه.

Telegram: somrlibrary

بعد يومين قبل ظهر الثلاثاء. هتف شابات بيلا مرعوباً إلى منزل هانيلكا، قائلاً إن مدام هابتلر في حالة سيئة، وعليها الحضور في الحال. لم تكن هانيلكا في البيت، لأنها ذهبت مع العازف إلى شارع «فورفاروش». انتظرها شابات بيلا في الممر. اقترب منها بوجهه يبدر عليه الاهتمام وأجهر أن مدام هابتلر، في رأيه، انتحرت.

جلس العجوز هابتلر وحيداً مقوس الظهر في المطبخ. قفزت عيناه جافلتين، تتابعان سحنة صهره وقال:

– أنت ودود وطيب، وأظهرت لطفاً كبيراً بقدومك.

استلقت ماريا بيك بقميص النوم الفانيلا في السرير. أشعة الشمس تغطي وجهها. وشعرها الأشيب منفوش. ولسانها المزرق خارج فمها، وعيناها الزرقاوان شاخصتان في سقف الغرفة.جلس عازف الساكسوفون حاضناً جسدها الخفيف، وملصقاً وجهه بوجهها المجعد الصغير.

– ماذا فعلت. أجيبي يا أمي. أتسمعين ما أقول. انبثقت دمعة من عيني ماريا بيك. طلب عازف الساكسوفون حليباً وأطعمها. عندئذ بدأت المرأة تبكي.

– أترين؟ حتى إنني لا أقوى على الموت..... قال إنه لم يحبني قط... وأنه عاش معي من باب العطف، يكره أن يقبل يدي.... يا للبشاعة.

هدهدها عازف الساكسوفون دقائق، حتى أغفت. ثم خرج من المطبخ، وسأل هابتلر لم لم يدع طبيباً؟ فأجا أنه لم يجرؤ على مواجهتها، ولكن حين حدثت الواقعة لم يكن هو في الغرفة.

Telegram: somrlibrary

– إذن صل الآن. فقد تذهب لكي تشارك في دفنها.

ما إن جاء المساء حتى تحسنت ماريا بيك، واستقبلت أولادها كالعادة.

و لم يذكر هذا اليوم ثانيةً.

وفي الليل المتأخر دعت ماريا بيك ابنها إلى سريرها.

– أنا لم أستطع الخلاص، ارحل أنت من هنا. أتمنى لك السعادة.

هز هابتلر الشاب رأسه وقبل يدها.

عاد زنتاي جورج كل ليلة مخموراً إلى المنزل. خف وزن أستر ونحلت. وباتت يداها ترتجفان، وصارت عاجزة، حائرة، قانطة. رمقت ابتسامة زوجها البلهاء بكراهية:

– أنت حيوان. حتى أبوك سيأتي ليشهد في المحكمة. أي نوع من المخلوقات السكيرة أنت. ثم.... لا تستعمل صابوني ولا معجون أسناني اشرب زجاجتين من النبيذ أقل لأنني لا أنشغل بك. قال أبوك بأن أركلك إلى الجحيم. وأجد لنفسي شخصاً محترماً لائقاً بي.

حل زنتاي ربطة عنقه. شرب كأساً من الماء، تبسم لكنه ظل حزيناً، عيناه كئيبتان. فقال بصوت جاد:

– يا إلهي لكن تربيت تربية ممتازة. توقظني الممثلات كل صباح. لأن أبي يظل نائماً تحت تأثير الكحول. يضع وهو نعسان سماعة الهاتف على أذني فلا اسمع إلا أنغام. حتى أن كارادي كاتالين غنت أغنية قصيرة للسيد رئيس القسم في الأمن الجنائي. طبعاً، عليّ أن أعترف، لكي لا أتجنى عليه، بأنه أولاني عناية فائقة. مرة في حالة من حالات سكره

Telegram: somrlibrary

ضغط فوهة المسدس في صدغي لأنني امتنعت عن العشاء. احتملت أمي معه ثلاث سنوات. ثم ماتت.... لكن هذا الشخص المستقيم أبي على كل حال.

سأخط على قبره يوماً: هنا لا يرقد أحد.... أما أنت، فحشرة صغيرة تافهة، أقسم إنني أكن لك بغضاً شديداً.

بكت استر بكاءً شديداً. وفي النهاية بدأت تنغص تبعاً لنصائح أختيها، حياة زنتاي جورج. فكانت تبادره بنبرة قاسية كل ليلة بالسؤال:

– متى سوف ترحل؟ متى تنصرف؟ متى نتحرر منك؟

– سأرحل. سأرحل. في وقت قريب.

وكان رأي العائلة أنه لن يرحل أبداً.

في نهاية تشرين الأول «أوكتوبر» رحل بغتة. حمل معه بعض شراشف النوم، وآلة التصوير. والراديو، حين أتت أستر من العمل وجدت منضدة الراديو فارغة، فأخذت تبكي. وفي اليوم التالي هدأتها أختها في بيت الأهل قائلة:

– هل جننت؟ أليس من أفضل من أن يقاسمك الأغراض كلها. ابتهجي لأنه لم يأخذ غير ما أخذ.

سمعت ماريا بيك تشهق في المطبخ ببكاء خافت.

– يا إلهي ثلاثتهن، ثلاثتهن.....

لكن فتيات هابتلر ضحكن وسخرن منها. وأوضحن لها أنهن كيفما وجهن أبصارهن يجدن زواجاً فاشلاً. والنساء يصبرن على الخناق، والأزواج السكيرين، لأنهن يخفن من أفواه الجيران، ويحزنهن اقتسام

Telegram: somrlibrary

الأثاث والأغراض، لكنهن، والحمد لله، لا يحملن نفوس العبيد، ولا يخفن من الوحدة، وإنهن على استعداد لحضانة الأولاد وتربيتهم.

ضحك ياني:

– أكيد. الأول سيصبح مغنياً. والثاني عازف بيستون. سيلتهمان ما يتسع بطنهما من السمك المقلي والقريش.

بدأت الفتاتان تبكيان. ودمعت عينا غيزيكا.

– هذا كل ما تستطيع قوله؟ وإذا ما أوقعت بك الحياة؟ إلى من ستلجأ؟ أنا حرصت على رعايتك في البراكة، حين انشغلت أمنا بالعمل. أنا رافقتك للنزهة والفرجة على مصح رينغر. اعتنيت بنظافتك، أعطيتك خبزاً وتفاحاً.

ياني طفح كيله. صرخ:

– لا تلعبي معي ولا تعبثي! أعرف ما يكفي عنك، وعن أفعالك؟ تحسبين أني مخبول؟ سأعلق المصباح الأحمر على الباب لكي يعرف الناس أين توجد بنات هابتلر. كل فتاة تمتاز عن الأخرى. جاز. رقص. فليب شوكولا. نرجو الانتظار في الدور.

– لا أصدق! – شهقت – لا تصدقن كلامه! إنه يصرخ، فقط يصرخ. مني أنا ورث هذا الطبع البائس. أخوكن ذو قلب دافئ. لن يتخلى عنكن أبداً.

– ياني استأنف:

– أبصق على العائلة بأكملها! وعليك أيضاً. لا تظنيني أهرج، لن تقنعيني. كفى ما أصابني من الجميع. ومنك يا أمي.

Telegram: somrlibrary

طفحت حتى حلقي حتى الإقياء.

تسمرت حدقتا ماريا بيك فيه. وألقت بنفسها على المجلى تمزق شعرها. حتى انهارت. وقعت أرضاً فتكدم جبينها ورعف أنفها وهي تصرخ:

– فقط يصرخ. لكنه ذو قلب دافئ. لن يدع الأسرة تتفكك.

أسرع ياني إليها ورفعها من ذراعها. قبل جبينها المتجعد. وتقطر الدمع من عينيه الصفراوين.

أنا أصرخ فقط يا أمي. أجعجع. أعرف نفسي. مجنون. لن أتخلى عنهن في حياتي أبداً يا أمي. لا يمكن لإنسان أن يتخلى عن إخوته.

\تعانق الجميع عندها. وبكوا قليلاً. وفيما بعد شكت غيزيكا من ألم في ظهرها. استلقت على الصوفة فشلحت ماريا بيك غطاءً عليها. فغطت في نوم عميق. ولو كان في مكنتها لنامت على الدوام.

واستمر ألم ظهرها فلم تذهب إلى طبيب رغم إلحاحهم عليها. مبررة عدم ذهابها بأنها كل شهر تدفع أربعمائة فورنت قسط البيت إضافة إلى الكهرباء والتدفئة، والطعام، وبطاقة المواصلات الأسبوعية. حتى أنها لا تتمكن من شراء الثياب من مصروف الطعام. صارت آغوثا في الصف الثالث الثانوي. كانت فتاة جميلة هيفاء. من غير الممكن شراء ثياب لها من متجر «أوترو». كان هيرش اشتفان يرسل لابنه بداية كل شهر ثلاثمائة فورنت، من عمله، خبيراً، في ورشة تصنيع عدد خاصة.

كانت آغوثا تزوره أحياناً فيطمئن عن أحوالها ويسألها عن دراستها، ويتفاخر غالباً بأنه مطلوب للعمل في مختلف المصانع نظراً لموهبته العالية.

Telegram: somrlibrary

ولم يسألها عن غيزيكا مطلقاً، كما لم يحدث ابنته أبداً عن حياته الخاصة. اشترى لآغوثا بطاقة حضور مهرجان غنائي، ودراجة، واصطحبها معه لتشاهد معه أوبرا «بانك بان» في المسرح القومي. وذات مرة نزلت على الدرجات ابنة تشالا يولى إلى الورشة، محضرة غداءً في إناء. كانت «تشالا يولى» فتاة نحيفة، صلبة النهدين، ترتدي صدرية بنفسجية، صبغت شعرها اشقر. بضحكة عالية قبلت عامل الخراطة الأشقر.

– مرحباً، بابا.

عندها احمرّ هيرش اشتفان. وراح يكنس نثار الحديد تحت الآلة. شعرت آغوثا للمرة الأولى بقرف، تجاه أبيها.

كان طفل ياني الخديج كثير المرض مما جعل أمه بيروشكا تلازم البيت أسابيع بطولها فكانت خمولاً، غالباً ما تنام حتى العاشر قبل الظهر، أو تقرأ في السرير، متكاسلة عن تنظيف الحفاضات.

حتى يأتي ياني مساءً، وينظفها. وهذا جعل ماري بيك تغضب. حتى قالت مرة لكنتها في المطبخ:

– يا بني. من لديها طفل صغير، لا تسمح لنفسها بالنوم حتى العاشرة. ثم إن تنظيف الحفاضات ليست من أعمال الرجال بل النساء.

استيقظت بيروشكا في صباح اليوم التالي، جلت وتسوقت، وطبخت، لكنها تكاسلت عن الحفاضات حتى أتى ياني مساءً ووضع ماءً في وعاء الغسيل.

– أنا أغسل كل ما يتعلق بابني، ليس فقط الحفاضات بل القمصان، والثياب الداخلية، بيروشكا واهنة وأنا أقوى، لا أتخلى عنها.

Telegram: somrlibrary

نظرت ماريا بيك إلى كنتها.

– يا ابنتي. لا بد انك صليت كثيراً حتى ترزقي بزوج مجنون كهذا.

ولعل ماريا بيك أحبت أكثر من أحفادها هذا الولد النحيل الشاحب. هدهدته في حضنها، لعبت معه، وأركبته على ظهرها وغنت له:

من بابا إلى فراشة

ومن هناك إلى «كونا روم».

لكنه سرعان ما يخدر، فتضعه في السرير، وتتابع غناءها المهدهد. لم تعد تشتهي النبيذ. زارتها بناتها كل يوم حاملات لها البرتقال والأزهار، ولأبيهن النابولي والشوكولا لأنه أحبها «بجنون شديد». كان يُقبل بناته بعينين دامعتين، ويلومهن بنبرة مؤثرة على كثرة ما ينفقن من نقود، وماريا بيك تحملق فيه حانقة وهو يغمغم بفمه الأدرد.

– الإنسان يخرف عندما يهرم – قالت مطلقة ضحكتها الهازئة.

كان العجوز زنتاي يلتقي أستر كل سبت في مقهى «فيدام» (الضاحك). كان له رخصتان صناعيتان لتجهيز مصاريع النوافذ ويعمل لديه عاملان، ويقتصر هو على السفر في البلاد لتجميع الطلبات. كان دخله كبيراً. ويدفع أجراً مرتفعاً للعاملين لديه. اشترى لحفيدته دراجة، ولعبة قطار وحاجيات كثيرة. وأعطى أستر مائة فورنت في كل لقاء لهما. ولامها على نحافتها وتوترها. وحفزها على ألا تأسف من أجل زوجها السكير، لأنه لا يستحقها، وأجهرت هانيلكا أنها غير آسفة عليه وأنها تمقته، وتعتبره نافلاً في حياتها، وأنها لا تراه إلا مرة شهرياً حين يدفع الفورنتات الثلاثمائة نفقة ابنه...

Telegram: somrlibrary

صار العجوز زنتاي متعباً. تثاقلت حركته، واشتدت التجاعيد في وجهه، لكن عينيه البنيتين ازدادتا ألقاً. و لم يطرأ أي تبدل على شعره، فلم يعثر فيه على شعرة بيضاء واحدة. وكان يسرحه إلى الوراء بعناية فائقة. لم يثرثر عن النساء. والمغامرات، والمكاسب المرتقبة. شرب بضع زجاجات من البيرة، وقص لأستر عن الأيام العصيبة والمخيفة. وتحدث عن عمله بسعادة ونبرة متواضعة. لم يؤمن بالله ويكره الأديان، والآخرة، ورجال الدين والقساوسة، لأنهم عالة على الآخرين، ويعيشون، هكذا، بأفضل حال.

– إذا مت، بعد خمسين عاماً – قال لأستر. – لا تدعي قساً يقترب مني. وإلا سأدب من نعشي وأطرده.

رفع سبابته محذراً...

في بداية تشرين الثاني «نوفمبر» ارتفعت حرارة ابن ياني. فصار قلقاً يبكي من الوهن. تناولته ماريا بيك إلى حضنها، وفتحت فمه. ثم قالت: لا شيء يدعو للخوف. أسنانه تطلع. وأشارت بإصبعها على مكان السن الطالع.

بغتة في التاسعة ليلاً ساءت حالة الطفل وتقيأ. ثم بدأ جسده يرتعش: تصلب وشخصت عيناه. فقد وعيه. زعقت ماريا بيك، ورمت نفسها على السجادة العتيقة وراحت تنتف شعرها.

يا إلهي، بلاء الأسنان. انتهى الولد. يا رب المسيح لماذا تأخذه؟

صرخ اني:

– اسمعي! يا الله، يا أمي! أرجوك أن تسكتي، طبيب، أسرعوا وأحضروا الطبيب.

Telegram: somrlibrary

– انتهى الأمر – صرخت المرأة العجوز – لا دواء ضد الموت. يا سيدي. يا ربي لم أنعم بحبك ابداً. لم هذه الزهرة الصغيرة؟ لم هذا البريء.

أسرع شرش شاندور إلى المناوبة الليلية. أحضر معه فتاة شابة نظرت مرتعدة إلى الطفل:

لست طبيبة أطفال – قالت مرتبكة.

– سأحمله إلى الطبيب المختص.

لفته بيروشكا جيداً. ونقلوه بالتاكسي إلى مشفى الصليب الأبيض. بينما ظل هابتلر يانوش منكباً فوق طاولة المطبخ يبكي. صباح الاثنين تحسن الولد. بعد الظهر جاءت البنات للاطمئنان عليه. طمأنتهن ماريا بيك أنه سيخرج من المشفى بعد عشرة ايام. أحضرت أستر لأمها سمكاً ولأبيها الشوكولا.

صباح الثلاثاء مرضت ماريا بيك.

– سأموت. استدعوا الطبيب! أعطاها طبيب الحي حقنة عضلية وذهب. ولكنه عاد مجدداً بعد نصف ساعة دون دعوة ثانية. كانت قد حضرت هانيلكا التي رمقت أمها بنظرة متوسلة بينما طلب الطبيب سيارة الإسعاف.

– قلب...

جلست ماريا بيك في السرير. ألبستها هانيلكا سروالاً دافئاً، وفستاناً ومعطفاً شتائياً أسود اللون. صححت شعرها، وعقدته بالمنديل الأسود القديم، ورتبت في كيس كأساً، وأدوات طعام، وصابوناً، ومنشفة.

Telegram: somrlibrary

وصل الإسعاف. طلبت هانيلكا من الطبيب أن يسمح لها برفقة أمها. جلست في العربة، حاضنة المرأة ذات الوجه الناحل، والجسد الذي فقد قواه فاستبد بهانيلكا هلع عظيم.

– سرعان ما نصل إلى هناك يا أمي.

أدخلت ماريا بيك مشفى أشتفان. وحصلت على سرير واطئ. أنهت هانيلكا كل ما يتعلق بأوراق دخولها أمها وبحثت عن طبيبة القسم في غرفتها وأعطتها ثلاثمائة فورنت. قالت المرأة:

– دقات القلب ضعيفة. ليس بوسعنا أن نفعل الكثير. سنسعى لإعطائها الأوكسجين فقد يفيد في شيء.

مضت نصف ساعة و لم يحضر الأكسجين. قالت الممرضة: الأجهزة معطلة، يصلحونها. أسرعت هانيلكا نصف مجنونة إلى الطبيبة. توسلت: قولي لهم أن يصلحوها، فغضبت الطبيبة ورفضت توسلاتها.

– رجاءً. لا يستطيعون أن يسرعوا في إحضار الأكسجين، لأنه ليس جاهزاً وعندما يجهز سوف يحضرونه بطبيعة الحال.

وبعد حين زودوا سرير ماريا بيك بجهاز الإنعاش.

حوالي الساعة الثانية عشر بدا شرش شاندور قادماً من جهة بيت الدرج. أحضر مرقة الديكة. وقف طويلاً إلى جانب هانيلكا في الممر دون أن يتفوه بكلمة، حتى رحل بعد أن ألقى تحية الوداع بخفوت.

بعد الظهر وصلت غيزيكا، وآغوثا، وأستر، وياني، وبيروشكا، وأرفين عازف السوكسوفون. دس ياني نقوداً في يد هانيلكا قائلاً:

– افعلي. تدبري، وزعي على الجميع.

Telegram: somrlibrary

وبجسده الكبير استند على الحائط وراح يبكي بكاءً مريراً. وبعدها دخل كل منهم إلى الغرفة ليشاهدوا أمهم المستلقية فاقدة الوعي.

في الساعة الخامسة ذهبت أستر إلى «بست الصغرى» لتأخذ ابنتها من الحضانة. وفي السادسة بان في الممر هابتلر يانوش العجوز بظهره المقوس.

لم يسمحوا له بالدخول إلى عند زوجته، أجلسوه على المقعد، تحت مصباح أزرق، وقالوا له إنها نائمة ولا يجوز إزعاجها. في الساعة السابعة غادر ياني وبيروشكا المشفى إلى البيت. وبقي في الممشى غيزيكا، وآغوثا، وهانيلكا، وأرفين. وعند الساعة العاشرة مساءً صرفتهم الممرضة المناوبة بلهجة ودودة وحازمة.

كانت غرفة الطبيبة قبالة بيت الدرج. دخل عازف السكسوفون إليها وطلب منها أن تبيت إحدى البنات قرب أمها. هزت الطبيبة رأسها رافضة.

– لا أستثني أحداً – قالت

– وهل تسمحين أن نتلفن إلى هنا؟

– إذا سمحت بهذا لن ينقطع الهاتف عن الرنين طوال الليل. لأن في القسم كثيراً من الحالات المرضية الخطيرة، التي تقلق ذويها.

– أي أمل لنا إذاً؟

– أقصى حد صباحاً سينشأ الاستسقاء الرئوي....

أطرق السكسوفوني برأسه...

وعند الصباح لم يجد الأخوة ماريا بيك في غرفتها. فارقت الحياة الساعة الرابعة فجراً.

Telegram: somrlibrary

تسلل هابتلر يانوش الأب إلى الحانة ليسمع خبر وفاتها على الهاتف. وعندما وصل الإخوة إلى البيت كان مستلقياً في منزل ناطر العمارة، في حالة يرثى لها. تسارعت أنفاسه عبر فمه الأدرد. شعره منكوش، بللت شاربيه الدموع التي هطلت من عينيه وكان يصرخ صراخاً مؤلماً.

– لم تسمحوا لي أن أراها. لم أكن بجانبها. لم أمسك يدها الغالية. يا ربي لم يسمحوا لي. لم يسمحوا لي. ماذا فعلت بي يا ربي؟

انفجر ياني بكاءً.

– لا تفعل هذا بنفسك. إنك تمزق قلبي. آن أن تفهم الأمر يا أبي.

جلس العجوز. هز رأسه:

– لقد قالت إنها ستتركني وترحل. قالت لي. سيرقد جسدها في الأرض. وتتركني إلى الأبد. سأرحل بعدها عاجلاً. خذيني معك يا أمي الغالية. سأنزل أنا أيضاً إلى أعماق قبرك.

أعطاه طبيب الحي حقنتين وخاطبه بحزم:

– تماسك أرجوك. لا يجوز أن تسلك مثل هذا السلوك. وحين رأى عيني ياني الصفراوين أغلق الطبيب حقيبته. وقال مرتبكاً:

– ستأتي أيام صعبة. سنحتاج إلى قوة.

أجلسوا ها بتلر العجوز على كرسي، ثم قادوه من إبطه، وصعدوا به الدرجات الموصلة إلى بيت الغرفة – المطبخ.

خرجت غيزيكا وأستر لتدبير الجثمان.

في الزاوية البعيدة من فناء المشفى يقوم بناء صغير قرميدي، وعلى

Telegram: somrlibrary

جانبيه صفصافتان هرمتان، ينفتح مدخله الأصفر على ممر منار بمصباح كهربائي، في نهايته باب زجاجي خط عليه «اقرع الجرس».

فتح الباب كهل قصير ذو شاربين، وثياب بيضاء، ومريول، يعتمر قبعة. قال:

- عليكما الانتظار قليلاً. يوجد الآن شحن. كانت في غرفة الانتظار طاولة وحيدة، بالية السطح، ومقعد أحمر من نوع المقاعد التي ترى في الساحات العامة. الأرضية بيتونية، الجدران الأربعة بيضاء. والنافذة ذات المصرعين تبث الضوء. كانت السماء قاتمة، والمطر يتساقط، والإضاءة خفيفة. بعد حين دخل الكهل، وخط المعلومات بقلم رصاص رفيع، على دفتر أزرق. أخرجت غيزيكا من كيس النايلون الثوب المخملي الأسود، والثوب التحتاني الأسود والجوارب السوداء، والحذاء العالي الأسود.

قال الكهل القصير:

اعتدنا أن نستخدم بابوج أسود، بدل الجزمة لأن الساق قاسية. لكن إذا شئت أن نقص الحذاء الجلدي.... لكن هذا ليس لزاماً علينا....

ناولته هانيلكا عشرين فورنتاً، فتناول الكهل القصير الأغراض ووضعه في منديل كبير.

أين السروال الداخلي.

لا يوجد، أجابت غيزيكا مرتبكة: نسيناه.

أي تسريحة ترغبان.

أنصتتا لحظة ثم قالت غيزيكا: التسريحة القوسية إذا أمكن.

Telegram: somrlibrary

ثم انصرفتا.

وعند موقف الترام ودعت غيزيكا أختها الصغرى. وفي شارع «آلوي» دخلت إلى متجر أزياء، واشترت سروالاً داخلياً مخملياً أزرق.

– من فضلك أعطني إياه بغلاف جميل، لأنه للمرحومة أمي.

رتبت هانيلكا مسائل الدفن من الدرجة الأولى، آخذة بعين الاعتبار حالة أبيها السيئة، فدفعت ثمناً لقبرين متجاورين، ليرقد الأب والأم جنباً إلى جنب في سلام الأبدية.

بدت هذه الرغبة صعبة المنال، لأن كلفة قبرين، وجثمان منمق وعربة خيول زجاجية، تزيد على خمسة آلاف فورنت. فضلاً عن كلفة الأقواس وحاملي التابوت، والقس، وحفاري القبور، والمصور.

إن المساعدة الفورية من النقابة عنت الكثير إذ حصلت هانيلكا على ثلاثمائة فورنت، وأستر على أربعمائة فورنت، وياني على ستمائة، وبيروشكا على ثلاثمائة، وغيزيكا على ستمائة فورنت. إضافة إلى أن العمال زملاء غيزيكا قد جمعوا ألفاً وخمسمائة فورنت من الورشة. ودفع صندوق التقاعد للأرمل هابتلر يانوش أربعمائة فورنت. وأكمل ما لزم من نقود عازف السكسوفون أرفين.

أوصت هانيلكا على بطاقات النعي المؤطرة. وعلقت واحدة على المدخل. وأرسلت البقية معنونة إلى أصحابها. واشترت بيروشكا مناديل مزخرفة ووزعتها على أفراد العائلة.

احتاروا فيما هم فاعلون بأبيهم. بح صوته. واستلقى على الصوفة، منقطع الأنفاس. وقد شعت عيناه ألماً حارقاً، انهمر على شكل دموع لا تنقطع. ظل ياني إلى جانبه:

Telegram: somrlibrary

– استرح يا أبي. أرجوك أن تستريح.

لم يجب العجوز. كان وجعه الداخلي الصامت أصعب من أن يلفت اهتمامه إلى جانب أنينه المسموع، عارض عازف السكسوفون فكرة خروجه إلى المقبرة مقترحاً:

– أعطوه منوماً قوياً. قد يوبخكم فيما بعد، حين ترجعون من الدفن. لكن التوبيخ أرحم من نوبة قلبية تقضي عليه.

ولولت بنات هابتلر حائرات، ولكنهن أجهرن أخيراً بأن ليس من حق الجميع أن يمنعوا والدهم من الوداع الأخير. قالت غيزيكا:

– أمي أيضاً في انتظاره. كانت العائلة ملتمة الشمل دائماً..... والأجدى أن نفطن إلى ذلك.

أما طبيب الحي فقد وافق عازف السكسوفون، واعتبر من الخطورة تفتيق الجروح مجدداً عند الدفن. لكن بان على وجه غيزيكا الجافل أنها وافقت. فقالت:

– إذا شئتم. أعطيه قبل الانطلاق حقنة مورفين، ويبقى إلى جانبه من يعتني به.

ثم ناقشوا إمكانية نقله بالتاكسي برفقة القسيس، لعل هذا يمنحه قوة، ويخفف عنه أوجاعه عبر الطريق الطويل.

استعارت البنات معاطف ومناديل، وحقائب سوداء. بينما خاطت آغوثا شرائط الأذرعة. ووزعت منها لخالتها وعمتها فوضعا الجميع متفاخرين.

أما مسألة الأحذية فتدبرها ياني الذي لمع أحذية الجميع بالأسود.

Telegram: somrlibrary

تبدلت قدود فتيات هابتلر خلال هذه الأيام القليلة. فتقوست ظهورهن، وتباطأت حركاتهن، وصارت وجوههن وجوه عجائز، فشبهت ثلاثتهن، طبق الأصل، بأبيهن. ولم تجف الدمعة من عيونهن. وظلت هانيلكا تذرع البيت الجميل. بصمت وحركات حائرة. بينما كان عازف السكسوفون يتولى العناية بنظافة الطفل. مد له الفراش وأخلده للنوم.

– سألت هانيلكا: صرت بلا أم؟

جلس السكسوفوني على السجادة، أمسك يد المرأة الناحلة، وقبلها. صمتا قليلاً، حتى قال الرجل بخفوت:

– غداً حين تودعينها، سترين في جثمانها وجهاً غريباً.... عليّ أن أقول هذا.... رمقته هانيلكا، بنظرات شاحبة، وغضب شديد. سحبت يدها ببطء. وأطبقت شفتيها باندفاعة وحزم. لكن لم تجرؤ أن تتفوه بكلمة.

قبل أن تدق العاشرة عبروا مدخل المقبرة. كان في الداخل على الناصية، أمام المنصة كل من غيزيكا وأستر، وآغوثا وبيروشكا. التفتت هانيلكا إلى أختها الكبرى:

– هل كنت في الداخل؟

هزت رأسها أستر بإيجاب. عندئذ دخلت لرؤية أمها. ولكنها سرعان ما عادت. هزت رأسها. ووقفت إلى جانب عازف السكسوفون.

– ليست هي – باكية – ليست هي.

هطل مطر تشرين الثاني «نوفمبر» وجاءت الوفود متتالية من

Telegram: somrlibrary

الأقارب، والأصحاب، والعمال والمعارف. تحمل الزهور وأقواس الغار.

وجاء سكان البناية في شارع فوفاروش ضمن مجموعة واحدة. شابات بيلا وشرش شاندور حملا قوس الأزهار الصفراء الحية يتقدمها أولاد البناية. بقوس ابيض ومن شدة بلل وجوههم وشعورهم بالماء ارتبكوا فأطبقوا عيونهم وتقدموا مبتسمين.

أحضر العجوز زنتاي وابنه قوساً من الورد وزهر البخور. (سيكلامن). فاكتظ المكان بها حتى صار من العسير وضعها بين الشمعدانات المشتعلة فتكدست فوق بعضها. قبلوا بنات هابتلر، وأخذ زنتي أستر من ذراعها. وتقدم المصور بمعطفه المطري الرمادي وسألهم إذا ما كانوا يرغبون في شراء الصور التذكارية التي التقطت في حفل التأبين. أجابه السكسوفوني بهدوء، بأن يذهب إلى الجحيم. لكن غيزيكا لم تدعه ينصرف.

- سيبتهج أبي بالصور - قالت برقة - وقد يرسل بعضها إلى بروغتش. عرض المصور صوره: مجموعة الهارمونيا بسبع لقطات: الجثمان، إنزال التابوت، رفعه إلى العربة، التابوت قرب الحفرة، إنزال التابوت، القبر والشاهدة، القبر وحوله العائلة المنكوبة.

أوصى السكسوفوني على عشر نسخ لكل منها وناوله ثلاثمائة فورنت على الحساب.

لم يبق إلا دقائق قليلة حتى العاشرة. ملأ زائرو الجثمان المكان، فاصطفوا كي يلقوا على الميتة، نظرة الوداع الأخيرة، حتى عربة الخيول الرباعية كانت تتهادى بطيئة قرب المدخل، لكن ياني وهابتلر والقسيس لم يصلوا بعد. بكت الفتيات حائرات، لعل حدثاً ما قد وقع، وتساءلت

Telegram: somrlibrary

ماذا بوسعهن أن تفعلنه. فحفل التأبين يجب أن يبدأ بدقة وأن تسير أحداثه حسب خطة مقررة. ولا يجوز تأخيره، أو إعاقته.

أرادت غيزيكا أن تشاهد أمها ثانية. طلب السكسوفوني مكاناً إلى جانب التابوت. لم تبد رأس ماريا بيك أكبر من قبضة رجل صغيرة. أطبقت عيناها وقرئ على وجهها أشد الغرابة، وصلت إلى التاكسي في اللحظة الأخيرة. سار هابتلر يانوش العجوز، منحنياً، بخطاه الوئيدة، خلف القس حتى باب الملبس (غرفة اللباس) وكان يحمل صندوقه الخشبي الذي يحوي على الرداء الأسود والقبعة، وكتاب المزامير، والإنجيل، والمنشفة، وقطعة صابون.

اصطف أفراد عائلة هابتلر إلى جهة من الجثمان يبكون منتظرين قدوم القس. كان القس رجلاً هرماً، تلامع شعره الأبيض تحت القبعة السوداء الصلبة. توقف عند مقدمة الجثمان، وفي يده الكتاب وانتظر انقطاع الهمسات المتناثرة، هنا وهناك. عندئذ رفع رأسه، وبصوت نقي، شديد البأس قال الكلمة التالية:

أيها المعزون! نقف هنا عند جثمان أختنا ماريا بيك. لا أحد يبكي. محبة الله لا نهاية لها... مؤلم أنها من الآن لن تكون بينكم. لكن عليكم أن تحسوا وتدركوا تمام الإدراك أنها صارت قريبة من ربها. دعاها إلى جانبه، لكي يخلصها من معاناتها.

وهي الآن تخدم، في صفوف الملائكة، رب السموات، وعيد ميلاد المسيح يقترب على الأبواب. المسيح الذي يبدل روحنا، والذي عبر موته مصلوباً تبلغ رحاب السماوات العلى. لا تخافوا! إن روح أختنا الراقدة هنا كذلك، تأخذ نصيبها في هذا التبدل... يا عيسى المسيح.... تقف هنا عائلة الفقيدة: زوجها الذي عاش برفقتها، أولادها الأربعة

Telegram: somrlibrary

الذين أنشأتهم بشرف. شيعوها... زوجها، أولادها، أصهارها، كنتها، أحفادها، أقرباؤها، ومعارفها. وكل الذين جئتم لتودعوها اندبوها.... وليبق في قلوبكم محل لمحبتها التي من عند الله دائماً وأبداً.

راكعاً، دس هابتلر يانوش العجوز وجهه في منديل الجنّاز المغسول بالدمع، وأجهش بالبكاء.

حاول ياني إسناده خوفاً عليه من السقوط على الحجارة.

– يا رب. تركتني ورحلت يا ربي. تركتني ورحلت.

– أرجوك يا أبي. أرجوك.

وانفجرت البنات هن الأخريات ببكاء فجائعي، موجع، حتى شملت نوبة البكاء الأقرباء والمعارف.

عدل القس الشال حول عنقه متقياً الرياح التي هبت صقيعية واخزة بين الحين والحين. رفع ذراعه فلمعت يده بارقة بين الألوان السوداء. وقال:

– لنرتل يا إخوتي، المزمور الستين. رتلوا بخشوع وسيمنحكم الله الخالد من لدنه الرحمة.

وبدأ الغناء، وغنى معه الكثيرون. حين انتهت مراسم الترتيل رفع حاملو التابوت أقواس الزهور ودبت الحركة في الجمع الغفير من الحاضرين. وأمسك ياني بأبيه الواهن، لكن القس أوقف الجميع بصوته الحاد:

– لنردد معاً قانون الإيمان المسيحي.

– اجتماع.

Telegram: somrlibrary

خرس الجميع وتوجهت عيونهم على القس العجوز صاحب الرداء الأسود وبيده الكتاب المقدس وشيئاً فشيئاً تكاثر وراءه المرددون بصوت واحد:

– أؤمن بالله الواحد الأحد، خالق كل شيء، عالم الغيب حاكم الأحياء والأموات آمين.

أمين. قالها الجميع. صارت البنات عند الجثمان الخالي. وتشالا يولى قرب هيرش أشتفان في الجهة المقابلة وتحت الستارة المخملية الموشاة بالفضة، وقفت آنا كوفتش مطرقة. فلاش كاميرا التصوير يبرق في مختلف الجهات. حين أخرجت ماريا بيك إلى عربة الخيول الزجاجية، طلب زنتاي العجوز من القس أن يختصر كلمته فوق القبر. ألا يطيل الدعاء لأن العجوز هابتلر في حال يرثى لها. ومما قاله له:

– للأسف، سنستثني آيات الكتاب الرائعة. وهذا يجنب مقامكم عبارات التأنيب خاصة وأنكم تفضلتم بمباركة نفوسنا، بكل ما أوتيتم من حماس رفعه القسيس دون أن ينبس بكلمة.

العجوز زنتاي قاد هابتلر العجوز وسار به خلف العربة ومشى كالأعمى لا تقوى على حمله قدمان اللتان ما تنفكان تغوران بالوحل، فتلوث سرواله بالطين واغتسل شعره بالمطر الذي تابع مسيله، بخيوط رصاصية من رأسه.

حين لمح زنتاي العجوز حفاري القبر يقتعدون الصفائح الحجرية، وكومة التراب المحيطة بالحفرة، توقف فجأة، خرج من بين الصفوف وانطلق بخطوات سريعة عائداً باتجاه مخرج المقبرة.

أنهى القس مهمته بسرعة. ووريت ماريا بيك الثرى. ولم تمضِ دقائق

Telegram: somrlibrary

قليلة حتى تحلقت العائلة حول القبر بالزهور. وبرق ضوء الكاميرا للمرة الأخيرة. قام السكسوفوني بإعطاء الحفارين النقود. وأرسل فتى صغيراً من أجل تاكسي. وزعت آنا كوفتش قبلاتها لكل من بنات هابتلر. وعلى مبعدة من القبر، عند بركة بيتونية لخزن الماء صيفاً وقفت نساء شارع «ناج فوفا روش» يكلن الشتائم على تشالا يولى ويلعنها، ووصفنها بالعاهرة قليلة الحياء، لأنها جاءت تقلق راحة الميت.

دفعها شابات بيلا من ظهرها بقوة قائلاً:

– انقلعي من هنا. دعي هذه العائلة في الحداد وشأنها، فتلت رأسها تشالا يولى مذعورة وراحت تبحث عن هيرش اشتفان. لكنه كان بعيداً فتعذر عليها أن تراه. كان يدخن مع زنتي جورج، ويتحدثان تحت شجرة. فما كان إلا أن ألقت نظرة جافلة على الوجوه الغاضبة، وبدأت بكاءها المرير. اقترب منها ياني بعينيه الصفراوين على جمع الحاضرين وخاطبهم بهدوء:

لا يحاول إيذاءها أحد. لقد أحبت أمي كثيراً. وصلت إلى التاكسي، جلست هانيلكا قرب السائق، وجلس القس في الخلف، ووقف هابتلر يانوش الأب عند الباب يوزع بأصابعه الثلاث قبلاً نحو الحاضرين، حتى ردعه ياني. عندئذ سعل، واعتمر قبعة وجلس إلى جانب القس. في طريقه إلى بيت هانيلكا. لكنه في المساء كان مشوّقاً إلى بيته في «ناج فورفاروش».

المصيبة تلو المصيبة، من شيم المصائب أن تجر وراءها المصائب. ومن شيم الأحزان أن تتلوها أحزان وحداد. تكاثرت البلوى وبدأ الخوف يتضخم.

و لم تنفع منهم حيلة. منذ اليوم التالي للدفن صارت غيزيكا تخرج

Telegram: somrlibrary

لزيارة قبر أمها في «راكوش تور» حاملة باقات الزهور عصر كل يوم بعد نهاية دوامها. وكانت تدعو اباها لهذه الزيارات لكن الإخوة لم يسمحوا بخروجه. اهتزت صحة العجوز، صار نحيلاً، وأهمل نفسه، وترك لحيته تطول. توعك قلبه مجدداً وعادت يده إلى اعتصار صدره. وضاقت أنفاسه بين الحين والحين. أعطاه طبيب الحي حقنة. ووصف له النيتروميين. لكنه فقد رغبته وإرادته في تحمل الآلام. فكان طيلة النهار ساهماً في صورة ماريا بيك الفوتوغرافية، مستذكراً محاولة الانتحار. وترك العنان لنفسه ومشاعره وآهاته الموجعة للقلب، ينغّص بها حياة الأسرة.

– أسمعها تشكو – قال دافناً وجهه في المنديل المخطط – وتقول:

الرياح جليدية، وأنا بردانة، لأنكم جئتم بي من سرير الدافئ إلى هنا – إلى المقبرة الباردة.

سأغطيك وأستلقي إلى جانبك وأضمك إلى الأبد يا أمي الغالية الحلوة.

في موقف كهذا كانت البنات تبكي، وكانت عينا ياني تطفح بالدمعات، وهو يضغط على أسنانه.

– أرجوك يا أبي لا تفعل، بحق الله لا تفعل هذا بنفسك!

لم يتركوا العجوز وحيداً لحظة واحدة، تناوبوا على البقاء إلى جانبه ليل نهار.

كان يخاف من عازف السكسوفون، ومن ابتسامته الودود الغريبة. إذا طلب إليه أن يأكل أكل بشهية. وإذا كانا معاً، وحيدين في البيت، لم يبكِ بل يضج قائلاً: إنهم يوماً أكلوا إليه تحفاً في متحف الآثار إلا أنه

Telegram: somrlibrary

تعفف عن مغريات العالم. وبقي شريفاً لم يشأ أن تطول يده، ليحظى بأية غنيمة، لا يستحقها.

وهذا ليس من باب المفاخرة بالنفس. وأنه لم ينطق يوماً بكلمة كاذبة وأنه كان يسلم زوجته كل مدخوله، ويشرب النبيذ في الأعياد الكبيرة فقط وحسب الأصول. سكر مرتين - حسب ما يذكر - في حياته كلها. مرة في حفل عماد ياني. ومرة ثانية بسبب خلاف مع زوجته عندها خرج من البيت وظل يشرب حتى الثمالة.

واستأنف الحديث قائلاً:

- ياني، وعيزيكا، والبنات كلهم يظنون أن بيني وبين آنا كوفتش علاقة ما. لأن أمكم اعتقدت ذلك، وكان من العسير إخراجه من رأسها.

هز السكسوفوني رأسه:

- لا أظن أنهم يولون ذلك اهتماماً.

- أكذب إذا ما قلت إننا لم نمارس القبل.... لأن آنا كانت فتاة مريمية، متدينة تؤمن بجهنم، لا ترضى بأكثر من هذا، أما عند وجود امرأة أخرى في حياتي. فأنا لا أقول إنها لم تكن. بل كانت. لكني لم أنفق على إحداهن أكثر من كأس أو كأسين من البيرة. وليس على حساب أسرتي.

جاداً، طمأن السكسوفوني العجوز، قائلاً له بأنه رجل مبارك «قديسياً». وما تبقى من أمور ليس له أي تأثير، فلا داعي لذكره أبداً.

أمضوا حفلة عيد الميلاد في بيت هانيلكا. عصراً وكان المطر

Telegram: somrlibrary

يهطل، خرجت الأسرة بكاملها إلى المقبرة سواهما: العجوز وعازف السكسوفون، الذين مكثا في البيت لتزيين شجرة الميلاد الصنوبرية.

أمضت غيزيكا، وأستر، وبيروشكا وقتاً طويلاً في المطبخ يساعدون هانيلكا. ولاعبت آغوثا الأولاد. وكان العجوز جالساً على كرسي يتباكى، حين وصل زنتاي جورج ثملاً، حاملاً لعبة لابنته. ساعده عازف السكسوفون في خلع معطف الجلد الصناعي الأخضر. أخذ قبعته، ثم طلب من ياني أن يعتني بصهره، لأنه أصبح فاقداً مزاجه وصبره من الإنسان المعقد، ورائحة نبيذه الكريهة.

كان زنتاي بثياب صيفية رثة، وصار يتضاحك ويضج، ويتألق بقميصه الأبيض الناصع. ومن جملة ما قاله: إن له غرفة جميلة، وإنه يدرس كثيراً. وإن امتحانات الثانوية ممتازة. والآن جاء دور المهمة الكبرى الجامعة، التي لا يثنيه عن دخولها أي أمر، ولا يقف في طريق الدبلوم أي عائق مهما يكبر أو يصغر، وإنه مستعد للتضحية بأغلى ما عنده من أجل الحصول على الشهادة حتى لو اضطر للمقاتلة حتى الموت.

ابتسم ياني وسأله:

– وستتخلى عن الحانة كذلك؟

– لا علاقة لك بهذا – أجاب زنتاي وبعد انتظار قال:

– تظن أنني أخافك وأنك ترعبني.... لكن الأمر غير ذلك.... لو رحت الآن تصرخ بأعلى صوتك، وترفع قبضتك نحوي، لا يهمني. وسيكون ردي ضحكة عالية. أرجو أن تأخذ هذا مستقبلاً بعين الاعتبار.

Telegram: somrlibrary

– أنت مجنون – قال. رفع عن الرف تمثالاً صغيراً لبوذا:

– لو رفعت قبضتي نحوك.... لكن أنت لا يجوز ضربك لأنك قضيت على نفسك بنفسك.

رن عازف السكسوفون الجرس في الغرفة المجاورة فدخل الجميع. وعندما أطلقت آخر شرارة ضوئية قبل الجميع هابتلر العجوز. ووزعوا هداياهم على بعضهم بعضاً وتحلقوا حول المائدة للعشاء.

حمل زنتاي ابنته الصغيرة وودعهم مسرعاً. في اليوم التالي سطعت الشمس. وكانت السماء زرقاء صافية. أخذت أم ميلكوت سوها الولد إلى «راكوش فالغا». وخرجت عائلة هابتلر للشكر. كانت خطبة القس العجوز جميلة. استذكر فيها ماريا بيك وصلى لروحها. تناولوا الغداء في شارع «ناج فورفاروش». وعكفت الفتيات، بعدئذ، يحسبن كلفة الدفن والجنازة. وكم نصيب كل واحد و لم تكن العملية سهلة، إذ من الصعب تذكر كل التفاصيل والمصروفات الصغيرة. وقد تولت هانيلكا كتابة القائمة الطويلة، حتى أصابها الإعياء، فألقت بقلم الرصاص أمام أستر. وقالت مرهقة:

– دوخي أنت!

لكن أستر لم تسرها الفروقات الحسابية التي بلغت مئات الفورنتات. فكان ذلك مثار جدل وصراخ بين أفراد الأسرة. مما جعل هابتلر العجوز يغلق باب المطبخ تجنباً للفضيحة أمام الجيران. يأني رأى الأمر بسيطاً و لم يعنه بشيء وظل يلاعب ولده الصغير فوق الصوفة. حل المساء حين نادته بيروشكا لأنه معني بالأمر أيضاً. أجاب بأنه سيدفع كل ما يترتب عليه من نقود.

Telegram: somrlibrary

– رفعت بيروشكا كتفيها.

– إنهن يحسبن منذ الظهيرة. دون نتيجة. أمسكت أستر رأسها وقالت بفجاجة:

لا تخافي. لن نتجنى على أحد. ليس من عاداتنا.

– ولا من عاداتنا – أجابت بيروشكا وخرجت إلى المطبخ.

رنا ياني إلى أخته الصغرى، و لم يتفوه بكلمة، كان العجوز هابتلر خلف المدفأة الأسطوانية، جالساً على صندوقه العسكري القديم البالي قطب جبينه، وراح يتمتم متأوهاً أنه لم يتسنّ له أن يلقي على زوجته النظرة الأخيرة وأنه غاضب غضباً شديداً على ميلكوت سوها ويشكو لعازف السكسوفون بصوت متألم:

– في رأيي. إن سلوكه هذا سلوك بشع. فأثناء وفاة والده حضر دفنه كل أفراد عائلتي، حاملين الزهور إلى قبره.

هدّأه عازف السكسوفون، الآن من غير المجدي التركيز على مثل هذه المسائل، الكثيرون قد ألقوا عليها نظرتهم الأخيرة وكان من العسير عد الأقواس والأزهار على قبرها. ضم العجوز عينيه قائلاً:

المسألة ليست كذلك. إذا التقيت ميكوت سوها سأقول بأني أعتبره شخصاً تافهاً. وإذا وجدت أن رده عليّ كان جارحاً فلن أرد عليه أيضاً حرصاً على سلوكي اللاحق لأنني يا بني، أستطيع أن أكون أيضاً، طيباً ورديناً، يا ويل من يزعجني لأنني، عندئذ، لا أرى أحداً في العالم. كان وجهه رصيناً، عابقاً بالتهديد وهو ينظر من يديه المتشابكتين. أنهت البنات الحسابات، وبقي على ياني اثنا عشر فورنتاً يدفعها لهانيلكا. وعلى استر ثمانون فورنتاً تدفعها لياني. وعلى غيزيكا مائة وأربعون

Telegram: somrlibrary

دفعتها حالاً، وخطر لغيزيكا أن يدفعوا لهانيلكا كلفة عشاء عيد الميلاد لأنها لم تعد بالفيللرات القليلة.

لكن السكسوفوني رفض الفكرة معتبراً إياها فكرة بشعة ثم شلح على زوجته المعطف الرملي اللون، وقال منزعجاً – لنذهب. لدي حفلة ليلة الغد. آن لي أخيراً أن أنام. لكنه لم ينم تلك الليلة.

كانت السماء مربدة، واعدة بالثلج. أسرعا خطاهما في شارع «بيركوتشيش»، حتى وجدا «تاكسي» عند زاوية شارع يوجف الدائري.

في المنزل أعدت هانيلكا الحمام الساخن وبعد الاستحمام جلسا، بالبيجامات، للعشاء. تحدث عن مشاريعه، وأنه بحث عن برنامج جديد عصري جذّاب يتيح له المشاركة في مهرجانات خارجية، خطر لهانيلكا شعر بابتس وكانوا قد قاموا بأدائه في المعهد. دندنته.

– جميل الوقع. احتفالي. لكن المرافقة الهرمونية، والأرغون وربما بيانو مع غيتار.

في هذه الأثناء رن جرس البيت، قام عازف السكسوفون لفتح الباب. في الممر البارد وقف زنتاي جورج بمعطفه الأخضر، وقبعته الرمادية. اعتذر بلطف وأرفق اعتذاره بابتسامة وقال:

– مات أبي. تسكعت طويلاً في المدينة. فكرت في أن أتدفأ هنا قليلاً. دمعت عينا هانيلكا:

– يا إلهي! صعقتنا بهذا النبأ.

واندست في ردائها المخملي الأزرق الغامق، الموشى بالبرتقالي،

Telegram: somrlibrary

والذي بلغ حد ركبتيها، وخلعت بابوجها وتكومت في الكرسي. كانت ترتعش من البرد. أخرج السكسوفوني زجاجة الكونياك لكن لم يتمكن من فتحها ففتحها زنتاي. وسكب بالأقداح الثلاث. أشعل سيجارة. وبعد صمت قصير قال:

قسماً بالله كنت أعرف منذ الظهيرة أن شيئاً ما سوف يحدث. تلفنت له مرتين. مرة في التاسعة ومرة في الحادية عشرة. لكن لم يرفع السماعة. ذهبت إليه في الثانية عشرة. رننت الجرس فلم يفتح الباب. شعرت برائحة الغاز، فأيقنت أنه ليس على قيد الحياة. لم أجرؤ على الدخول وحدي. ناديت ناطر العمارة بأن يأتي إلى الطابق الثالث. جاء برفقة الشرطي واقتحما الباب. كان العجوز جالساً فوق جلاس المرحاض، مستنداً برأسه على الجدار، هكذا كانت ميتته. فتحنا النوافذ من شدة رائحة الغاز.

– هل انتحر؟ سأل السكسوفوني.

– كلا – أجاب بحزم.

– احتمال الانتحار ملغي تماماً. للأسف كان ثملاً. وضع اللحم في الفرن. فتح صنبور الغاز ونسي أن يشعله. هذا رأي الشرطة أيضاً.

ساد صمت.

أخرج زنتاي مرآة جيب صغيرة. عدّل ربطة العنق. ثم لف شاله الصوفي الرمادي حول عنقه. قال:

– سأستقل الترام بعد ساعة. إلى الجحيم. سأمشي في المطر، والوحل.

Telegram: somrlibrary

– نم عندنا – قال السكسوفوني.

لم يشأ أن يبيت هناك. قال إن آلة التصوير في «بست لورنس» سيأخذها صباحاً إلى متجر الأدوات المستعملة الهندسية، وقد يحصل على ثمنها ثلاثة آلاف فورنت، من اجل الدفن. خطت هانيلكا إلى النافذة. سحبت الستارةالقماشية الصفراء. كان الثلج يندف، ويغطي الأرصفة.

– لا تذهب. يسقط الثلج جنونياً ويغطي الشوارع. لا تذهب. ستتزحلق قدماك. أضع لك مرقة اللحم، ومرقة الديكة الساخن. على طريقة أمي، والملفوف المحشي.... وتأكل الفطير مع الشاي بالروم.

– سأذهب إلى البيت. وسأكون حذراً في الشارع، وفي البيت لن يهددني أحد. لا اقوى حتى على الشرب، في جيبي خمس فورنتات، وإذا أرقت، و لم أستطع النوم، ستسليني صورة ابنتي المعلقة على الحائط قرب السرير.

قبّل هانيلكا وصافح عازف السكسوفون ورحل. و لم تمض عشر دقائق حتى عاد.

– أخاف.

ضحك. كانت قهقهة عالية منه، أجفلته، فسكت. ثم جفف وجهه المبلل بمنديل في جيبه.

– اهزآ مني. قسماً بالله أنني مدعاة للضحك. لكن هذا ما جرى.

قدمت له هانيلكا مرق اللحم، وملفوفاً محشياً. اكل بصمت. استماحهما العذر للحالة العصبية المخبولة التي تنتابه. وبهدوء تمنى

Telegram: somrlibrary

لهما ليلة سعيدة ودخل إلى الغرفة الأخرى لكنه لم يخلد إلى النوم، بل ظل يقوم، ويقعد.

أنصتا له طويلاً، حتى جلست هانيلكا في سريرها غاضبة. وأشعلت مصباح الكلوب.

– سيبقى ساهراً حتى الصباح. قدم له الكونياك. يخدر وينام.

لم تعجب الفكرة عازف السكسوفون. تقديم الشراب لزنتاي مسئولية كبيرة. لأنه إذا ثمل عنيف، كثير التعليق. إما أن يبكي وإما أن يتعارك، فلا يمكن كبحه. لكنه في النهاية ناداه. شرب بوقع هادئ نصف لتر الكونياك، و لم يد على عينيه أو صوته أثر لذلك. و لم يزعجه أن السكسوفوني لم يسكب ويشاركه الشرب، بل أجهر أن لا داعي لذلك لأنه سيحتسي الزجاجة بأكملها. جلس بقميصه الأبيض حول الطاولة، ومجّ السجائر واحدة بعد الأخرى حتى أعقابها وبين الحين والحين كانت تعتذر هانيلكا بابتسامة رصينة وحزينة. على هذه الليلة المجنونة. استلقت هانيلكا في السرير وسيحبت الشرشف عليها حتى العنق. وأجابت مبدية أسنانها البيضاء – بأن لا يتغابى فلا داعي لاعتذاره. وتطرق أيضاً إلى ذكر فنان تشكيلي يدين له زنتاي بمائة وخمسين فورنتاً. ثم تطرق إلى نتائج مسابقات الطيران الفضائي المدوّخة.

– سأحلّق يوماً بين النجوم – قال بابتسامة ساخرة من نفسه – لأنه السفر إلى الأعلى لا يحتاج استمارة، أو جواز سفر. أدفع التكاليف وأحلق إلى كوكب بعيد. وتحدث عن كتاب مهني يطالعه كل مساء. يتعلم منه دروساً في الطبخ.

ملأ السكسوفوني الكأس متعاً وقال:

Telegram: somrlibrary

- اشرب يا فتى.

وفي الحال كان يتناول الكأس ويتضاحك خجولاً كأنما يقول: لا فائدة من إضاعة الوقت فلن يدوّخني الكحول. وبعد حين صار يتلعثم بالكلام، وينسى تتمات أفكار بدأ الحديث بها. عندئذ يقطب حاجبيه بشدة هازاً رأسه هزات ناعمة. شكا بمرارة من رئيس قسم الأحوال الشخصية لأنه لم يسمح له بالانتساب إلى الجامعة. ورأى في ذلك تقصيراً جائراً. فهو منذ اثني عشر عاماً في المؤسسة، وحاز فيها على كثير من الجوائز وأخيراً يتنطح له بالقول: كن سعيداً، يا زنتاي إذا لم تأخذ مكان غيرك من العمال والفلاحين الشرفاء. وهنا تألقت عيناه:

- ألا يعني هذا أنني من غير الشرفاء، أي من الفاسدين. حين سكب السكسوفوني القطرة الأخيرة من الزجاجة نظر إلى زوجته فرآها تكبو، ويتعذر عليها أن تفتح عينيها ونظر إلى زنتاي الذي بادره:

- رائحة غاز.

سدى حاولا إقناعه بأن لا وجود لرائحة الغاز هذه. بل فتل رأسه وخرج يتفحص ما إذا كان صنبور الغاز مغلقاً. رجع إلى الطاولة. وبعد حين أمسك الزجاجة الفارغة وأدارها أمام عينيه ثم ضغطك جبينه.

- لقد كان دائماً يعتني بتسريحة شعره مراقباً كثافة الشعر على رأسه. أقسم بالله اليوم رأيته.

دعت عينا هانيلكا. بينما أخرج السكسوفوني بيجاما نوم سوداء اللون وقدمها له غاضباً.

- وشعري أنا أيضاً بدأ يخف - التفت الآن إلى هانيلكا حزيناً - قلعت أختك الكبرى بملء يدها منه. أبي قال لي أن أذهب إليها أقبّل يدها

Telegram: somrlibrary

لأنني لا أرى أشرف منها امرأة. لكنني لن أعود. يكفيني ما حصل لي منها. أفضل أن أتعلم الطبخ، وأنظف الآنية، من أن أراها أمام وجهي.

– وأنت لا تهمها – قالت هانيلكا.

– والآن حان وقت النوم.

استعد زنتاي. قطب جبينه وضغط عليها بسبابته. تمتم شيئاً وأجهر أنه لا يريد التحدث عن زوجته. لا شك في انه لم يخنها، خاصة وأنه يخاف الله والعقاب على نحو خرافي، ويخيفه في ذلك أن يمرض، ويموت ابنه الثاني. طبعاً إنه ذو طبيعة حساسة، وإنه ابن أبيه. فإذا ما ضاجع امرأة، فسوف يضاجع كل محظيّة بعدها. على أية حال لا شأن لأحد في هذا لأنه قضيته الخاصة. ثم يطلب من السكسوفوني أن يوصله إلى المرحاض حيث، عند الباب، سقط جسداً لا تحمله ركبتاه المتراخيتان مما اضطر السكسوفوني أن يطلب عونه في قضاء حاجته هناك. خجل من هانيلكا واستماحها عذراً، وبدأ يبكي، وطلب منهما إشعال كافة مصابيح البيت أو يلقي بنفسه من النافذة. ركب هانيلكا الغيظ، فصاحت به أن يسلك سلوكاً مهذباً وأن يحترم وجوده في بيتهما ويذهب إلى الغرفة الأخرى ويخلد للنوم. رفع زنتاي قبضتيه وصاح:

– اسمعي! أرأيت في أي صندوق وضعوه. لا يشبه تابوتاً أبداً. وملوحاً بذراعيه المرفوعين نعت الشرطي بالحيوان لأنه دعاه إلى الهاتف حينما أحضروا العجوز مسجّى كالمسيح، وكان مرغماً على العبور فوقه.

ساد صمت. والآن صار وجهه مذعوراً، ينظر حوله بارتباك.

– لم ينتحر – اشتد صوته.

– قال لي سمنضي رأس السنة أيضاً، معاً. سيشتري الكونياك

Telegram: somrlibrary

ويحضر من الشارع الدائري فتاتين جميلتين و(نهيّص) معهما حتى الصباح. أجل ما إذا كنت عنده في الليلة المقدسة سأستشعر تسرب الغاز... كان ينتظرني... وكان يشوي اللحم لي بالذات.

رفع وجهه الدامع نحو السكسوفوني. كأنما أراد أيضاً أن يقول شيئاً. لكنه اكتفى بأن لوى قسمات وجهه. انتشل البيجاما عن السجادة ودخل إلى الغرفة الأخرى. تناهى إليهما أنه يشعل الأنوار، ويغمغم، ويتأوه يضرب الوسادة، ثم بدأ يصفّر... «هيه... أيها السمّاكون ماذا التقطت شباككن....؟».

عند مطلع الفجر دخلا إليه في الغرفة. استند بمرفقيه على النافذة المفتوحة، وكان يصفّر، ويغطي جسده العلوي ثلج فضي.

مضى الشتاء سريعاً. حتى في شباط «فبراير» قيست الحرارة بعشر درجات. وبعد ذلك اعتدل الجو مشيراً إلى قدوم الربيع. وفي مصانع الحديد بدءوا يشرعون النوافذ. تسلّم هابتلر يانوش الابن الآلة في السادسة صباحاً زيّتها وبدل سيورها. ثم أدار محركها. وبدأ بخراطة الألمنيوم.

في الساعة التاسعة جاء إليه غروف ذو الشعر الأحمر والعينين المخبولتين. فالتفت ياني ناحية الضوء مغمضاً رموش عينيه.

– هل تتعهد طلاء غرفة الصف – سأله.

– أجل – أجاب ياني.

– صباح الأحد أبدأ. وأنتهي منها عند الفجر. فكر ذو الشعر الأحمر.

– ليس مجدياً استلام عمل حكومي لأنهم يطلبون الفاتورة.

Telegram: somrlibrary

هزّ كتفيه. مجهراً أنه لا يخاف. لأنهم وعدوه بأن يدفعوا ستمائة فورنت من صندوقهم الخاص. لقاء ان يقدم لهم عملاً متقناً. ومن أجل هذا لا يشنقون أحداً ولا يسجنون.

– قد يسجنونه؟ حرك عينيه الصفراوين.

– يفعلون خيراً – قال ذو الشعر الأحمر – في أقصى الحالات يفرضون عقوبة بعض مئات من الفورنتات.

انحنى ياني إلى أمام الراداتور ينضّد الأعمال الجاهزة، وينظفها مزيلاً نثارها الرطب بالفرشاة، وخرج إلى الفناء، كانت الشمس تسطع. و«كلابين بيلا» يصرخ في باب المستودع، حاملاً بيده قصاصات الورق الزرقاء والحمراء، وقد لمعت سنّه الذهبية. يخاطب الجميع بضمير المخاطب (أنت) دون أن يغضب منه العمال لذلك، وهو السيد كلاين كما لُقّب، على سبيل النكتة، من قبلهم. سألوه كيف تسير تجارة التوابل. وكم سعر قمع السكر؟ بعشرين بنغو – أجاب وشتم طرّاد «أورو» لأنه لم يبدأ القصف في نيويورك. ضحك عمال المستودع عالياً. تبسم زنتاي جورج. كان يقف بينهم، مرتدياً بدلة الخاكي الزرقاء الجديدة، ومستنداً بظهره على جانب من الشاحنة.

كان وجهه قذراً، ويلمع من العرق، وشعره موشى بشعرات بيضاء. حين مدّ هابتلر يانوش يده إلى ذراعه، فوجئ. نظر في وجه صهره. كان صامتاً صمتاً عدائياً ثم صدرت منه ابتسامة الثمل التي أغاظت استر وأخرجتها عن طورها.

– تحية للبروليتاري – قال هازئاً وتبعها بانحناءة.

مقبرة الصدأ باحة مفصولة بجدار حجري، خلف المستودع.

Telegram: somrlibrary

تقسمها سكة الحديد إلى قسمين، تعمها الفوضى وتتراكم فيها الآلات البالية، والخوانات، والقطع المعدنية المتنوعة وتغرق عميقاً في الطين الأسود، مترعة أذرعة ثقيلة نحو السماء في انتظار الموت الجهنمي. في نهاية الباحة باب شبكي عال يسمح أن يصل سكة الحديد بالشارع الخارجي المرصوف بالحجارة.

جلس زنتاي جورج فوق حافة معترضة طويلة، واضعاً ساقاً فوق ساق. ومستنداً بظهره على الجدار الحجري. عرف أن ياني يمر في الحانة التي يفقد فيها عقله. فمن الذكاء أن يظل صامتاً ولا يتفوه بشيء. كي لا يخطئ طريقه إلى كل ما هو خطير. وإلا سيضرب كما ضرب من قبل رجال الأمن في حانة الشرب في ساحة كالفاريا. لا يجوز العبث مع ياني، الذي يتابعه بالنظرات ولا يبعد عينيه الصفراوين عن وجهه فتجاهله.

ارتجفت السيجارة بين أصابعه، رسم ابتسامة عريضة وأجهر بسخرية حادة، أنه سيجنب صهره ظنونه. إنه يعترف أنه في حالة انتشاء في هذا اليوم الربيعي الجميل. بين مجموعة الأقارب الجميلين، بعد اجتراعه ثلاث كؤوس من النبيذ وبسبب خوفه الوحيد أن يفقد ذاكرته الحالمة، ومزاجه الكئيب مما يتيح لأفكاره المخبولة أن تتلبسه، وحينها سيكون هو مضحكاً تماماً، ميالاً إلى العراك.

– في رأي الأطباء أن سكر الدم ينخفض بعد الشرب إلى أدنى قيمه – قال بصوت مربّ، رافعاً إصبعه عالياً.

– لذا يلجأون إلى شرب البيرة في صباح اليوم التالي. أنا لا يناسبني هذا، أنا اشرب بطريقة قديسية لكي أتجنب وسطي الاجتماعي وتعليقاته الجارحة.

Telegram: somrlibrary

– لست مريحاً حتى وأنت ثمل – قال ياني رافعاً سلسلة صدئة من تحت حذائه. ادارها على كفه. ثم رماها بين الحطام.

– أمضيت حياتك هكذا. تعاطيت الشراب والعاهرات، والمشاجرة. حتى إنك لم تستطع الاستمرار ضمن عائلتي.

– ألا تعرف أن تقول شيئاً آخر. وهذا عازف سكسوفون لم يشرب، ولم يتعاط النساء العاهرات، ومع ذلك فقد هجركم دون متاع سوى ما يرتدي من ثياب، وحذاء مثقوب. رمق صهره بنظرة متحدية. انتظر قليلاً، لكن الأخير بقي صامتاً كالأخرس، جالساً قبالته محني الظهر على صندوق مقلوب يحدق في نعل حذائه. عندئذ بادره بغتة، رمى سيجارته، وسحب أوراقاً من جيبه، وأشار بيده وصار يتحدث عن أمور أخرى. روى بصوت هادئ أنه فصل من عمله على آلة «مالوم» من قبل رئيس قسم الأحوال الشخصية في المؤسسة عملاً بالفقرة الثالثة. وهذا بالنظر إلى حالته غير قانوني.

ذهب إلى جسر الشعب «ينبسابدشاغ» وطلب مساعدتهم هناك، قائلاً إن حالته نوقشت بالمؤتمر الثاني والعشرين، على نحو ممتاز وبنتائج طيبة. لكن لم يرجع على العمل على آلته بناءً على نصيحة من صديقه الصحفي. كي لا يلووا عنقه ثانية. لكن هذه المرة بشكل أكثر دهاء. وبحث عن عمل في مكان آخر فوجده لدى مؤسسة ممتازة للصناعة الثقيلة. باعتبار أن اسمه متداول ومعروف بالنزاهة.

أشعل سيجارة، وقد ازدادت ثقته بنفسه. أوضح أنهم وعدوه بألف وثمانمائة فورنت دخلاً شهرياً له. ولقد وافق بعد دراسة متعمقة للموضوع على الشروط، والفقرات المنصوص عليها في قانون العمل لعام ١٩٦٢ وهي: مراقبة العمل، مراقبة وقت العمل، إعداد شروط

Telegram: somrlibrary

العمل النهاري، فحص واختبار صلاحية الآلات، تخفيض ساعات العمل، رفع ساعات الأجور حسب الاستطاعة، إعداد الشروط الناظمة الضرورية ومتابعتها.... الخ.

– كل شيء صار بين أصابعي. وكما تنص وثيقة عملي وملحقاتها الصادرة عن هذه الشركة الطيبة لن تستمر عبوديتي هنا أكثر من أيام. حيث ابدأ عملي لا مكان للأصول والشهرة. بل للكفاءة فقط. وحتى آب القادم أكون على استعداد للعمل الإضافي وعوائده البالغة أربعة آلاف فورنت.

أغمض هابتلر يانوش عينيه قائلاً: – آمين – ولكن كم ستطلب بطاقتك الشخصية وأنت ثمل في حانة من الحانات. وسيتبين أنك في حالة مرضية. وسيبلغون مؤسستك وعندها ستبدأ البحث عن خط جديد في جسر «سابد شاغ».

أزاح زنتاي وجهه عن العينين الصفراوين، عابثاً بأظافره القذرة. تبسم. ثم قال بصوت أجش. إنه في ليلة رأس السنة اشترى زجاجة شمبانيا، وأراد أن يصطحبها معه إلى المقبرة ولكن لم ينفعه وعده أن يعطي سائق التاكسي مائة فورنت لقاء التوصيلة لكن السائل رفض طلبه قائلاً:

– باب المقبرة مقفل. ولا داعي لإزعاج الأموات في ليلة كهذه. فاتجه إلى بوفيه آدم وطلب امرأة رخيصة لتشرب معه. وبعدها ألقى بالقدحين، والزجاجة أرضاً، فاستدعوا الشرطة.

كان مريضاً وعولج في قسم العصبية، ولكن ذراعه خدرة حتى الآن، ولا يستطيع النوم ليلاً، يتقلب ويفكر. ويستقبل الصباح كالمصعوق.

Telegram: somrlibrary

وقف ياني: نفض مؤخرته.

– لا تشرب! في جوفك الآن ستة ديسمترات من النبيذ. ووجهك مزرق كالليمون الفاسد.

تبسم زنتاي.

– لأنني أعيش على الخبز والدهن، يا ابن العم.

وبغتة تلبسه الغيظ. فشحب لونه، لف ساقيه ورفع عينيه مقهقهاً في الوجه الآخر. لم يستطع ولم يشأ أن يكبح جماح نفسه. ومثلما اختلطت الأفكار وتزاحمت في رأسه، أطلقها خارجاً. أشار بيديه وأخذ البكاء بين لحظة وأخرى، فاستبد به الإحساس بالسدى، واللا معنى. رفع قبضته إلى أمام فمه. وسعل سعالاً مراً. وأضفى الحقد قوة على عباراته المتطرفة. وسواء رفع صوته، أو أخفض من نبرته، فإنها برقت مثل عينيه. وفي النهاية أبى على نفسه أن يتقبل أي وجه من وجوه الاستعباد، واعترف أنه مخلوق تافه ساقط، لا يساوي حفنة يد صغيرة، ولكن دعوه وشأنه، لقد ودّع هو العائلة الكريمة ترك وراءه البيت. والأثاث والغسالة. وإذا كانت رغبتهم أن يسترجعوا الراديو فإنه يعيده لهم. وإنه على استعداد أن يظل بثوب وحيد، أو يمشي عارياً، مقابل أن يخلصوه من ثرثراتهم معه حول الاستقامة، وألا يرموه بحجر الحكمة، وألا يقولوا لابنته إن أباك شخص تافه ومستهتر.

وقال إنه يدفع شهرياً ثلاثمائة فورنت دون أن يخطر لواحد من العائلة الكريمة أن هذا العامل البسيط سيبقى دون طعام. لكن كل هذا لا يهم. البرنامج واحد. الرجال الثلاثة يدفعون. والنساء ضحايا بقين في بيوتهن الجميلة. ويرتدن أفخم محلات تصفيف الشعر، وفي النهاية يتشدقن بأنهن سيئات الحظ في هذه الحياة.

Telegram: somrlibrary

اسكت – قال ياني وثبت عينيه الصفراوين في الشخص الذي يومي بيديه، ومرة أخيرة. حذره بصوت هادئ:

– اسكت.

لكن زنتاي استأنف ضحكاته الساخرة. كان وجهه أبيض من الشحوب. وتلألأ العرق فوق جبينه. عيناه جافلتان. أجهر بصوت مثار: إن له رأيه الخاص في العائلة الكريمة، وفي العجوز القابع على شفا الموت، والذي بعد عشرين عاماً حتى استطاع أن يسوي طقماً لأسنانه والذي لا يفوته يوماً زيارة قبر زوجته الفقيدة حليق الذقن، ببنطاله المكوي وحذائه اللماع.

– أليس شيئاً رائعاً؟ بدلاً من أن يذهب إلى «الساعة الخامسة» يذهب إلى المقبرة لمغازلة النساء الأرامل. نزل عن الحافة واقترب من ياني:

– أتسمع؟ و لم لا تقول أنني اكذب؟

– أنت حقير – قال ياني بهدوء. عشت بيننا عشر سنوات... كم خدمتك أمي!

صمت زنتاي لحظات ثم قال بابتسامة حزينة:

– تتعلق بأمك! وبهدهداتها «من فراشة إلى بابا»... لكنها رحلت أيضاً.

ظهر أحد العمال قادماً من الطرف الأخر للفناء. فتح صنبوراً ومال بفمه تحت خيط الماء. شرب ثم اختفى. رسم زنتاي تكشيرته البشعة.

– أنا حقير؟

– وأنتم كيف تعيشون؟ هانيلكا أطاحت بزوجها الثاني، وتسلب

Telegram: somrlibrary

الأول الفورنتات الأربعمائة. غيزيكا مجنونة، تسرح أمامها على الدوام، أحلامها كوابيس، تتباكى لأن أمها ليست على قيد الحياة، لكنها تتخذ عشيقين وتصاحب بشراً غريبين، يواسونها بالثياب، والحذاء، كرامة، أخلاق... كن على علم بأنها خانت زوجها. هيرش أشتفان وحده أكثر غروراً، وعمقاً من ميلكوت سوها، صامت كالقبر.

– اخرس.

– اخرس؟ – ضحك مثاراً.

– لم لا تقدم لي المواعظ؟ شربت، هذا صحيح ومازلت أشرب. عالم بأكمله يضغط علي، تفاهات رخيصة تندلق أمامي، موظفون تافهون يلوون عنقي لمجرد عدم رضاهم عن شكلي فكيف تجرؤون على تقديم النصائح لي؟ أنتم الذين خلفتم ورائي حتى في هذا النظام، أتعلم حتى لو اضطرني الأمر لأتشاجر مع كل موظف على حدة. أنتم تجرؤون على نصحي؟ بأي حق؟ هذا النظام يقبل أعناقكم، يجهد ويتوسل لكي تذهبوا إلى الجامعة وتكونوا أطباء، مهندسين، محامين، رؤساء أقسام، ضباط شرطة، ضباط قياديين، وأنتم قد خرجتم من البراكات وعشتم كالجرذان، جاز، رقص، هاي را. تلتهمون، وتحشون بطونكم وتندسون في أسرتكم أيها الرفيق هابتلر.

أشعل سيجارة بيد مرتجفة.

– لا تنظر إلي هكذا!!! ضحك ساخراً.

– كيف تعيش أنت؟ هل يزيد راتبك عن ألفين. ألا تعمل دهاناً أيضاً، تغسل وتطبخ، وتشطف، وتقبل ولدك الصغير. هل رأيت مسرحاً من الداخل؟ هل قرأت كتاباً؟

Telegram: somrlibrary

بينما أنت صاحب هذه السلطة، خرّاط من الدرجة الأولى، أسير حرب، أحرقت حبيبتك ثمناً لسهوة بسيطة في «أوشفيتز».

لكمه ياني. لكم وجهه. وقع بين حطام الآلات وفارق الحياة على الفور. تجمدت عينا الخرّاط الصفراوين على المشهد المريع. ثم رفع كفيه الضخمين إلى وجهه وصرخ مثل حيوان وظل يصرخ حين التف حوله العمال وقادوه.

عمت الفوضى، وكان الجو في بيت هانيلكا ساخناً، متوتراً. أغلق هابتلر يانوش العجوز الحقائب وكانت أستر تلبس ابنتها الثياب وهانيلكا تجلس على كرسي، مائلة برأسها إلى الوراء، شاخصة في الثريا الموردن وقد مطت شفتيها. وكانت غيزيكا بفرشاة صغيرة مغموسة بحمض الملح تنظف أسنانه.

كان تموز «يوليو» لاهباً. استجمت آغوثا في «شيوفوك» في معسكر طلابي. وابن هانيلكا الصغير اصطحبه مليكوت سوها في عطلة صيفية. هانيلكا وأستر استعدتا للذهاب إلى ميشكلوتس - تابولتسا، إلى منتجع المؤسسة التي تعمل بها أستر. بقي أكثر من ثلاثة أرباع الساعة لانطلاق القطار.

سلقت غيزيكا البيض وأعدت لهما فطائر النقانق. غسلت الفاكهة، وغلفتها في كيس من النايلون، أودعته هانيلكا حقيبتها السياحية المودرن المخططة بالأزرق والأحمر. تصرف هابتلر العجوز كالطفل، أراد أن يتحدث مع محام، لأن ابن عم زوجته المدعو ستادينفر يوجف وجد مقتولاً في شارع «كومون» وعليه أن يثبت بطريقة ما انه خدم، هو أيضاً، في الجيش الأحمر.

- هذا يتطابق مع الحقيقة التامة - قال.

Telegram: somrlibrary

- وأنا لم أعرف الكذب في حياتي وإذا ثبت زعمي فإن راتبي التقاعدي سيزيد مائتين على الأقل. بعدئذ تلفنوا لـ (التاكسي). ودعت البنات أباهن دامعات. وساعدت غيزيكا في حمل الحقائب الثقيلة إلى الأسفل. أمضى العجوز وقتاً وهو يحدق في تمثال بوذا البرونزي. ثم نفض الغبار عن جسد التمثال الممتلئ وخرج إلى المطبخ. ملأ زجاجة بالماء وراح يسقي الأزهار.

Telegram: somrlibrary

Telegram: somrlibrary

أندريه فيش

ليس الإنسان أكثر من عود قصب قابل للكسر. لكنه عود قصب مفكِّر، لا تحتاج القدرة الكلية أن تحشد سلاحاً من أجل سحقه. لأن بوسع قطرة ماء صغيرة أن تقضي عليه. ولكن حتى لو كان بإمكان هذه القدرة الكلية أن تسحق الإنسان، فإنما يبقى هو أكثر نبلاً. لأنه مدرك أنه سوف يموت. في حين أنها لا تعرف شيئاً عن هذه الميزة التي بها يتربع الإنسان فوق عرش الأرض.

هكذا فإن كل ما نتمتّع به من رفعة كامن في تفكيرنا. من هذا المنطلق علينا أن ننتفض كبشر، وليس من منطلق التحرك في المكان والزمان، مسؤوليتنا كبشر أن نفكر جيداً. وهذا هو منطلقنا الأخلاقي.

باسكال

مكتبة سومر

9 782843 091285